تحصيل المرام

في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام

محمد بن محمد الأسطل

مؤسسة زاد

تحصيل المرام

في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام

مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأَسْطَل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٩

اسم الكتاب	تحصيل المرام
اسم المؤلف	محمد بن محمد الأسطل
البريد الإلكتروني	Mastal2010@hotmail.com
رقم الإيداع	٤٣٨٤ / ٢٠١٩
اسم الناشر	مؤسسة زاد
عدد الصفحات	٢١٦ صفحة
عدد الألوان	٢ لون

الافتتاحيَّة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّهِ الكريم، وبعد:

فإنَّ الحقيقةَ المُوجعةَ أنَّ شابَّ هذا العصر منهمكٌ في تَصَفُّحِ مواقع الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، وكان الغالبُ في التصفُّح قبل سنوات أن يكون عبرَ الحاسوب، فكان الاستعمال قليلاً، لكن تطور الأمرُ سريعًا حتى بات في الجوال، وانخفضت قيمةُ الاشتراكِ الشبكي حتى بات أشبه بالمجان..

وأصبح الحرامُ الذي كان يَتَطَلَّبُ رحلةً إلى بلاد الكفر قديمًا لا يحتاج اليوم أكثر من نقرةِ زر، وصار بإمكان الشاب وهو جالسٌ في بيته أن يشاهد ما يشاء، ويراسل من يشاء، وينسج علاقات آثمةً مع من يشاء، ولو أراد أن يسمع صوت من يكلمه أو يرى صورته فليس أكثر من نقرةِ زرٍّ أخرى، فالحرام أسهل من الحلال، والإشكال أنَّ الشاب الذي يسير في هذه الطريق المُلَغَّمة يعاني غالبًا من هشاشةٍ في عظامِ الإيمان، مما يعني أنَّ نسبةَ الإصابةِ بتلك الجراثيم الشهوانية عالية!.

والعجيب أنَّ نفسَ مواقعِ التواصل أو بث الفيديو التي تصلح بوابةً للخير هي نفسها مدخل الشر، فنحن في مرحلةٍ اختلط فيها الحلالُ بالحرام، والصوابُ بالخطأ، والحلو بالمر، والعسل اللذيذ بالسم الناقع، والداء الفتاك بالدواء الفعَّال، والله المستعان.

ومن الشكاوى المتكررة أنَّ من يُعَانِي السَّيئات يُخْبِرُ أنَّهُ يصلي ويصوم ويتلو كتاب الله ويقرأ في كتب العلم ويحضر الدروس ويفعل الخير، ثم إذا تَصَفَّحَ مَواقِعَ الشر فإنه يجد نفسه ضعيفًا وينظر للحرام، ويفعل الحرام، وكأنَّ بُرجَ الإيمان الذي تَعَنَّى في بنائه قد انهار في لحظة، فيصرخ مستغيثًا ما الحل؟!.

وتَشْتَدُّ هذه الزفرات عندما يَتَذَكَّرُ الشابُّ طموحاتِه، وخططَهُ وبرامِجَهُ التي كان يُؤَمِّلُ إنجازها، ثم ها هي تتحطَّمُ على صَخرةِ الشَّهَوات، ويكاد يضطرب نبضُهُ القلبيُّ عندما يحسب السنوات التي ضاعت منه، وما زالت تركض أمام عينيه، فيتسرب إليه لأجل ذلك مقاديرُ من الهمِّ والغَمِّ والحزنِ والألم!.

يريد أن يخرج من هذا الجو الذي تدب فيه القسوة في القلوب، فتزيد معها الذنوب، وتفزع بسببها السكينة الداخلية، يريد الرجوع لذلك الزمن البعيد، يوم أن كان يشعر بصفاء القلب ونقاء الإيمان في دروس التربية وحلقات التحفيظ.

وأمام هذه الشكاوى المتكررة كان لا بد من وقفة معالجةٍ ووقايةٍ إزاء هذا الداء الذي عكَّر صفونا، وشوَّش مَسَارَنا، هذا الداء الذي يبدأ بالنظر المحرم، ويمضي في سلسلةٍ تنتهي بفعل الفاحشة الكبرى، ولهذا جمع الله بينهما في الأمر باجتنابهما في آيةٍ واحدةٍ فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]؛ ليُعلِمَ بأنَّ النظرَ سببٌ للفاحشة، وأنَّ ما بينهما محرمٌ كذلك؛ كالتقبيل واللمس والخلوة وغير ذلك.

وقد جعلت الكتاب مادةً مركزةً تعالج مَرَضَ النظر المُحَرَّم؛ قطعًا لتلك السلسلةِ من السيئات؛ تنبيهًا على أنَّ من ضبط نفسه بغض البصر فقد استراح من عناء الترك لما بعده.

وقد جاء الكتاب في أربعة مباحث: الأول: مقدمات تأصيلية، والثاني: جرعات الدواء، والثالث: حراسة الذات من ذنوب الشهوات، والرابع: مسائل منثورة، وهي من تتمات البحث ومهماته؛ من مثل داء العلاقات الثنائية، وحكم النظر للأمرد وفقه التعامل معه، والتربية الإعلامية للأطفال إزاء الاستعمال الخاطئ للانترنت، والحديث بوضوح عن الفاحشة الكبرى من زنا ولواط وما يتبع ذلك.

وقد حرصت أن أُخرِج مادَّةَ الكتاب على هيئةٍ صالحةٍ للاستعمال في الدروس والمحاضرات؛ ليكون عونًا للوعاظ والخطباء والمربين على تناول الموضوع أو أجزاء منه، ويظهر ذلك جليًّا في موضوعاتٍ منها: سياسة الشيطان في غواية الإنسان، وفقه التعامل مع الذنب، ونظرية التطييب، ومنطلقات العبد في التعامل مع الرب ، والسيئة المهلكة، وتضييق دائرة المحرمات عند تحتمها، وغير ذلك.

وفي ختام هذه المقدمة: أسأل الله أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب، وأن يجعله حجةً لي لا علي يوم المآب، إنه رحيمٌ تواب كريمٌ وهَّاب.

وأشكر فضيلة شيخنا الدكتور **يونس بن محيي الدين الأسطل** وكذلك أخي الشيخ **حمزة بن عبد الكريم الأغا** على ما تفضلا به من مراجعةٍ للكتاب، وإثراءٍ له بما يسر القلب ويبهج النفس، فجزاهما الله كل خيرٍ وفضيلة.

وهذا ما أنجزت تأليفه وترتيبه، وجمعه وتبويبه، فإن أحسنت فهذا محض فضل الله عليّ، وإن زللتُ فالزلل منسوبٌ إليّ، وأعوذ بالله أن أذكركم به وأنا منه بريءٌ براء، وأستنصحكم بقول العلامة **الحريري** في خاتمة المُلحَةِ:

فَانظُرْ إليها نَظَرَ المُستَحسِنِ ... وأحسِنِ الظَّنَّ بها وحَسِّنِ
وإنْ تَجِدْ عَيبًا فَسُدَّ الخَلَلا ... فَجَلَّ مَنْ لا فيهِ عَيبٌ وَعَلا[1]

والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل

مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأَسْطَل

فلسطين – قطاع غزة – خان يونس

للتواصل[2]: **Mastal2010@hotmail.com**

(١) ملحة الإعراب (١/ ١٦).
(٢) يمكن التواصل على الفيس بوك على حساب: «محمد بن محمد الأسطل».

المبحث التمهيدي

مقدمات تأصيلية

يشتكي كثيرٌ من الشباب ضغطَ الشهوة عليه، وينتهز الشيطان هذه الثغرة عند الشاب[1] فيهون عليه الوقوع في درك آثام الشهوات عامة، والنظر إلى الحرام خاصَّة، ثم تبدأ رحلة العذاب النفسي بعد تلطخه بالذنب.

وقبل الإدلاء بجرعات الدواء وأشكال الوقاية لا بد من تفكيك أطراف القضية، فنتكلم أولاً عن الداء، ثم نتعرف على طبيعة الشهوة نفسها وخصائصها، ونقف على عقلية الشيطان في غواية الإنسان، وكيف يخلط حبله الأول «الشهوات» بحبله الآخر «الشبهات»، ثم نستعرض معالم فقه التعامل مع الذنب فيما لو حصل، وإمكانية الشفاء من جراحاته، بل وبناء صرحٍ إيمانيٍّ شاهق يحمي صاحبه إلا من طلقات الصغائر الطائشة.

وهذه التوطئة تستدرجني إلى بثِّ هذا المبحث في ستة مطالب:

(١) أي والفتاة، وأكتفي بذكر الشاب تغليبًا؛ لأنَّ الفتنةَ من جهة النساء أشد، وإلا فالكتاب موجهٌ لكل من يحتاجه.

المطلب الأول

البطاقة الشخصية للداء

باتت طريق الشاب ملغمةً بما تقع عينه عليه، ولم يعد الخطر آتيًا من الانفتاح في بعض المجتمعات، والاختلاط في بعض الجامعات والتجمُّعات فحسب، بل -بعد أن أصبح العالم قريةً واحدة عبر التواصل الشبكي- بات التواصل المُحَرَّم والنظر المُحَرَّم لا يحتاج أكثر من ضغطة زر!.

نعم! صار بإمكان الشاب أن يراسل من يشاء، ولو أراد أن يسمع صوته فليس أكثر من ضغطة على الأيقونة المخصصة لذلك، ولو أحب أن تكون المكالمة فيديو فضغطة أيضًا على الأيقونة التي بجوارها، فيصبح كأنه أمامك ولو كان في أقصى الأرض!.

ولو خطر ببالك التجول في ميادين المواقع الالكترونية، وفتحت موقعًا مشهورًا؛ كاليوتيوب مثلاً.. فستجد نفسك داخل سوق ضخم، فيه أكثر من ١٢٠ مليار مادة مرئية[1]، وما فيه من سلعٍ فهي بالمجان، ومادة الخير بجوار مادة الشر؛ فمقاطع التلاوة المبكية، والمواعظ المؤثرة، والمحاضرات العلمية المتخصصة بجوار مقاطع الفحش والفساد، كأنك في متجر، ومن يبيع فيه المصحف بجوار من يبيع الخمر من غير حدٍّ فاصلٍ بينهما!.

(١) انظر موقع ثقافة أون لاين، بعنوان: كم عدد الفيديوهات على موقع اليوتيوب.

إنَّ موقعَ اليوتيوب وحده يستقبل أكثر من ٦٠ ساعة فيديو كل دقيقة، وهذا يعني أنَّ ما يرفع فيه كل يوم يعادل ٩ سنوات و١٠ أشهر من المشاهدة المتواصلة، وأن عدد المشاهدات اليومية تتجاوز ٤ مليار مشاهدة[١]!.

وكان الغالب في تصفح الانترنت قبل سنوات أن يكون عبر الحاسوب، وتطور الأمر سريعًا حتى بات في الجوال، وانخفضت قيمة الاشتراك الشبكي حتى بات أشبه بالمجان؛ لأن الثمن الغالي الخيالي هو الإنسان، ويأتيك من شهادات الواقع يوميًّا ما لا يحصى من الإفادات التي تنبئ بانهيار طموحات كثيرٍ من الشباب، وتفكك العديد من البيوت، وفقدان حلاوة الإيمان، وهجران كثير من الطاعات، والتوغل في مسالك كثيرة من السيئات، كطرف من مظاهر الثمن الذي ندفعه، وكم حضرنا تشييع كثيرٍ من العوائل أَرْدَتْهَا طلقات مواقع التواصل.

أي مقدار من الإيمان يحتاجه الشاب في هذا الزمان حتى يُقلع عن النظر فيما لو حملته الخطرات الرديئة على فتح جواله، وتيسر رؤية ما كان الرجل إلى عهدٍ قريبٍ يحتاج لرحلة إلى بلاد الكفر ليرى ما هو أقل منه بمراحل!.

وإذا انضم هذا إلى هشاشة عظام الإيمان في الإنسان الذي خُلِق ضعيفًا، وأن نبينا ﷺ ما ترك بعده فتنةً أضر على رجال أمته من النساء، وإذا استحضر العبد أنه لو تمادى في رغبات نفسه، وتفاعل مع وساوس شيطانه أنه عُرضة لما وراءه يوم الوعيد من العذاب الغليظ، والبطش الشديد، وأن الله عظيمٌ حقُّهُ أن يُطاع فلا يعصى، وألا تنتهك محارمه.. قفز سؤال عندئذٍ فرض نفسه على صفحة ذهن صاحبه وسيطر عليه:

(١) انظر موقع youtube للصحافة.

كيف أتعامل مع هذا العناء العظيم؟

وكيف أفعل وأمواج الفتن تهيج، وسعار الشهوات يشتد، وعيون الغريزة مستيقظة تتمنع على النوم، والزواج عقَّدْته قيود المجتمع؟!.

والآن خلِّ عنك جوابَ هذا، ولنرجع قليلاً في السنوات..

لو فتَّش الشاب في أوراقه القديمة، وقلَّب دفاتره العتيقة، ورأى خططه وطموحاته لَمَّا كان ابن عشر سنين ما شعوره عندما يرى أنه بلغ سن الحُلُم[1] فجأة، وأصبح أهلاً لأن يُخَاطب بالتكليف الشرعي، وبات قادرًا على معرفة الحق من الباطل، بما يشي بأنه ذو منزلةٍ رفيعةٍ وقدر كبير في نظر الشريعة!.

في هذا التوقيت بالذات بدأ مارِدُ الشهوة يتململ من جوانبه، كأول جدار يعترضه في طريق الابتلاء بالتكاليف الشرعية، وأنه إن تجاوزه سار في طريق طموحاته وأبدع وتألق، وإن رسب فقد سيطرت الشهوة على عقله، حتى بدأ يرتخي في مسالك العلم والإيمان والالتزام، وتوجه في مسارٍ جديد.

ولكن لماذا عُلِّقَ التكليفُ بتمام خمس عشرة سنة على الأكثر في الذكر والأنثى؟.

نقل **السيوطي** عن **السبكي** أنَّ المكلف يبلغ سن النكاح عند هذا العمر، ويمكن حينها أن يأتي بمثله بإذن ربه.

ثم إنه في هذه الفترة يبدأ يشعر بهيجان الشهوة إلى النساء، بل وتتسع دائرة الشهوات الأخرى كالمطعم والمشرب، مما يدعوه إلى التبسط في ذلك، واقتراف ما يحرم، ولا يحجزه عن ذلك إلا رابطة التقوى، وتشديد المواثيق عليه عبر الوعيد والترهيب، بالإضافة لتربية الوعد والترغيب.

---

(١) بأن احتلم الغلام، أو حاضت الفتاة، أو بلغ كل منهما خمسة عشر عامًا هجرية، بما يوازي أربعة عشر عامًا ميلاديًا ونصفًا تقريبًا.

وأمرٌ ثالث: أنه في هذه السن ينضَج عقله، ويشتد أزره، وتتوفر قوته البدنية، مما يُمَكِّنه من أداء الطاعات، واحتمال العقوبات عند المخالفة.

فاقتضت الحكمة الإلهية توجيه التكليف إليه عند توافر الدواعي الشهوانية، والقوى البدنية، والمدارك العقلية[1].

وبهذا أصبح للصبر على الطاعات وعن السيئات قيمة وأي قيمة، فهو اليوم يعاني السيئات ويقاسي الخطيئات، وربما تذكر نفسه قبل هيجان الشهوة عنده، حين كان يجتهد في حفظ القرآن في حلقات التحفيظ، ويبالغ في بر والديه، والاعتناء بدراسته، ثم هو اليوم مشتت الحال، منشغل البال، تدهورت دراسته، وماتت طموحاته، كلما رتب ملفاته تبعثرت من جديد، كلما كتب وخطَّط تشوش ذهنه وتخبَّط، وهو يرى نفسه يسقط مرةً بعد مرة، وربما اقتحم الحرام في الأزمنة أو الأمكنة الفاضلة، حتى حاق به الإحباط، وسكن فيه اليأس.

وفي لحظة حيويةٍ إيمانيةٍ تجده يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، ويشهده أنه يحبه ويحب دينه ورسله وعباده الصالحين، وأنه يكره الكفر والفسوق والعصيان، ويشرع في تحصيل رصيد فعَّال من التقوى والإيمان، ثم إذا رأى فتاةً أو مقطعًا مصورًا ينسى كل ذلك في لحظة، ولا يملك الصبر عن النظر، ثم يعود شاكيًا من جديد:

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ص (٣٩٢)، وانظر: غاية المنى شرح سفينة النجا للدوعني ص (١٠٨).

هل إلى خروج من هذه البئرمن سبيل؟!

أقول: هذا الكتاب محاولةٌ اجتهاديةٌ للجوابِ عن هذا السؤال.

ولكن ليعلم أخي القارئ أني لا أستطيع فعل شيءٍ دون عزمٍ منه على التفاعل معه، فالقراءة النافعة مشروطةٌ هنا باستحضار نية العمل، وفي نفس الوقت لا أُنَظِّر للعصمة، فقد انتهت بموت المعصوم ﷺ.

لكن قضيتنا في النهاية ليست أكثر من مشكلة، وكل مشكلة مهما تعقدَّت فلها حل، وما من داءٍ إلا وله دواء، وأحد أطباء الآفات التربوية -وهو **ابن القيم**- كتب كتابًا أسماه: «الداء والدواء» جوابًا عن سؤال ينتسب للموضوع الذي نناقشه هنا، وتم تسجيل السؤال في صدر الكتاب، ونصه:

«ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجلٍ ابتلى ببلية وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد إلا توقدًا وشدة! فما الحيلة في دفعها، وما الطريق إلى كشفها، فرحم الله من أعان مبتلى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين»[1].

وأنبه أنَّ مادةَ هذا الكتاب لا تتناول نظر الحاجة، ولا الذي يشق على صاحبه التفلت منه مع خلوه من الشهوة؛ كالنظر إلى المحاضِرة الجامعية، أو إلى الموظفة التي تنجز لك معاملة رسمية، أو بعض نساء الجيران، مع تجاوز الخلاف الفقهي في ذلك، وإنما تدندن مادتنا حول النظر المحرم الذي صاحبه القصد من صاحبه.

(١) الداء والدواء لابن القيم ص (٢).

المطلب الثاني

سُلطـــة الشهــوة

ألقيـتُ محـاضرةً دعويـةً مـن سـنواتٍ بعيـدة في طلبـة إحـدى الكليـات، ومـر بنـا حديـثٌ عـن الشـهوة، ومنـذ ذلـك اليـوم وأنـا أُقَلِّـبُ النظـرَ في طبيعـة الشـهوة، وخصائصهـا، وأدون هنـا خلاصـة مـا تحصَّـل عنـدي مـن مطالعـةٍ وتأمـلات، ممـا يـدل مجموعُـهُ أنَّ **الشـهوةَ معجـزةٌ كـبرى لـو فُقِـدت لتغـير وجـه العـالَمَ.**

ينشـأ الشـاب والشـهوة فيـه كامنـةٌ نائمـة، فـإذا بلـغ سـن التكليـف اسـتيقظت شـهوته، وبـدأ الـذي كان يزمجـر غضبًـا وهـو صغـير لـو مازحـه أحـد مـن أقاربـه أن يتـزوج يـرى في الـزواج اليـوم حبـل النجـاة، ولا يهـدأ لـه بـالٌ دونـه، ومسـتعدٌ لأن يقـضي أعـز سـنوات شـبابه في العمـل مـن أجـل تحصيـل المهـر، وتكاليـف البيـت والـزواج.

فـإذا تـزوج غمـره الحنـين للبنـين، والبوابـةُ لذلـك هـي الشَّـهوة، وهـذه البوابـة هـي المسـئولة عـن امتـداد الجنـس البـشري كلـه.

والآن هـو قائـدُ بيـتٍ وربُّ أُسْرَةٍ، ومـن ثَـمَّ يواصـل العمـل ويتحمـل العنـاء بقيـة العمـر لتحصيـل نفقـات الإعالـة لأهلـه، ويدفعـه ذلـك للعمـل المناسـب المتـاح، ولأجل ذلـك تـرى المصانـع والمعامـل والمتاجـر والأسـواق والمـدارس والجامعـات والـشركات ومـا لا يُحـصى مـن أشـكال الوظائـف، في حركـةٍ فاعلـةٍ صاخبـةٍ تذهـل كل متأمـل.

وأمـا الزوجـة فإنهـا تخضـع لآلامٍ عنـد الـولادة يـكاد العقـل أن يفقـد تركيـزه وهـو يسـمع عنهـا، وربـما حلفـت المـرأة ألا تعـود لذلـك أبـدًا، ومـا إن تهـدأ الأوجـاع حتـى تجرهـا شـهوة الغريـزة وحـب الولـد إلى الحمـل وهنًـا عـلى وهـنٍ مـن جديـد!.

فالشهوة إذن هي القوة الهائلةُ المحركةُ لإقامة البيوت، ومشاريع الاقتصاد، وامتداد النسل البشري كله، وكأن الإنسان يُستدرج لهذا بها، شاء أو أبى!.

وأما خصائص الشهوة التي تقدمت الإشارة إليها فإليك سبعًا منها:

أولاً: إنَّها عنيفةٌ إلى آخرِ حد، ومن عنفها وشدتها كانت أضرَّ فتنةٍ يُختبر بها الناس، ولا تفرق بين مراهقٍ صغير وشيخٍ كبير، وإن تفاوت الناس في درجة ذلك، بل يبقى في الشيخ الهرم الفاني من الميل القلبي ما يستذكر به ما كان عليه، ولهذا لم يُستثن في الأحكام الفقهية من حرمة النظر والخلوة ونحوهما.

ومع أنها كذلك إلا أنها محاطةٌ بما يهذبها؛ فهي في محل عورة، وفي الموضع الذي يخرج منه البول النجس والمني القذر عند الرجل، ودم الحيض والنفاس عند المرأة، واللقاء الزوجي يقوم على اجتماع آلة البول عند الرجل بجوار آلة البول عند المرأة، كما قال أحدهم مزهدًا من الدنيا:

وأشهى ما ينال المرء فيها مَبالٌ في مبالٍ مستطابِ

ومجمل هذه الأشياء تنفر الإنسان من تلبية نداءات الشهوة، حتى قال إبراهيم النخعي: إذا رأيت المرأة فأعجبتك فاذكر مناتنها[1]!.

ورغم كل ذلك إلا أن عنفها جعلها بما تسطر مهذبةً منضبطةً لا ضعيفة، حتى إنَّ الرجل ليطلب أهله بشوقٍ بمجرد تطهرها من الحيض أو النفاس.

ثانيًا: إنها ضعيفةٌ إلى آخر حد، فالعنف لا يستلزم القوة، وبلغ الضعف بها أنه يمكن العيش من غير زواج أصلاً، بخلاف شهوة الطعام مثلاً، فهي هادئة لا عنيفة، لكنها قوية لا يستطيع صاحبها الاستغناء عنها ولو لأيامٍ معدودة.

(١) كتاب الآثار لأبي يوسف، رقم الأثر: (٨٩٤).

وبناء على ذلك يوجد من لم يتزوج، ومن هنا صنَّف الشيخ **عبد الفتاح أبو غدة** كتابه: «العلماء العزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج»، كالإمام **مسلم والنووي وابن تيمية**.

وهذا يخدم في إمكانية صبر الشاب عنها، وضبطه لأمرها حتى يتيسر أمر زواجه، وإن الذي خلق الإنسان قال في القرآن: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣].

ثالثًا: إنها سريعة اليقظة سريعة النوم.

فيمكن أن تستيقظ بمجرد رؤية صورة عابرة، أو فتاة متبرجة سائرة، وقد يتعكر صفو صاحبها بعدها أيامًا، ويستثار بذلك لِمَا للشهوة من قوة جذب شديدة جدًّا، ولهذا حُرِّمت مقدمات الزنا، من نحو إطلاق البصر والخلوة ومصافحة النساء ومصاحبة الأراذل؛ لأن هذه المنطقة لا يتم السيطرة عليها مع الأيام..

ويضرب الشيخ **محمد راتب النابلسي** صاحب الأمثلة الإبداعية مثلاً لذلك بتيار كهربائي قوته ٨٠٠٠ فولت، يقول: هذا التيار مجاله ثمانية أمتار، من دخل في مجاله أصبح فحمةً سوداء من قوة جذبه، ولهذا يضعون أسلاكًا شائكة حوله بمقدار المجال، وزيادة في الاحتياط يضعون دائرة ثانية من الأسلاك، ويكتبون عليها: ممنوع الاقتراب، ومن هنا منعت الشريعة الاقتراب من المنطقة المحيطة بالفاحشة[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]؛ إذ من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

ولما كان النظرُ أحدَ المقدمات الأساسية لمن يقع في الفاحشة جمع الله بينهما في الحرمة بقوله جل شأنه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠].

(١) انظر محاضرة «الإنسان والشهوة» للشيخ محمد راتب النابلسي.

ولا يتاح لك العجب بعد الذي قرأت إن رأيت اللهجة النبوية تشتد على مقتحم تلك المقدمات؛ ففي المصافحة مثلاً يقول: «لأن يُطْعَنَ فِي رَأسِ أحدِكُم بِمخيط من حَدِيدٍ خَيرٌ لَهُ مِن أن يَمسَّ امرأةً لا تَحِلُّ لَهُ»(١).

ولهذا لا تقبل التبريرات الباردة؛ كذاك الذي يزعم أن له المصافحة لأنها لا توقظ شهوته، ولو افترضا صحة كلامه فستستيقظ شهوتها هي، ولو لم يحصل ذلك في المرة الأولى فإنه سيحصل في المرة الثانية أو الثالثة، ولو افترضنا برودهما المطلق فإنهما حالة شاذة ونادرة، والنادر في النظر الفقهي لا حكم له، فيبقى الحكم على أصله من الحرمة.

وفي الاتجاه المعاكس فإنَّ الشهوةَ يمكن أن تنام فورًا، ولو وجدت بعض المثيرات، وبمجرد أن يُنْزِلَ الرجل فإنها تنام مباشرة، ولعل من حكمة ذلك أنها لا تهدأ إلا إذا أنزل الرجل بما يضمن امتداد الجنس البشري، ولله الحكمة البالغة.

رابعًا: ليس لحضورها ضابط، فيمكن أن تشتد في أوقات، وربما من غير سبب، وتبرد في أوقات، وربما مع قيام السبب، ولعل السر في ذلك أن يخف سعارها؛ إذ لو توافقت تمامًا بين الجنسين لكانت أشد هياجًا، لكن الملاحظ أن يقظتها في ظلام الليل أكثر من ضياء النهار.

خامسًا: إنها زينة لا قيمة؛ كمكياج المرأة لا يعبر بالضرورة عن جمالها، وهذا المعنى مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران:١٤]، وهذا الجزء من الآية يجيبنا عن سر الخضوع للشهوات مع ما يحيط بها من مُنَفِّرَات.

(١) المعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث: (٤٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٠٤٥).

لكن من أهم ما ينبغي التوقف عنده هنا أنها خادعة؛ فقد تزين لك النظر، وتشعرك أن المرئي في غايةٍ من الجمال، ولو تمكنت منه لم تجده على قدر ما رأيت، كالسراج لو أدنيت منه متاعًا لرأيت ظِلَّهُ كبيرًا، وهو في الواقع صغير، وهذا يحمي الإنسان من الاغترار بها.

سادسًا: أنها حيادية، فلو أنفقها الشاب في الزواج لأخذ أجرًا، ولو جعلها في الفاحشة لحَمَل مقتًا ووزرًا، كالذكاء يمكن أن يتخذه صاحبه مطيةً لفعل الخير أو لفعل الشر.

ومن العجب أنَّ الإنسانَ يَقبَلُ أن يراها من غيره، ويسوؤه أن تُرى منه، ولهذا سُمِّيت سوأة.

سابعًا: إنها عامةٌ في الناس، وإن كانت خفيةً مستورة؛ لأنها من جملةِ حوائج الجسد.

وأنبه هنا أن بعض الناس لا يتفهم طلب ولده البالغ الزواج، خاصة إذا كان مغتربًا، أو يعمل أو يدرس في أماكن مختلطة، وربما تهكم به، وأنه ما زال في عُمُرٍ أقرب إلى الصغر، وإني لأخشى أن يفضي هذا التعامل إلى تفلت الولد وتدميره نفسيًّا إذا رأى أهله لا يتفهمون حاجته.

الشهوة في النظر الشرعي[1]:

الشهوةُ من أهم مقومات التكليف، ولحكمةٍ أرادها الله تناقض الطبعُ مع التكليف، فالطبع يتوافق مع حاجة الجسد، والتكليف يأمر بالغض من إطلاق البصر، لكن التكليف هنا يتوافق مع الفطرة.

(١) بعض ما جاء هنا مستفاد من محاضرة «الإنسان والشهوة» للشيخ محمد راتب النابلسي.

وللسلامة من هذا التعارض فإن الشريعةَ تشق لكل شهوة قناةً نظيفة يمر الناس منها، وتتمثل هنا في الزواج، فالمسألة في الشريعة تنظيمٌ للشهوة لا حرمانٌ منها.

وأما ألم معاناة الشهوات قبل التمكن من الدخول في القناة النظيفة فهو الجبهة الشرسة التي يُمتحن فيها الناس، وهو منسجم مع حف الجنة بالمكاره واحتفاف النار بالشهوات، فمن صبر حتى يغنيه الله من فضله ارتقى إلى الله بصبره، ومن تزوج ارتقى إلى الله بشكره، فالشهوة سبيل للترقي في معراج علاقتك مع الله إما صابرًا وإما شاكرًا.

بالله عليك؛ هل كان ليوسف أن يكون على خزائن الأرض، وأن يصبح عزيز مصر، وصاحب الكلمة النافذة فيها، لو خضع لامرأة العزيز؟!.

والله ما بلغ ولا صار إمام العفاف في القرآن إلا لما قال لامرأة العزيز: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف:٢٣]، والذي رفع مقامه أنه قال ذلك وهو شابٌّ أعزب وفي غربةٍ وأشبه بالعبد وهي التي راودته، مع ما كانت عليه من منصبٍ وجمال، وهو آمنٌ من العقوبة، فسبحان من خلَّد ذكره في القرآن بهذا العفاف الفاخر.

وباعتبار الشهوة جبهةً في النظر الشرعي فإنَّ العبدَ لو زلَّ بالنظر المحرم فما فوقه مع بقاء الشهوة تتململ في أرجاء نفسه فإن هذا يجعلها قوةً دافعةً للتوبة المتكررة، والاستغفار الكثير، وفعل الحسنات الماحية للذنوب، وحيث نظر العبد إليها على أنها قوةٌ دافعةٌ للعمل لا أنها قوةٌ مدمرةٌ للأمل فبشره بالفقه العميق والفهم الدقيق!.

ومن المهم أن تعلم أن هذه الجبهة لها أخوات أُخَر، وقد طاف بعض الخبراء التربويين في نصوص الشريعة وميادين الحياة وقدموا لنا إحصاءً يفيد بأنَّ الجبهات

التي تغوي الإنسان خمس: شهوات الدنيا، والشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وإخوان السوء، وحظوظ النفس المذمومة، وقد نظمها **المختار بن بونا** ﷺ بقوله:

للإنسان شيطانٌ ونفسٌ وحظُّها ... ودنيا وإخوان حَمِيّتُهم خطر
ولله فضلٌ لا يزال ورحمةٌ ... ومَنٌّ وتوفيقٌ وعفوٌ لمن وزر
إلهي اكفنا الخمس التي في اتباعها ... هلاك وعاملنا بخمستك الأخر

بقي أن أشير أنَّ الشهوةَ لها اعتبارٌ في النظر الفقهي، ومن شواهد ذلك أنَ جماعةً من العلماء يجعلون مس الذكر بشهوة ناقضًا للوضوء، وإلا فلا، وتوجيه كلامهم أنَّ مسَّ الذكرِ إن كان بشهوة فإنَّ هذا يجعل مسه يختلف عن مس بقية أعضاء الجسد، وعلى ذلك يحمل قوله: «مَنْ مَسَّ ذَكَرَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ»[1]، وإن كان المس بغير شهوة، فإن مسَّه عند ذلك يكون كمس سائر أعضاء الجسد، ويحمل عليه عندئذٍ قوله ﷺ لما سئل: مَا تَرَى فِي رَجُلٍ مَسَّ ذَكَرَهُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «وَهَلْ هُوَ إِلَّا بَضْعَةٌ مِنْكَ»[2][3].

وفي ختام هذا المطلب أؤكد أنَّ ما تسطر فيه كفيلٌ بأن يستفز همة المهتم ليتعمق في فهم هذا النظام العجيب الذي ركبه الله في بني آدم، والحمد لله رب العالمين.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٨١)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٦٣)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٧٩). صححه الألباني واللفظ لأبي داود.
(٢) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٦٥). وصححه الألباني.
(٣) انظر: الشرح الممتع لابن عثيمين (٧/ ٢٨٢)، تمام المنة في التعليق على فقه السنة للألباني ص (١٠٣).

المطلب الثالث

سياسة الشيطان في غواية الإنسان

هذا العنوان عام، والمقصود خاصٌّ بالباب الذي نعالجه.

وبعد..

فإنَّ الشيطانَ لما طُرد من رحمة الله لم يحتمل أن ينجو بنو آدم دونه، وقد أدرك أن نقطة الضعف فيهم هي نظام الشهوات الذي ركبه الله فيهم، ومن هنا اتخذ من كشف العورات منطلقًا لخطة إغوائهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠]، وذلك عبر جسر الوعود المزيفة من الترغيب بالخلود والملك الدائم، ولهذا ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠].

ثم أراد خلع عمود الإيمان من القلب سعيًا في توحيد المصير بدخول نار السعير، وإن فشل فلا أقل من خلخلة ذلك العمود ليدخل المؤمن النار أولاً وإن دخل الجنة آخرًا، وفي أضعف الأحوال ينجح في حط درجته في الجنة، وبهذا تلتقي جميع الخطط في زحزحة مادة الإيمان عن القلب كلها أو بعضها.

وهذه الأهداف الكبيرة لا بد لها من خطط معقدة.

وفي وضوحٍ تامٍّ بيَّن الله جل وعلا علاقتنا بالشيطان بقوله:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]..

وبدأت المعركة على هذا الأساس، ولنتصور قلب المؤمن حصنًا مستهدفًا لقلع مادة الإيمان منه، والأعمالُ الفاضلةُ والصفات الحسنة الساكنة فيه بمثابة الجنود الذين سيصدون اعتداء الشياطين.

وبدأت المعركة!.

وأول أخبار المواجهات بيننا وبينه بدأت بتقدم الشيطان وجنده إلى الحصن، وفرضوا عليه حصارًا رباعيًّا أعلمتنا به سورة الأعراف عبر تسجيل تهديد الشيطان لبني آدم بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ [الأعراف:١٧]؛ أي: لآتينهم من جميع الجهات بالتزهيد في الآخرة، والترغيب في الدنيا، وإلقاء الشبهات وتحسين الشهوات[1].

وما إن أحس المؤمنون بتقدم العدو حتى امتشقوا السلاح، واعتلوا الأسوار، وأعدوا خطط الدفاع سريعًا، وقام من يُحرض المؤمنين على القتال، ويرغب في الشهادة، ويزهد في الدنيا، وينفر من التثاقل إلى الأرض، وتمكن المجاهدون بهذا المستوى من الجهوزية العسكرية من صد كل محاولة لاختراق الحصن، وكلما أعاد الشيطان الكرّةَ ضُرب جنده بالحديد، وانتكسوا من جديد.

وبقي النزال على هذا الحال أيامًا وأسابيع!.

وبدأ اليأس يسيطر على القوات الشيطانية، وأخذ الإحباط منهم كل مأخذ، حتى اضطر الشيطان لإعادة التخطيط والتدبير، وأخيرًا لاحت في ذهنه فكرة خطيرة! فكرةٌ كفيلة بنزع سلاح القوم من غير قطرة دم! بل وقادرة على إخضاع المجاهدين لتسليم أنفسهم بأنفسهم، فما الذي يتردد في صدره يا ترى؟!.

(١) المختصر في التفسير، تفسير سورة الأعراف ص (١٥٢)، والتفسير من إصدار مركز تفسير للدراسات القرآنية.

لما حلَّ الظلام جمع الشيطان جنده وقسَّمهم ثلاثة أقسام: فريق يركب الخيل، وفريق راجل يمشي، وفريق مدني لا سلاح معه، وأمر القسمين الأولين بالاختفاء عن المشهد بالكلية، والبقاء على جاهزيةٍ للهجوم، وكلَّف الفريق الثالث بإنشاء معالم حياة آمنة، من بيوت وسوق وحدائق وغير ذلك، ثم عقد مهرجانات غنائية صاخبة، فيها الأكل والشرب واللهو والنساء والرقص، وهكذا!.

وتابع المجاهدون ذلك باهتمام، وما إن اكتمل البناء حتى ارتفعت أصوات الغناء، ورأى المجاهدون تمايل النساء، ومظاهر الفرح والصخب، ولا يشكُّون أن ذلك خدعة، لكن مع استمرار الحال على ذلك أيامًا تراخوا ووضعوا السلاح بجانبهم، مع إمكانية امتشاقه بسرعةٍ عند أي طارئ، ثم قرر عددٌ منهم النزول ليستكشفوا الأمر عن قرب، وعادوا يخبرون إخوانهم بأن القوم قرروا العيش في سلام، وأنهم ملوا الحروب، وهم في النهاية أهل لذات وشهوات لا أكثر ولا أقل!.

واستطاع هؤلاء من خلال الاحتكاك المباشر أن يستميلوا بعض المجموعات المؤمنة بالمال، ووعدوهم بإصلاح الحال، فعادوا يبشرون إخوانهم أن الله كفاكم القتال، وفتح لكم بابًا من الخير، وبدأت الوفود تتتابع في النزول، وآل الأمرُ بأكثرهم إلى الاختلاط بهم، ومؤاكلتهم، وحضور حفلاتهم على ما فيها من اختلاطٍ وفسادٍ وعورات، واقترفوا معهم السيئات!.

وفي وسط هذا التساقط المظلم ما زالت هناك فئةٌ مؤمنةٌ ثابتةٌ تصدح فيهم: احذروا هؤلاء، لقد سقطتم في الامتحان، هذه حيلةٌ كبرى لإبادتكم، لكن صوت هذه الفئة خافتٌ في وسط صخب الكثرة الساقطة.

وصورة المشهد الآن أنَّ الكثرةَ نزلت في الميدان، وأن بقيةً صالحةً ما غادرت الحصن، وما زالت على العهد تحرس الثغور الموكلة بها.

وفجأة! يأمر الشيطان جنده الذين غيَّبهم عن الأنظار بالتقدم بسرعة البرق، وتتحرك القوتان الراكبة والراجلة وتتمكن من أبواب الحصن ومنافذه، ويكتشف المؤمنون أنهم وقعوا في الفخ، واستدرجوا في كمين محكم، وأنهم مُقَتَّلون لا محالة، والكارثة أن السلاح عنهم بعيد، مسافةً وقلبًا، فما عادت قلوبهم على عهدها من طلب الشهادة والإقبال على الجنة، وأين ما هم فيه الآن من وسخ الشهوات مما كانوا عليه من الطهارة والخشية وبيع النفوس رخيصة في ذات الله؟!!.

أذلّتهم المعصية، وجعلتهم ينتظرون قرار الشيطان فيهم، وقام الشيطان يقطع ذهولهم ويقول: لن أفتك بكم، ولكن سأشارككم في حصنكم!، فكادوا يرقصون طربًا من الفرح، لكنه قطع عليهم فرحهم قائلاً: إن شركتي ليست على التحديد، ولكن على الشيوع، بمعنى أني لن أجعل جزءًا من الحصن لي وجزءًا لكم، ولكن نتشارك في كل جزءٍ فيه مناصفةً، فلي في كل بيت وسيارة ومتاع النصف، ولكم كذلك، أما الأفراد الذين ما زالوا يحرسون ثغورهم فلن أخوض حربًا معهم؛ لأنهم على استعداد بالقتال بحيث لا أصل إلى واحدٍ منهم إلا إذا قتل منا نفرًا، فهؤلاء لا سلطان لي عليهم إلا من المناوشات الخفيفة!.

ولم يملك القوم إلا الموافقة على هذه الشركة المجحفة، لكنها أهون في نظرهم من الطرد التام، **وبدأت معالم هذه الشركة تظهر في الأموال والأولاد وعموم التصرفات.**

فالمال مثلاً نصفه ينفق في رضا الرحمن، ونصفه في سبيل الشيطان، وقد يأتي من حلال، وهذا حقُّ الرحمن، لكنه ينفق في حرام، وهذا نصيب الشيطان.

الولد مسلمٌ على دين الرحمن، لكن تربيته على مبادئ الشيطان، فالذي ينظر في هويته يقول: إنه مسلم، والذي ينظر في أفعاله يقول: إنه شيطان!.

تجد الواحد فيهم يصلي امتثالاً لأمر الرحمن، لكن لا يجعل صلاته في المسجد تماشيًا مع رغبة الشيطان.

والذي يصلي في المسجد اتباعًا لحق الرحمن تجده لا يخشع في صلاته، أو لا يستفيد منها في ميدان حياته؛ فتجده يماطل في المعاملات المالية، أو يعق والديه، أو يظلم زوجته وأولاده، أو يشرب الدخان، أو يقطع الأرحام، أو يحضر المسلسلات والأفلام، وينظر إلى الحرام، وربما صافح النساء، وحادث الفتيات، وكان ممن ينتهك محارم الله في الخلوات.

وبالجملة؛ فإنه يجتهد في إنجاز حقوق الله من الصلاة وطلب العلم والجهاد وغير ذلك من العبادات، لكنه يلتزم بالعقود التي أبرمها مع الشيطان، بحيث من ينظر إلى صفاته في الجانب الأول يشهد له بالخيرية والفضل، ومن ينظر إلى خصاله في الجانب الآخر يعتقد أنه من شرار الخلق، اجتمعت شخصيتان متقابلتان متعاكستان في جثةٍ واحدة!.

والآن بعد أن اطلعت على طرفٍ من السياسة الشيطانية في غواية الناس ناشدتك الله؛ هل هناك مكرٌ صادر عن مخلوق أعظم من هذا المكر؟! هل هناك استدراج أنكد من هذا الاستدراج؟! هل هناك ازدواجية أشأم من هذه الازدواجية التي تفرزها هذه السياسة؟!.

وبعد؛ فإنَّ مجملَ هذا المشهد التمثيلي ما هو إلا محاولةُ تقريبٍ ميسرٍ للإجمال الوارد في آيات الإسراء:

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٤، ٦٥].

بالله عليك أعد تلاوة الآيتين مستحضرًا المشهد العسكري الفائت، ومتأملاً روعة التعبير وعظمة التصوير!.

إنَّ الآية الأولى تقول: استفز الشيطان العباد الصالحين من أماكنهم بصوت الشهوات والغناء[1]، واستدرجهم به من حصنهم إلى العراء، حتى إذا صاروا ببعدٍ عنه وعن أسلحتهم أجلب عليهم بقواته الراكبة والراجلة[2]، وأخذ يملي عليهم شروط عقد الشركة معهم، ويعدهم بأن لهم النصرة على من أرادهم بسوء وشر[3].

ولعل أشد الوعود هو إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية، وشمول العفو والمغفرة[4]؛ لئلا تتحسس من الذنب والمعصية، ومن أدلة ذلك قول إخوة يوسف: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩]، ومنها قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[الأعراف:١٦٩].

لكن فئة من الناس لم يكن للشيطان فيهم نصيب، ولا له عليهم سلطان، وهم الذين تناولتهم الآية الثانية، أولئك الذين حفظوا أمر الله في أنفسهم فحفظهم الله يوم اللقاء، مكرُ الله لهم أعظمُ من مكر الشيطان وحزبه بهم، أولئك ذخائر الله الذين تحدث عنهم **الرافعي** فقال وأحسن القول: **إن عباد الله الصَّالحين في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تنهزم فيها جيوش المقاتلين**[5]!.

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٤٩٠).
(٢) تفسير الزمخشري (٣/ ٥٣١).
(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٤٩٥).
(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٣٣).
(٥) وحي القلم للرافعي (٢/ ١٥٥).

ولو استعرضنا الآن نتائج المعركة لوجدنا سيطرةً شيطانيةً تامةً على الكثرة من الناس، وهذا يجعلنا نعترف أنه نجح في تهديده بالاستيلاء علينا، والذي قصَّهُ الله علينا في قوله جل شأنه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢].

لأحتنكن ما تحت هذا التوعد من المعنى يا ترى؟.

إن أصل الاحتناك هو الاستيلاء على الشيء، يقال: حنك فلانٌ الدابة.. إذا وضع في حنكها أي في ذقنها الرَّسَن ليقودها به[1].

وذلك أن العادة أنَّ الرجل إذا أراد أن يقود دابةً فإنَّه يجعل في حنكها اللجام الذي مُقدَّمُه الحديد، فإذا قادها وشد اللجام ضغط الحديد على السقف الأعلى للفم، فتشعر الدابة بألم شديد، وعندئذٍ تتحرك بأي إشارة من سائقها ليترك شد اللجام، فإذا شعرت أنه يشد من الجهة اليمنى تحركت يمينًا، أو اليسرى تحركت شمالاً..

والشيطان هنا يضغط على الإنسان بحبلي الشهوات والشبهات، ويستغل عنف الشهوة المركب فيه في قيادته كالدابة، وعندئذٍ يصبح يتحرك بحركة الشيطان، ويبالغ في الانسلاخ من الأحكام، واقتحام الحرام، وقد عبر صاحب الظلال عن هذا التهديد بقوله: أي: فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم، وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم[2].

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/ ٢٦٥١) بترقيم المكتبة الشاملة.
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٣٢).

فيريد الشيطان عبر الشهوات أن يمتطي الإنسان امتطاء الحمار!.

والله إنَّ الإنسانَ ليشعر بالوجع وهو يتابع سياسة الشيطان في إغوائنا، ومع ذلك فإني أصارحك القول: إن الشيطان نجح نجاحًا مدهشًا في خطته، اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٢]، وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [سبأ:٢٠، ٢١]!.

هذا الفريق اليقظ الثابت يرفع الرأس، ويبهج النفس، هو الذي تلقى أمر الله بالانقياد والإذعان إذ قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٧].

إن هذا الفريق العظيم الذي تعالى على الشهوات، وجعلها تحت قدميه، وهو الذي عناه **عبد القادر الجيلاني** بقوله: **مَا لِلأَقوياء والشَّهوات؟ إِنَّمَا خُلِقَتِ الشَّهوات لِلضعفاء**(١)(٢)!.

هذا الفريقُ ليس معصومًا بالمناسبة، لكن الخطأ عنده عارضٌ لا أصلي، فخطؤه لا يرقى لاتفاقٍ دائمٍ مع الشيطانِ حتى يعد داخلاً في عقد الشركة التي ذكرناه آنفًا، ولهذا من علامة المنتمي لهذا الفريق أنه لا يبرر ذنبه، ويتوب عن قريب كلما أخطأ، حاله كما قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٤٤).
(٢) واضح أن الشهوات تعتري الأقوياء والضعفاء، لكن المراد أن من يتبعها هم الضعفاء.

بقي أن أشير إلى أن الشيطان قد يسلك سبيل التدرج في زرع بذور الشهوات في القلب، فمن أراد أن يوقعه في مستنقع الأفلام الإباحية يبدأ معه بمسلسل أكثره نافع، وفيه سمٌّ قليل ناقع، يتمثل في وجود بعض المتبرجات، وبعض المقاطع التافهة، ويصبح من الناس من يدافع عنه بحجة كمية الصلاح التي فيه، فإذا استقرت نسبة السم في الجسد انتقل لمسلسل أكثر فسادًا وأقل صلاحًا، ويبقى هكذا يستسيغ السم مرة بعد مرة حتى يجد إيمانه مسمومًا كله، ولهذا قال ربنا الكبير المتعال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١].

المطلب الرابع

بين الشهوات والشبهات

تتوزع مادة الإيمان على قلب الإنسان وعقله، ويتسلل الشيطان لإفسادها في القلب عن طريق حبل الشهوات، وفي العقل عن طريق حبل الشبهات.

وفي ظني أنَّ من أعظم مواد الشهوات التي يتوسل الشيطان منها اليوم لذلك فتنةَ المرئيات الإباحية التي تبدأ رحلتها من النظر الحرام، كما أن من أعظم الشبهات التي يُعكر بها مادة الإيمان الساكنة في عقول الشباب فتنةَ الأفكار الرديئة التي تجتاح اليوم العالم الإسلامي.

وأصل العلاج في الشبهات أن يكون بالعلم، وأصله في الشهوات أن يكون بالصبر، ولا نستطيع تجاوز ذلك في الجرعات المقدمة للمُصاب مهما حاول التفلت منها.

ومن مهمات الفقه في هذا الموضع أنَّ الشبهات تحتاج إلى لينٍ عند العلاج؛ لأن الشدَّة تزيدها عنادًا وقوة، وإنما ترفع بالعلم والحجة والبرهان، وأن الشهوات تحتاج إلى شِدَّة؛ لأن الرفق يزيدها ألفة واستئناسًا، وزوالها يكون بإزالة المغريات، وقطع التواصل، وتعظيم الخالق سبحانه، وذلك يحتاج إلى صبرٍ ومكابدة.

والآن نتحول لمسألةٍ عظيمةِ النفع لو فُهمت جيدًا، وهي مسألة العلاقة بين الشهوات والشبهات، والذي ظهر لي أن هناك صلةَ رحم بينهما، **وتفصيل ذلك**:

إنَّ الذي يقترب من مستنقع الشهوات ويغرق في وحله لا يعجبه أن ينظر إليه الناس أنه عاصٍ، وأنه منتكس، وربما لم يحب أن ينظر إلى نفسه أنه كذلك،

فإذا شعر بضغط الشهوة عليه بدأ يفكر في مخارج تريحه؛ كأن يبحث عن قولٍ فقهي، أو فتيا من شيخٍ يبرر بها موقفه، ويُسَوِّغ صنيعه، ومن مظاهر ذلك اليوم ما تراه من الحملة التشكيكية في حرمة الغناء والمعازف والاختلاط بين الشباب والفتيات ومصافحة النساء وغير ذلك.

بل إنَّ الذي يتوغل في وحل الشهوات أمتارًا بعيدة يصل به التفكير إلى التمرد على فكرة التحريم الشرعي أصلاً، ويبدأ يتهم الطرح الشرعي بأنه من التشدد، فهو يؤصل لانسلاخه من الأحكام والقِيَم والأخلاق عبر هذه التهمة المريحة، ويبقى في نظر الناس سالمًا من الذنوب والعيوب.

وقد لخَّص الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرج الله عنه خطة هؤلاء بقوله: تثبت الشبهات على أرض الشهوات، يشتهون شيئًا ثم يفعلونه، فإذا انتُقِدُوا.. شرعوا الشهوة لتكون شبهة فيسلموا من النقد[1].

والحق أنَّ هذه النفسية التي تشبَّعَت بهذه الشبهة ليست نفسية تائب معترف بما اقترف، وتلح على الله أن يغفر لها، ولذلك يقول الشيخ **الطريفي** أيضًا: يريد الله من المذنب أن يستغفر، ويريد المفسدون أن يذنب، ولا يرى أنه أذنب، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا﴾ [النساء:٢٧] فقوله: «ولا يرى أنه أذنب» ألصق بالشبهة.

إذن؛ فضغط الشهوات هو من أدخله في نفقٍ تشوش عنده فيه بَثُّ اليقينيات، وتخلخل فيه حبلُ القطعيات، وربما كان مصحوبًا بتوهم البحث عن الحق واليقين، لكنَّ التشخيصَ الصحيحَ أنَّ عقلَهُ ما صار مستودعًا للشبهات إلا لما غرق في مستنقع الشهوات.

ولا يكاد ينقضي عجبك -والله- من ذلك الدعاء الذي أحسن استنباط معناه

(١) أسطر من النقل والعقل والفكر للطريفي ص (٣٥٣).

الإمامُ **الحريري** صاحب المقامات المشهورة، والذي من جماله تشتهي أن تجوب به المنابر، وتصدح به في المنائر، وذلك في قوله:

«ونعوذ بك اللهم من سَوْق الشهوات إلى سُوق الشبهات[1]»!.

فلا يوجد شبهة في الواقع إلا وقد خرجت من رَحِم شهوة، ولهذا قد ينفق بعض الإخوة أوقاتهم في رد الشبهات، وأصلُ الدَّاء في منطقة الشهوات، ومن ذلك قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨].

ثم إنَّ هذه الشبهة تمارس دورًا قبيحًا في تثبيت الشهوة وتعزيزها، فالشبهات بمثابة البيئة الخصبة التي تترعرع فيها الشهوات، وتجعلها متجذرة صلبةً صعبة القلع.

فتأمل بالله عليك؛ **الشهوات تدفع للشبهات، والشبهات تمكن للشهوات**، لكن هذا التشابك وإن ظُن تعسرُ فكاكِ صاحبه إلا أنه لا يصمد -والله- أمام النصوص التي تخلع القلوب، وتأخذ بالألباب، وتُطير النعاس من الأجفان، فإذا نزلت دموع التوبة غارت في جوف الإنسان حتى قلعت كل جذرٍ تعب الشيطان في غرسه، ولهذا كان من أعظم حلول الشبهات بعد برهان العلم تقليلُ الشهوات، وتكثيرُ الحسنات، وتقليلُ السيئات، والاستغفار الكثير المتكرر آناء الليل وأطراف النهار.

وقبل أن نأخذ طريقنا إلى ختام القول هنا أبين أنَّ بعضَ الناس يدفعه ضغط الغريزة إلى التفكير أن الله لا بد أن يعذره بما هو فيه، حتى في المعاصي المجمع على تحريمها؛ كالنظر الحرام، والتي حُسم القول فيها، حتى قال **ابن القيم** بشأنها:

والثابت أنه لا عذر لأحدٍ في معصية الله ومخالفة أمره، وإلا فعلى ماذا يستوجب العقوبة واللوم[2]!.

---

(١) مقامات الحريري ص (٢).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٨٩).

لكنه اهتزاز الإيمان في الإنسان؛ لكثرة الشبهات التي يبثها أولياء الشيطان.

والذي أبتغي التنبيه عليه أن من وسوست صدره بمثل هذه الأفكار لا ينبغي أن يُتشدد معه، بل يترفق به، فشره ناتج عن ضعف تقوى لا عن قناعة بذنب.

ومثل هذا يذكر له من تعظيم الخالق الآمر ما يحمله على تعظيم الأوامر، وأن هذه الدنيا جُعلت محلًّا للاختبار، وشأن الاختبار أن يكون شاقًّا، ومن رحمة الله بعباده أنه جعل هذه المشقة محتملة؛ إذ لم يكلف النفوس إلا وسعها وطاقتها.

وسياسة الأمر والنهي منسجمةٌ تمام الانسجام مع قانون الجزاء بالجنة والنار في الآخرة، وجرعات الشوق للجنة تستفز الإنسان ليعمل الصالحات؛ إذ «**من عرف أجور الأعمال هانت عليه في كل الأحوال**»، وأخبار الخوف من النار تخمد في الإنسان حب الانحدار في أودية الآثام.

وأنى لشابٍ يلتمس لنفسه الأعذار في اقتحام الأوزار وهو يرى خروج أبيه آدم عليه السلام من الجنة لما انبسط فأكل أكلةً واحدةً لم يؤذن له فيها، مع أنه صفيُّ الله ونبيُّه، وخَلَقَهُ بيده وأسجد له ملائكته!.

بالله عليك هل تأملت يومًا شعور أبينا آدم عليه السلام وهو يُزج من سماءٍ إلى سماءٍ حتى أُوقِع بالأرض؟![1] ثم يتنزل القرآن يأسف لضعف عزيمته في الأمر ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥].

هل شعرت بنبي الله يونس عليه السلام لما غضب غضبةً واحدةً في غير موضعها، فحبسه الله في بطن الحوت في ظلمات ثلاث في قعر البحار، وغيَّر اسمَهُ فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧] فنسبه إلى سجنه[2]، ثم قال لنبينا: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨].

---

(١) منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين للغزالي ص (٢٠٦)، ونص كلامه: «وأمر الملائكة الذين حملوا سريره يزجونه من سماءٍ إلى سماء حتى أوقعوه بالأرض».

(٢) منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين للغزالي ص (٢٠٨).

والمقصود أنَّ العبدَ إذا أذنب لا يشتغل بالتبرير، ولكن بالاعتراف بالتقصير، وإرادة التغيير، والاستغفار الكثير، فإذا تم ذلك فأدعك تتمتع بقول ربنا المتعال الكبير: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وهذه الآية تُعالج لنا شبهةً أخرى يقع فيها نمطٌ من الناس، يدفعهم ضغطُ الشهوات، والوقوع في دَرَكِهَا مرة بعد أخرى إلى الشعور أن الله لن يغفر لهم..

وذلك أنَّ العبد إذا تكرر منه الذنب استغل الشيطان شدة ندمه على مقارفته إلى غرس بذرة القنوط من رحمة الله، وأنه ليس أهلاً لفضل الله ولا توفيقه، وأن الله لن يفتح له باب التوبة والرحمة، وأن غيره قد وفقه الله له دونه!.

وهكذا تبدأ موجةٌ مرعبةٌ من سوء الظن بالله تعالى، وربما أخذته دوامتها إلى الانسلاخ من المواطن الصالحة التي استعمله الله فيها؛ كالعلم والدعوة والجهاد، بحجة أنه فاسدٌ لا يصلح لها، ويبقى يتجنب الطاعات التي تعليه وينحدر هابطًا في سفح الأعمال التي ترديه، وما نجح الشيطان في إلجامه إلا من شبهة عدم صلاحه لمغفرة الله ورحمته، وقد عطَّل بهذا اليأسِ النكدِ رحمةَ الله التي هي أعظم صفاته وأجلُّهَا، وأنه كان يتوجب عليه الموازنة بين الخوف والرجاء، وبين محاسبة النفس على خطئها وديمومتها في الطاعات التي أمر الله بها، وأنه ما كان ينبغي أن يتوقف قطار الحسنات ولو استمر مسير قطار السيئات؛ **فليس من شروط صحة الطاعات توقف الخطيئات.**

أما ذاك الذي يقترف السيئات عن قصدٍ وجرأة، وكلما نُصح تعلل بأنَّ اللهَ غفورٌ رحيم، في نفسيةٍ متساهلةٍ تُفْضِي للمزيد من المنكرات فهذا سأخصه بكلامٍ منفردٍ في المطلب الأول من المبحث الأخير من الكتاب إن شاء الله تعالى.

المطلب الخامس

فقه التعامل مع الذنب

اعلم أنَّ العلمَ بهذا المطلب عظيمُ النفع، والجهل به عظيمُ الضرر، وأذكر هنا ستةَ معالم من فقه التعامل مع الذنب، دونها بين يديك أحسن الله إليك:

المَعْلمُ الأول:

يشترك الناسُ في أصل الذنب، ولا يخلو منه أحد، كما سيأتي برهانه، لكنهم بعد ذلك يفترقون افتراقًا كبيرًا في الكمية والنوعية والحال.

أمَّا الكميَّةُ فمن النَّاسِ من لو أُحْصِيت ذنوبه لكان يعصي الله في الأسبوع مرة، ومنهم من يعصي في اليوم مرة، ومنهم من يعصي في الساعة مرة، ومنهم فوق ذلك، ومنهم دون ذلك، ومنهم من أحاطت به خطيئته، فهو متدنسٌ بها حتى أذنيه، فهي تلجمه إلجامًا.

وأما النوعية فمن النَّاسِ من يقترف الصغائر، ومنهم من يقتحم سُورَ الكبائر، ومنهم من يتوغل حتى يصل إلى المُوبقات المهلكة، وهي كبائر الكبائر، ومن الناس من تكون الكبائر عنده أصلية؛ كالزنا والعياذ بالله، ومنهم من تكون بتكرار الصغائر؛ كالنظرة المحرمة؛ إذ الصغيرةُ إذا انضمَّت لمثلِها، وتكرر ذلك منه صارت بمنزلة الكبيرة.

وأما الحال فمن الناس من يتبع الذنب بتوبة، ومنهم من يتبعه بذنبٍ مثله، ومنهم من يقع فيه عن ضعفٍ وسيطرة شهوة، ومنهم من يفعله عن جرأةٍ وقلةِ

مبالاة، ومنهم من يأتيه ولا يصر عليه، ومنهم من يفعله ويصر عليه، ويكرره حتى يرسخ في قلبه ويألفه، ويبقى كذلك حتى لا يقدر أن يصبر عنه، وإن لم يجد فيه لذة، لكنه مر الفراق.

ومن النَّاسِ من يعصي في السر، ومنهم من يجاهر بالذنب، ويتبجح به، ويدعو إليه، ومنهم من يبرر، ومنهم من يعتذر، ومنهم من يتحرى ألا يعصي في الأماكن الفاضلة كالمساجد، ولا الأزمنة الفاضلة؛ كرمضان والأشهر الحرم، ومنهم من يقتحم الحدود كلها من غير اكتراث بزمانٍ ولا بمكان.

ومن الناس من يتعامل مع الصغائر كأنها كبائر، من فَرَطِ تعظيمه لربه، ومنهم من يتعامل مع الكبائر كأنها صغائر، من فرط استهانته بأمر ربه، نعم؛ من الناس من يرى ذنبه ولو كَبُرَ كذبابةٍ وقعت عليه، فحرك يده يطردها، ومنهم من يرى ذنبه كصخرة رابضة على صدره، يبكي لذنب مظنون، فهل يستوي مع من يضحك بعد ذنب متيقن!.

والله لو كانوا يعقلون لضحكوا قليلاً ولبكوا كثيرًا، لكنهم في غفلة معرضون.

إنَّ الدمعاتِ النبويةَ التي نزلت عقب تنزل آيات الأنفال التي تُخَطِّئُ قبول الفدية في أسرى بدر -مع أنَّ النبيَّ ﷺ ليس آثمًا قطعًا لإقدامه عليها مشورةً واجتهادًا- لهي السند المتصل الذي يُعزز منهج الخشية الذي نراه في الطلائع الشبابية المؤمنة الجديدة، ترى الواحد فيهم يحيط به الغم على وردٍ قرآنيٍّ فاته، أو ركعاتٍ نام عنها، تراهم خاضعين خاشعين تفيض أعينهم من الدمع حزنًا على ما فاتهم، وهذا -وربي- لا يتأتى إلا ممن سكنت مهابة الله في قلبه، وعظمت عنده الأوامر لما عظُم عنده الآمر.

فالناسُ -إذن- طبقاتٌ ومراتبُ في ذلك، والمقطوع به أنَّ كل تفاوت بين العباد في ذلك يقابله حساب من الله، ولو قلّ ذلك التفاوت، اقرأ في ذلك قرآنًا بالحق نزل:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، واقرأ أيضًا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧،٨].

وبناء على ذلك؛ فالإنسانُ العاقلُ يجاهد نفسه أن يُقِلَّ من الذنوب جدًّا، وإن وقع فلا يتجاوز الصغيرة، ولا يكون اقترافها عن جرأة، ولكن عن ضعف، ويتبعها بتوبة عاجلةٍ، ويستر على نفسه، ويستغفر، وقد جاء عند **ابن ماجه** في سننه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ**[1]، **فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»[2]. حسَّنَهُ الألباني.

إذا تبيَّن هذا فأعودُ إلى البرهنةِ على ما تقرَّرَ من اشتراك النَّاسِ في أصل الذنب، وعدم خلو أحدٍ منه، وذلك بالاتكاء على شهادة الواقع، ومن قبل ذلك بما ورد من أدلة صحيحةٍ صريحةٍ في ذلك، فهذا ربنا العظيم يقول في الحديث القدسي:

«**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ..**»[3].

وهذا نبينا ﷺ يصرح بذلك قائلاً: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[4].

ويقول في حديثٍ أصرح منه، وكم ترددت في إيراده؛ خشية أن يفهمه أحدٌ على غير وجهه، لكني آثرت ذِكْرَهُ، وأعوذ بالله من سوء فهمه، يقول النبيُّ: «**مَا مِن**

(١) صقل قلبه أي جلاه، والمعنى: نظف وصفَّى مرآة قلبه؛ لأنَّ التوبةَ بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب. انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري (٨/ ٤٢).
(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٢٤٤)، والآية في سورة المطففين رقم (١٤).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٧٣٧).
(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٩٩). حسنه الألباني.

عبدٍ مؤمنٍ إلا ولَهُ ذَنبٌ يَعتَادُهُ الفَينَةَ بَعْدَ الفَينَةِ، أو ذنبٌ هُوَ مُقيمٌ عليه لا يفارقه حتَّى يُفَارِقَ الدُّنيَا، إنَّ المؤمنَ خُلِقَ مُفْتَنًا توابًا نَسِيًّا، إذَا ذُكِّر ذَكَر»[1]. صححه الألباني.

فالحَدِيثُ ينطقُ بأنَّ الإنسانَ لا بد أن يقع في الذنب الحين بعد الحين، فلا عصمةَ لأحدٍ، وفي نفس الوقت لا عذر له في ذلك كما مرَّ، لا سيما وأنَّ قولَ النبي ﷺ هذا من الأمر القدري لا الشرعي، بمعنى أنَّه يتكلم أنَّ الخطأ سيحصل في علم الله، لا أن العبد مطالبٌ بفعله ليثبت وقوعه، بل مع استفراغ وسعه في العصمة منه إلا أنه سيقع لضعفه، ولتحتم وقوع ذلك منه فتح الله له باب التوبة، ووعد بقبولها تفضلًا منه سبحانه، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥].

وقوله: «إنَّ المؤمنَ خُلِقَ مُفْتَنًا»؛ أي ممتحنًا يمتحنه الله بالبلاء والذنوب والفتن كثيرًا.

وقوله: «توابًا نَسِيًّا، إذَا ذُكِّر ذَكَر»؛ أي يتوب ثم ينسى فيعود ثم يتذكر فيتوب وهكذا[2]، فمن دلائل الإيمان التي يقررها الحديث أنَّ العبدَ المؤمنَ كثير التوبة، قد ينسى ويذنب، لكنك إذا ذكَّرته بالله ووعظته تذكَّر واتعظ.

وبخصوص موضوعنا الذي نناقشه في الكتاب نجد النبيّ ﷺ يقول بوضوحٍ لا لبس فيه: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَى، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ»[3].

(١) المعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث: (١١٨١٠).
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٧٠٦).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٩٢٥).

يقول الإمام **النووي** شارحًا: إنَّ ابنَ آدم قُدِّر عليه نصيبٌ من الزنا، ومن النَّاسِ من يكون زناه حقيقيًّا، ومنهم من يكون مجازًا بالنظر الحرام، أو باللمس أو القبلة أو الفكر بالقلب، والفرج يحقق ذلك الزنا حقيقة، أو يكذبه بألا يفعل[1].

وأصلُ زنا الفرج زنا البصر، فالعينان له قائدان، وإليه داعيان[2]، كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

نعوذ بالله من موجبات غضبه وسخطه ومقته.

المعلم الثاني:

تقدم قريبًا أن الشريعة تدعو إلى تفعيل قطار الحسنات حتى لو استمر مسير قطار السيئات، وقد أحسن الشيخ **أحمد سالم**[3] إذ قال: الباب الأعظم للشيطان ليس أن تقع في الذنب؛ بل أن تهجر الطاعة، وتصير الذنوب لك حالاً دائمة..

فالذنب يتركك في حالة وهاء نفسي، يختلط فيها احتقار النفس بتخلي حفظ الله عنك، ما يقود للاسترسال في ذنوبٍ شتى، ويقود للمصيبة الكبرى حقًّا؛ وهي ترك الطاعات..

فالمعصية تُفقدك الثقة بنفسك، وتُحدث خللاً في الجهاز المناعي، وهذا هو الأصل الذي يندرج تحته ما يُذكر من أنَّ من عقوبة الذنبِ الذنبَ بعده، فالحالة النفسية التي هو عليها هي مِفتاح القنوط، لكنها ليست حالاً لازمة، وإلا لما قال النبي: «**وَأَتبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها**»[4]..

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٠٦).
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٣٠٩).
(٣) باحثٌ في العلوم الشرعية، وهو مصري، مشتغلٌ بالتدريس والتصنيف، من مؤلفاته: السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية، وصورة الإسلاميين على الشاشة.
(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٩٨٧). وقد حسنه الألباني.

والمقصود أنَّ من منهجيات التعامل مع الذنب -غير الركض إلى الاستغفار والتوبة- الفزعَ إلى الطاعات، والذي يعد أصلاً عظيمًا في العلاج، فتصنع لك مسارًا ثابتًا للطاعة، لا يتأثر بوقوعك في الذنب، مع الحرص على عدم الاسترسال في ذنوبٍ أخرى، فلا تكن كمن وجد في بيته حشرةً ففتح النافذة لتتسرب منها سائر أنواع الهوام. ا.هـ.

وهذا الأصل يشهد له قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]، فدعا لفعل الحسنات بعد السيئات، وبناءً عليه؛ فما يُطلقه بعض الدعاة من أنَّ من أذنب فلينتظر ذنبًا بعده عقوبةً له ليس بجادةٍ تربوية في العلاج، بل من السهل أن يفعل الإنسان الذنب ثم يترك، ويفعل الحسنة الماحية له، ويعود إلى عهده الجميل من الاستقامة، والله أعلم.

المعلم الثالث:

مكابدةُ تركِ الذنبِ فيها عناءٌ وأي عناء، لكن هذا المقدار من العناء أقل منه بعد التورط بالذنب، ونية العودة بعده مع وجوب تحمله، فكل خطوةٍ تخطوها في نفق المعصية تزيدك ضعفًا، ويكون ثمن الرجوع أغلى.

ولذلك من رحمة الله بعباده أنه حرَّم عليهم مقدمات الزنا؛ كالنظر الحرام ومصافحة النساء والخلوة بهن، لأن مشقة الصبر عن الدخول في هذه المرغوبات هي أخف بكثير من أن تنجر إليها، ثم تريد الخروج الآمن؛ وذلك لضعف السيطرة في هذه المنطقة.

ولهذا من علامات الشاب الذكي أنه يرفض دخول هذا «المربع الملغم» أصلاً، ولو اتُّهِمَ بالتشدد؛ لأنه يتبع السياسة الشرعية القائمة على ضبط نفسه في القليل؛ إنقاذًا لها من مواجهة الثقيل.

ولو دخل فإنه يجعل الخطوة الأولى هي سقفه الأعلى، فلا يتمادى؛ لأن كل خطوة يتقدمها سيدفع مقابلها مقدارًا كبيرًا من العناء والبلاء، وبهذا يكون ممن عمهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، والله الموفق وحده.

المعلم الرابع:

لا يجوز أن يصل الشعورُ بخطرِ الذَّنبِ إلى اليأس، فإنه ﴿لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف:٨٧]، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[الحجر:٥٦].

ومما يعين على ذلك أن يعلم الإنسان أنَّ الذنبَ هو جزءٌ من حياته، وليس كل حياته، وبقية أجزاء الحياة مليئة بالحسنات والإنجازات، ولهذا يقول الشيخ **الطريفي**:

ترديد النفس لهزائمها ومواضع ضعفها يورثها الهوان، وينسيها مواضع القوة فيها، والله يقول:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

فالشعور الذي يدل على فقه صاحبه أن يضع الذنب في موضعه المناسب؛ فلا يضخمه حتى يصل به إلى اليأس من رحمة الله، ولا يُقَزِّمُهُ حتى يصل به إلى الاستهانة بحرمات الله، ولكن يعظم الذنب، ويعتقد في نفس الوقت أن هذا الذنب يتلاشى، ولا يبقى له أثر إذا وضع بجنب عفو الله ورحمته ورضوانه، ولهذا كان من فقه **الشافعي** أنه أنشد عند موته:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... حَمَلْت الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِك سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُه ... بِعَفْوِك رَبِّي كَانَ عَفْوُك أَعْظَمَا

وَمَا زِلْت ذَا عَفْوٍ عَنْ الذَّنْبِ ... لَمْ تَزَلْ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا[1]

(١) ديوان الإمام الشافعي ص (١٠١).

المعلم الخامس:

الأصلُ في المُسلمِ نسيان الحسنات، وتذكر السيئات، أما من فعل الجناية بِحَقِّ ربه، ثم نسيها.. فإنَّهُ من أظلم خلق الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف:٥٧]، أحصاه الله ونسوه.

وذلك أنَّ الإنسانَ إذا نسي حسناته، وعدَّها كأن لم تكن.. تشجَّع لغيرها، وكأنَّ الحسنةَ التي تَحْصُلُ نجاته بها لم يفعلها بعد، وهذا يدفعه بعد كل حسنةٍ أن يستدرك بأخرى؛ خشيةَ ألا تكون الأولى قد قُبلَت، أو نزل بساحتها ما يحبطها، وبهذا يصبح من سُبَّاق العالَمِ في تعداد الحسنات، ولسنا نعظه بفعل ما لا يطيق؛ بل بما في وسعه من غير كسلٍ ولا تهور..

ولعل آيات سورة المؤمنون جمعت كل هذه المعاني وزيادة؛ إذ يقول ربنا الكبير في ترتيب بديع: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦٢]، ولهذا قالوا: إذا مضى العمل بقي الوجل.

وإذا تذكر الإنسان سيئاته انطلق يستغفر ربه منها، ويفعل من الحسنات الماحية ما يفتتها، وهذا مشروطٌ بألا يجعلها قبالة عينيه إلى الحد الذي تحبطه وتيئسه من رحمة الله.

وهذان الأمران مجرد شعور نفسي، لكن ما أعظمه من شعور!.

شعورٌ يجعل صدره ربيعًا للصالحات، شعور بمثابة سُلَّم يصعد فيه صاحبه إلى منصب «عابد»، فيصبح مستحقًّا لهذا اللقب وهو في سن الشباب! فأين من هذا الفضل من جعل شعوره نسيان السيئات التي فعلها، فأكثر منها، وذِكْرَ الحسنات على قلتها، فاكتفى بها! نسأل الله أن يرزقنا شعورًا يدنينا منه، ويقربنا إليه.

المعلم السادس:

الذنوب المقترنة.. إذ ثمة أمورٌ يمكن أن تقترن بالمعصية وينبغي ألا تقترن بها، ومنها الخمسة الآتية:

١) **استكبار الذنب**، فإنه قد يُفضي لليأس من رحمة الله، فاليأس من أكبر الكبائر، واليائس كافرٌ ضال، والله يقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

٢) **استصغار الذنب**، بحيث يتجاسر عليه، مما يفضي للأمن من مكر الله، والآمن منه خاسر، والله تعالى لما ذكر طرفًا من عصيان الأمم الماضية وعقابها قال بعدها معاتبًا: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

٣) **الإصرار على الذنب**، وهذه المرتبة تُكبِّر الصغائر فتجعلها كبائر، وتُكبِّر الكبائر فتجعلها فواحش أو موبقات، والتربية القويمة أن يتوب الإنسان من فوره ولا يصر، فإن فعل دخل في جملة من مدحهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

٤) **الجهر بالذنب**، فإنه دعوةٌ إليه، وفي الصَّحِيحِ عند **البخاري** عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ بشَّر وأنذر في آنٍ واحدٍ إذ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ**»[١]، فبشَّر من سَتَرَ على نفسه بعفو الله، وخوَّف من تحدث عن معصيته باستثنائه من ذلك.

٥) **الجرأة على الذنب**، والجسارة عليه، وقد ذكر شيخنا العلامة **محمد الحسن** ولد **الددو الشنقيطي** نقلاً عن **ابن القيم** أنَّ الناسَ في ذلك على أربعة أقسام:

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٠٦٩).

١. منهم من يكون الحاجز بينه وبين الذنب كجبلٍ، فلا يرى المعصية، ولا يسمع أصواتها، ولا يرى ألوانها ولا حركاتها، ولا يشم رائحتها، وهؤلاء هم المحظوظون، وهم قليل.

٢. ومنهم من يكون حاجزه كالزجاج، لا يستطيع اختراقه، فلا يصل إليها، ولا يسمع أصواتها، ولا يشم روائحها، ولكنه يرى حركاتها وألوانها.

٣. ومنهم من يكون حاجزه كالماء، يمكن أن يُخترق بصعوبة، وهو لا يحجز الروائح، ولا الأصوات، ويمكن أن تُرى من ورائه الحركات والألوان.

٤. ومنهم من يكون حاجزه كالهواء، فهو مع المعصيةِ في لحافٍ واحد، يسهل اختراقه، وهو لا يحجب صوتًا ولا رائحةً ولا حركةً ولا لونًا.

وقد نظم الشيخ محمد عالي ﷾ تلك الأمور الخمسة بقوله:

للذنب خمسة على القلوب ... أشد أضرارًا من الذنوب
تعظيمُهُ احتقارُهُ والإصرارُ ... والجهر والجرأة يا غفار

يا أيها الأخ المبارك:

مدارُ هذا المَعْلَمِ على الذنوب المقترنة بالذنب، والتي ربما تفوق جرمًا الذنب نفسه، وهذا الملحظ الدقيق العميق تناوله **ابن القيم** بكلامٍ قيِّم إذ قال:

فهنا أمرٌ ينبغي التفطن له؛ وهو أنَّ الكبيرةَ قد يقترن بها من الحياءِ والخوفِ والاستعظام لها ما يُلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلةِ الحياء، وعدمِ المبالاة، وتركِ الخوف، والاستهانة بها، ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رُتَبِها، وهذا أمرٌ مرجعه لما يقوم بالقلب، وهو قدرٌ زائدٌ على مجرد الفعل[1].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٢٨).

ومن نفس المشكاة جاء قول **الفضيل** من قبل: **بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله**[1].

والمقصود أنَّ الإنسانَ إذا اقترف ذنبًا لا يُهَوِّلُهُ ولا يُهَوِّنُه ولا يُصِرُّ عليه، ولا يجهر به، ولا يتجاسر عليه، ولا يُسَرُّ به، ولا يُبَرِّرُ له، ونحو ذلك مما قد يقترن به.

ومن العجيب أنك قد تجد العاصي يقترف معصيته، ويستدل بالخلاف الفقهي، أو ببعض الفتاوى المتناثرة هنا وهناك على تهوين ما فعل، وهو يعلم -بواعظ الله في قلبه- أنه متجرئ على حرمات ربه؛ وذلك أنَّ الله قد أقام دينه في النفوس قبل أن يقيمه عبر النصوص.

ولو جاءهُ طرفٌ من علم الغيب أنه ميتٌ بعد ساعةٍ لأقلع من فوره، واستغفر وأحسن التوبة، لكنَّهُ العنادُ والإصرارُ والاغترار، والعجيب أنه قد يبتغي بذلك تزكيةً اجتماعيَّةً إزاءَ أفعالِه، وهو يعلم أنَّ الله يعلمُ ما في الصدور.

سلَّمَنِي اللهُ وإيَّاك من الغرور والشرور، أو إتباع المعصية بالسرور والحبور.

(١) الداء والدواء لابن القيم ص (٣٣).

المطلب السادس

الإيمان النامي

خَلقَ اللهُ الإنسانَ على حَالٍ صالحةٍ للنَّمـــاء، وقابلةٍ للانحطـــاط، وبالتَّالي يمكن أن يَصِلَ إلى رتبة الملائكة، ويتفوق عليها، ويمكن أن ينحَطَّ لِدَرجةِ البهَائم، ويتدنَّى عنها.

ومكونات الإنسان ثلاثة: البدن والعقل والروح.

وبتطبيق هذا القانون عليها فإنَّ البدنَ كما أنه من الممكن أن تُروض عضلاته حتى يحمل الأثقال، ويعتاد عليها؛ فإنَّ العقل كذلك، يمكن أن يقوم بعمليات الرياضة العقلية من النظر في المسائل والمقارنات العلمية، بالإضافة للقراءة المعمقة، والدخول في المناقشات بين الأقران، والمتابعة مع أهل الاختصاص، حتى يكون كالوادي المتسع لكثيرٍ من السيول، فيصبح عالمًا أو مفكرًا، يتسع صدره لكثيرٍ من العلوم، كما في قوله تعالى إشارةً: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

وكذلك الحال في التربية الروحية، فيمكن للعبد أن ينطلق في الرحلة خاويًا من القيم الإيمانية والتربوية، ويبدأ سريعًا في استبعاد الصفات المذمومة، صفةً بعد أخرى، في خطةٍ مدروسة، ويشرع في تحصيل الفضائل المحمودة، خصلة بعد أخرى، في خطة منصوصةٍ، حتى يصل إلى سماء تلك التربية، وإن الكتاب الرائع الماتع النافع «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» **لابن القيم**، إنما هو شرحٌ لطائفةٍ كبيرةٍ من هذه المراتب[1].

(١) والمهتم بذلك يكفيه أن يقرأ تهذيبه لعبد المنعم صالح العزي في مجلدٍ واحد، ولا ينبغي لمهتم ولا لخطيب أو طالب علم أن يستغني عنه، ومن كان في عجلةٍ من أمره يمكنه الاكتفاء بشرح طرف حسنٍ من مادته للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله، وهي منشورة صوتيًّا على الشبكة.

وعليه؛ فالإنسان يمكن أن يكون من خير البرية، ويمكن أن يكون شرًّا من الكلاب والخنازير البحرية والبرية.

تجد في الناس من يسخط لو شاكَتْهُ شوكَةٌ، ويمكن أن تجد من بلغ رضاه كأم إسماعيل ﷺ التي أسكنها زوجها **إبراهيم** ﷺ بوادٍ صحراوي، هناك بين الجبال حيث لا بَشَرَ ولا زرعَ ولا ماءَ ولا طعام، ثم يفاجئها بقيامه يمشي راجعًا عنها، فأخذت تنادي عليه؛ آلله أمرك بهذا؟! قال: نعم، قالت: إذن لن يضيعنا!!.

وهذا يعني إمكان بناء حصنٍ من العفاف والإيمان يعتصم به الشاب في هذا الزمن من فتن الشهوات التي تحوم ليلَ نهار، صباحَ مساء.

اختلاف الناس عند اليقظة:

وهم في ذلك أزواجٌ ثلاثة:

من الناس من يستيقظ من غفلته، لكنه ينام سريعًا.

ومنهم من يستيقظ، لكنه يحتاج لمنبهات تُثَبِّتُ يقظته، كحال من يحتاج للقهوة أو الشاي لضمان اليقظة، وهؤلاء يحتاجون لمثبتاتٍ ومعيناتٍ؛ كالأخ الصالح والبيئة المحافظة والمواسم الفاضلة؛ كرمضان والأشهر الحرم.

ومنهم من يستيقظ، ثم ينطلق يسعى فورًا، وربما أخذ يركض في بعض المحطات، ويبقى على هذه الحال وتلك لا ينحط عنهما، ولا أجد توصيفًا لحال هؤلاء أروع مما جادت به قريحة **ابن الجوزي** إذ خطَّ قائلاً:

ومن الصفوة أقوامٌ مذ تيقظوا ما ناموا، ومذ سلكوا ما وقفوا، فَهَمُّهُم صعودٌ وترقٍّ، كلما عبروا مقامًا إلى مقام رأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا![1].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص (١١٩).

والمُنتَسِبُ إلى هؤلاء أو كان قريبًا من منزلتهم تجده صاحبَ نفسيةٍ تحتمل أن يبدأ في مشروع تقرير العزائم؛ كالتهجد الطويل، وتثبيت جلوسه في المسجد بعد الفجر للشروق، والدوام على إدراك تكبيرة الإحرام، وضبط التخصص العلمي، والبدء في حفظ القرآن أو ضبطه، والجهاد في سبيل الله، ومباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الغيبة، وهجر اللغو من القول، والتعفف عن النظر المحرم، والالتزام بقسطٍ من الصدقة لا يتوقف، وغير ذلك، فيبدأ بعزيمة بعد أخرى، يكرر الواحدةَ شهرًا حتى تستقر ثابتةً في حياته، ثم يتحول لثانيةٍ وثالثةٍ وهلمَّ جرًّا، ولو قُدِّر له أن يطلع على منجزاته في نحو سنةٍ من الزمان لاندهش من المقادير الهائلة من توفيق الله وإعانته له، ليبلغ المنازل العالية في آمادٍ قصيرة!.

ولا يستبعد أن يَمُنَّ اللهُ على بعض العباد بالتحول القسري، فيكون غافلاً أيما غفلة، ثم يصبح مهتديًا أيما هداية، ولا عجب؛ فقد أفلح السحرة في لحظة، وفي نفس اليوم أصبحوا دعاةً مهرة، ثم شهداء بررة، والله يصلح المهدي في ليلة.

وما زلت أذكر شابًّا لم يكن ملتزمًا، وفجأة في إحدى ليالي الحرب الماضية على غزة عام ٢٠١٤م قام فاغتسل، وصلى، وقام من الليل ما شاء الله أن يصلي، ودعا، وتعطَّر، وبعد أقل من ثلاث ساعات كان مُفتَتًّا بصاروخ استهدفه به الصهاينة المعتدون، وارتقى إلى الله شهيدًا نحسبه كذلك والله حسيبه.

وأنبه أن بعض الناس إذا استيقظ من غفلته، وباشر ألوان التعبد، فإنه يجد لذة ذلك مع أنه في بداية الطريق، ولم يتعب في تحصيل ذلك، وفجأة يفقد الجو العجيب الذي كان فيه، مع أنه ما بدَّل ولا غيَّر ولا قصَّر ولا تقهقر، والتحليل لهذه الحالة أن الله تفضَّل عليك وأعطاك ما رأيت دون تعب، فإذا تلذذت بالطعم الذي ذقت، وعرفته، وأردت دوامه فلا بد من دفع الثمن، ألا ترى أنك لو ذهبت لمحل حلويات، فإن البائع قد يعطيك قطعةً أو قطعتين لتذوق الطعم، وذلك بالمجان، لكن بعد أن تقرر طلب كمية، فلا بد من دفع الثمن!.

فيا أيها الأخ الفضيل:

إنَّ الطريقَ طويل، والعمر قصير، وفي العمل تقصير، والناقد بصير، فابدأ في مشروع تفتيت الصفات المذمومة، وغرس الصفات المحمودة، حتى تترعرع في نفسك شجرة القيم والأخلاق والعفاف والعلم والإيمان، فتنتفع بثمارها في دنياك وآخرتك.

وكلما قطعت مرحلةً اجعلها حدَّك الأدنى، حتى إذا ما انخفض مستوى الالتزام في المرحلة الثانية مثلاً عدت للمرحلة الأولى لا لنقطة الصفر، وكذلك تفعل في المرحلة الثالثة وما فوقها، والحفاظ على رأس المال فضيلة وأي فضيلةٍ في هذه الأيام، والله الموفق وحده.

المبحث الثاني

جرعات الدواء

في هـذا المبحـث نبـدأ بتقديـم جُرُعـاتِ الـدَّوَاء لهـذا الـدَّاء، وهـي جرعـاتٌ فعَّالـةٌ قويـةُ التأثـير حسـنةُ الأثـر، عددهـا ثـماني جُـرَع منهـا: تجفيـف المنابـع، وتيسـير الـزَّواج، واعتـماد الاسـتغفار الخاشـع والتوبـة العاجلـة والحسـنات الماحيـة، ومكابـدة الاصطبـار بعـد الصبر، والعمـل على تضييـق دائـرة المحرمات عنـد تحتمهـا، وتبهيـت وهـج الشـهوة، والدخـول في عزائـم ينتـج عنهـا قـرارات، وغـير ذلـك ممـا سـجَّله هـذا المبحـثُ المهـم.

هذا الإجمالُ وإليك التفصيل:

المطلب الأول

تجفيف المنابع

وهذا أصلُهُ من وظيفةِ الدَّولة، ومراقبة وليِّ الأمر.

وذلك أنَّ بعضَ الناس عنده من الإيمان ما يعصمه أن يقصد أماكن المعصية، لكنه يضعف لو كانت متوفرةً بين يديه.

وعلى ذلك؛ ففلترة المواقع فلترةً دقيقة، وتضييق نطاق الثغرات الالكترونية، وحذف عامة محطات التلفزة الفاسدة، ومنع الانفتاح في البيوت، والاختلاط في الجامعات.. من أهم العوامل المعينة على ترك النظر إلى الحرام.

ومن متممات ذلك كثرة التوعية، والتوجيه المدرسي، والخطاب المنبري، والطرح الإعلامي، وغير ذلك من وسائل التربية والتعبئة، فهذه من مقومات صناعةِ بيئةٍ صالحةٍ تَعصِمُ أبناءَها من الهلكة.

المطلب الثاني

تيسير الزَّواج

وهـذا مـن وظيفـةِ عُقـلاءِ المجتمـع وحكمائـه، وكذلـك مـا فيـه مـن مؤسسـاتٍ فاعلـة.

وأصلُ هذه الجرعـةِ قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النور:٣٢]؛ أي لا يمنعنكم فقرهم من إنكاحهم[١].

وكذلك ما أخرج **البخاري** في الصَّحيح عَنْ **عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ** قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ **عَلْقَمَةَ وَالْأَسْوَدِ** عَلَى **عَبْدِ اللهِ**، فَقَالَ **عَبْدُ اللهِ**: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[٢].

أي: من استطاع منكم تحصيل مؤن الزواج وتكاليفه فليتزوج، ومن لم يستطع فليَصُم دَفعًا لشهوته[٣]؛ فإنَّ الصَّومَ قامعٌ لشهوةِ النكاح، واستشكل بأنَّ الصومَ يزيد في تهييج الشهوة، وأُجيب بأنَّ ذلك إنَّما يقع في مبدأ الأمر، فإذا تمادى عليه واعتاده سكن ذلك، إذ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والجوع يُضيق مجاريه، والله أعلم[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٦٦).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٠٦٦).
(٣) فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٠٨)، وهناك تفاصيل أخرى حسنة يَرجِعُ إليها الحريص عليها.
(٤) فتح الباري لابن حجر (٤/ ١١٩).

وقول النبيِّ: «فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ» فيه إشعارٌ بأنَّ الزَّواجَ أعونُ على غضِّ البصر، وليس رافعًا له بالكلية، وهذا ما يُستفاد من صيغة اسم التفضيل إذا جرت على بابها، وعليه؛ فالزواج جزءٌ من العلاج لا كل العلاج، وقد تتهيَّج الشهوةُ عند المتزوج لبرود الزوجة، أو لضغط البيئة المُنْفَتِحَة التي يخالطها، أو لغير ذلك، مما يجعله محتاجًا أشدَّ الحَاجةِ لبقيَّة الجُرَع من العلاج؛ لئلا تزل قدمه بعد ثبوتها.

إذن؛ فالزواج جرعةٌ مهمةٌ في العلاج، وهذا يدعو إلى تيسير أمره؛ إذ **البلد الذي يتعسرُ فيه الحلالُ يتيسر فيه الحرام.**

وإني أرقبُ حركةَ المجتمع من سنوات، وأراه إزاء هذه المشكلة يترقى في سُلَّم الجنونِ لا في سُلَّمِ الرَّشَاد؛ فالأصلُ متى اشتد ضغطُ الشهوات، وعمت الأزمات، وانتشرت البطالة، وقلَّت مصادر المال، وارتفعت تكاليف المعيشة، وتيسرت أسباب المعصية، وتعسرت أسباب الزواج، واستحكم الحصار أن يؤدي ذلك إلى التخفيف الإجباري في تكاليف الزواج، والذي سيكون عندئذٍ تفاعلاً طبيعيًّا مع حلول تلك المشاكل المعقدة.

لكني أرى العكس تمامًا عند الأكثرين؛ فالمهور في كل يوم تزيد، والتكاليف تزيد، والمثالية تزيد، وأصبح معتادًا أن نسمع أنَّ مهرَ فلانة ٥٠٠٠ دينار أردني مقدمًا، و٥٠٠٠ مؤخرًا، و٥٠٠٠ عفش بيت، وهذا يعني أن هذا المهر ١٥ ألف دينار بما يعادل ٢١ ألف دولار!.

وبعض المهور قد تصل إلى ثلاثين ألفًا، أو دون ذلك، أو فوق ذلك.

والعجيبُ أنَّ بعضَ الشَّبَابِ يظن أنَّ المهرَ هو المقدمُّ منه فقط، ولا يدري أنه يقصم ظهر نفسه بأثقال الديون المتمثلة في المهر المتأخر، الذي هو عُرْفٌ انتشر في الناس في الأزمنة المتأخرة، وليس أمرًا شائعًا في زمن السلف الصالح، وهو لا يعدو أن يكون تقسيطًا للمهر، تعجلت منه قسطًا قريبًا.

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد!.

بل رأينا المجتمع اليوم يفرض على أبنائه مُهورًا جديدة، لكنها في جانب الأزواج لا في جانب الزوجات؛ فأصبح من ضروريات الزواج أن تكون الشقة مجهزةً من الطراز الأول كما يقال، وأن يكون موكب السيارات على درجةٍ من الفخامة يسمع به القريبُ والبعيد، وأن تكون الصالةُ ذائعةَ الصيت، والتي تزيد أجرتها اليوم عن ٧٠٠ دولار في بعض الأحيان، وأن تكون الوليمة عامة تكلف نحو ألفي دولار، وقد ينفق فيها مالاً لبدًا، ويدعو إليها الأغنياء دون الفقراء، فتكون من أردأ الوجبات.

وهذا العنت كله بافتراض جريانه بالمباحات التي يستحب التخفف منها، فكيف لو تضمن بعضًا من المنكرات الأصلية التي يجب قطعًا تركها؟!.

ثم إنَّ المجتمع قد ربط هذه الأشياء بمسألةٍ شعوريةٍ تتمثل في قولهم: فرحة العمر!، فلا يشعر الشاب أنه نال فرحة العمر إلا إذا مرَّ على سلسلة الحواجز الفائتة، حتى إذا مضى شهرٌ على الأكثر ذهبت السكرة وجاءت الفكرة، فمن أين يسدد القروض المتراكبة، وهل يستحق الزواج كل هذا العنت!.

ولو فكَّر الشاب أن يخرج عن ثقافة المجتمع في ذلك كله أو بعضه لَجَلَدَهُ أقرب الناس إليه، ولأصبح مادةً تلاك على الألسنة؛ ماذا يقول عنك الناس وشقتك ليست مكتملة التجهيز والتشطيب؟! ماذا سيقول الناس إن لم تولم وليمة كبيرة معتبرة؟! ماذا سيتحدث عنك الناس لو ذهبت إلى صالة متدنية المستوى لا تليق بك ولا بعائلتك؟! وهل سترضى زوجتك بهذا المستوى من عفش البيت؟! وهل ستقبل بهذا البيت أو بتلك الوظيفة؟! وكأن صاحبتنا العزيزة تم استيرادها من كوكبٍ آخر لم نسمع به بعد، إلا أن يكون قريبًا من الزُّهرة أو المريخ! مع أنها من المجتمع الذي يأكل البطيخ ولا يجد الطبيخ كما يقول المثل!.

أرأيت كيف ينشأ الشاب يخشى ألسنة المجتمع؟! ولو كان المجتمعُ يرحمه، ويترفق به، ويقف معه، ويدعو له، ويعينه.. لما خرجت مثل هذه الكلمات أو اللَّكَمات.

ألا يكفي أن يتزوج الشاب في بيتٍ مستقلٍّ متواضع، ويولم لأهل بيته وبيت زوجه وبعض المقربين جدًّا فقط، ويأتي بسيارتين أو ثلاثٍ فقط؟ ويقيم فرحه أمام بيته لو تيسر، أو على سطح منزل أو في صالة زهيدة الأجر؟!.

إنَّ الفرح في الزواج، لا في طقوس الزواج، ومراسم الاحتفال.

لكن تبدل الثقافات من تيسيرٍ لتعسيرٍ أمرٌ مرهقٌ نفسيًّا وماليًّا واجتماعيًّا، ومفسدٌ خُلقيًّا.

والعجيب أنَّ الشابَّ الذي اعتُقِل لوجهة نظر المجتمع يستيقظ في اليوم الثاني من زواجه على كميات مهولةٍ من الديون، وعندما لا يجد ما يقضي به، يسمع المجتمع يسلقه من جديد: يا أخي؛ «الذي ما معه ما يلزمه»!، وكيف لفلان أن يتزوج ويتمتع على حساب جيوب الناس!.

ولذلك منذ أن نشأتُ وأنا أعتمد سياسةً واضحةً مع المجتمع، وربما لم تَرُقْ لبعض المقربين، تتمثل في قولنا: **إذا أردت أن تعيش فعليك بالتطنيش**![1].

لكني أشعر أنها الأنفع لشباب اليوم.

ربما قال قائلٌ في نفسه: إنَّ كاتبَ هذه الكلمات عنده مقدارٌ من البساطة، وأرطالٌ من الدروشة، ومتأثرٌ بالطرح المشيخي السطحي، لكني أقول: لا -والله- ليس الأمر كذلك؛ لكني لا اقنع أبدًا أن يعاني الشاب أشد العناء من أجل تلبية ضغوطات المجتمع، فالأصل العكس لا عكس العكس.

(١) وهي كلمة دارجةٌ على ألسنة الناس، ويراد بها عدم الاهتمام بالأقوال والعادات المرهقة، ما دام ذلك لا يُعد مخالفةً شرعية.

وإني ما رأيت أسهل ولا أيسر من منهج المجتمع النبوي في أمر الزَّواج، وكذلك الطلاق، والمقام ضيقٌ عن التفصيل، ولعلي أكتبه في مناسبةٍ بحثيَّةٍ أخرى، وبنيانه يقوم على إتاحة الزواج بقنطارٍ من المال، أو بحديقة غَنَّاء، وفي نفس الوقت يضع حلًّا للراغب في الزواج، حتى يمكنه ذلك بالسورةِ من القرآن، أو حتى بالخاتم من الحديد لا من الفضة ولا من الذهب!.

والكلام هنا ليس عن حلالٍ وحرام؛ فيجوز أن يكون المهر قنطارًا من المال، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، لكن المستوى العام لحال الناس اليوم يدفع إلى التخفيف، وإنَّ ما يصلح لفلان من التشديد قد لا يصلح لعلان، وبعض الشباب لا يصلحه إلا الزواج، ويعذبه طول الانتظار، فعلام يقع أسيرًا لقيد المجتمع؟!.

بالله عليك؛ هل يعقل أن يكون الشاب الذي ينتظر الزواج بفارغ الصبر لا يفصله عن بيت الفتاة التي تنتظر الزواج على أحر من الجمر إلا بضع دقائق، ومع قيام الحاجة الماسة فيهما إلا أنه لا سبيل لوصوله إليها إلا بعد تخطي تلك الحواجز المرعبة المتولدة من الثقافات المجتمعية المتعبة!.

رحم الله زمانًا كان الواحدُ منا يتزوج بمهرٍ يسير، ووليمةٍ محدودة، وفي بيتٍ متواضع، ويقام الفرح أمام البيوت، أو على بعض أسطح المنازل، ولهذا كان الشاب يتعجل في زواجه بما لا يتجاوز العشرين من العمر غالبًا، وإذا تم الزواج كان الدَّيْنُ قليلاً، وعند ذلك كفاه ما يأتي به من مالٍ ودخل لمعيشة حسنة المستوى، بدلاً من إنفاقه في قضاء الديون الثقيلة التي تحملها وناء به حِمْلُها.

ثم دعني أتقدم خطوةً في الطرح، وأناقش قضية مهر الفتاة نفسه، وأتساءل: هل يستفيد بيت الزوجية منه؟ وهل المنفعة العائدة على الفتاة تتناسب مع عناءِ الشاب في تحصيله؟!.

إنَّ أغلبَ المهر يُنفق اليوم في شراء الملابس والذهب، والملاحظ أنَّ أكثرَ النِّسَاءِ تخزِّن أكثر الذهب للتزين به في المناسبات، والملابس قد تتضيق عليها بعد أشهرٍ معدودة، وبالتالي لا تقع التكاليف الباهظة التي تَعَنَّى الشابُ سنواتٍ طوالاً في جمعها موقعَهَا من حاجة بيت الزوجية، بل الملاحظ أن البيت يبدأ في عناء الطلبات الجديدة التي تلح بها الزوجة أو يلوح بها أهلها، حتى إنَّ الزوجَ ليتناسى الديون الماضية تحت ضغط الطلبات الحاضرة، وانظر التبعات النفسية والمشاكل الزوجية التي تنتج عن ذلك؟!.

والحاصل: أني أعظ أهلنا الأحباب بتخفيف المهور، وتقليل نفقات الفرح، والقبول بالبيوت المتواضعة، ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا للحياة الفطرية، ثم لينطلق الزوجان في تكميل ذلك، وبناء حياتهما كما يشتهيان وهما معًا في بيت الزوجية.

ولنجعل الطاقةَ الذهنيَّةَ والثقافة المجتمعيَّة تتوجه إلى تحصين البيت الذي يُؤَسَّس، من نشر فقه إدارة البيوت، وإرشاد الزوجين لما لهما من حقوقٍ، وما عليهما من واجبات، مع ترسيخ الأخلاق والقيم اللازمة لإسعاد البيوت واستقرارها؛ كالحب والعدل والحكمة والحِلم؛ وذلك من أجل أن نتجنب الحياة الزوجية التي تُنزع منها السكينة، وتُفقد فيها الطمأنينة، والتي تنتهي في كثيرٍ من الأحيان بالطلاق المبكر.

المطلب الثالث

تطييبُ النفس مما علق بها من خبائث النظر

تَقَدَّمَ أنَّ الذنبَ ملاصقٌ للآدمية، والذنب شيءٌ خبيثٌ نجس، وإذا نظر الإنسان إلى الحرام فقد اتسخ قلبه بمقدار ما نظر، ولا بد حينئذٍ من التنظيف والتطييب.

وإنَّ اللهَ تعالى جعل الدور ثلاثًا: دارًا أُخْلِصَت للطيبين، وهي حرامٌ على غيرهم، وقد جمعت كل طيب، وهي الجنة، ودارًا أخلصت للخبيثين، وهي حرامٌ على غيرهم، وقد جمعت كل خبيث، وهي النار، ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث، وهي دار الدنيا، فإذا كان يوم القيامة رد اللهُ كلًّا إلى داره، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابَهم وعقابَهم، فجعل حسنات الطيبين نعيمًا عليهم، وسيئات الخبيثين عذابًا عليهم[1]؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وإن الله طيبٌ لا يقبل في جنته إلا طيبًا، وإن ذنوب الشهوات عرضة للتكرار لأنها متجددة، وهذا يعني أنه لا بد من التنظيف المستمر، والتطييب الدائم.

والتطييب يكون في الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات الماحية والمصائب المُكَفِّرة[2]، وهاك تعقيبًا على كلٍّ منها:

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٦٧).

(٢) مجمل نظرية التطييب هي لابن القيم، ذكرها في كتابه «مدارج السالكين» (١/ ١٤٢-١٤٣) وزاد المعاد (١/ ٦٧-٦٨).

أولاً: التوبة العاجلة:

فإذا وقع الإنسانُ في وحل الشهوات عامة، أو النظر الحرام خاصة.. فليتشبث برافعة التوبة فورًا؛ ليتصحح بها مسار حياته، فيندم على الماضي، ويقلع في الحاضر، ويعزم ألا يعود في المستقبل، وهذه هي شروط التوبة الثلاثة، وقد توزعت على الأزمنة الثلاثة لتمنح صاحبها شعورًا بميلادٍ نفسيٍّ جديد؛ إذ التائب من الذنب كمن لم يقع في الذنب أصلاً!.

واعلم أنَّ من علامات قبول التوبة أن يكون العبدُ بعد التوبة خيرًا مما كان عليه قبلها، وأن تحصل له كَسْرةٌ في قلبه خاصة، بحيث تلقيه بين يدي ربِّهِ طريحًا ذليلاً خاشعًا؛ فليس شيءٌ أحبَّ إلى الله تعالى من الكسرة والخضوع والتذلل والخشوع[1][2]، والافتقار لب العبودية.

وأعظ نفسي والقارئ أن تكون التوبةُ جزءًا من الأعمال اليومية، لا سيما وأنه لا يستغني عنها أحد، ولو كان مؤمنًا، ولهذا قال الله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، ومجيء هذه الآية تعقيبًا على قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١] مُشعرٌ بأنَّ أكثر زلات الإنسان وأسباب ضعفه هو في النظر الحرام، والله تعالى أعلم، ونسبةُ العلم إليه أسلم.

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ١٨٦).

(٢) قد يقال: لا يشترط أن تصل إلى رتبةٍ عليَّةٍ من الإيمان من أول يوم بعد التوبة، فإذا تبتَ، وأخذتْ علامات التوبة المقبولة تظهر تباعًا، وثبتت على ذلك.. فإن الرجاء أن تَصِلَ، وأن تُقبل، أما إذا لم تَرَ تمام مرادك فلا تيأسْ؛ بل اثبتْ، وأعدِ الكَرَّة، والله يكرمك ويتولاك.

ثانيًا: الاستغفار الخاشع:

والاستغفارُ في الحقيقةِ حصنٌ يعتصم به المذنب من غضب الله ومقته، ولم أر أزكى من استنباط **الحسن** لذلك بقوله: **لا أظن أنَّ الله يعذب عبدًا يستغفر!** قيل له: لماذا؟ قال: من الذي ألهمه الاستغفار؟ قالوا: الله، قال: كيف يلهمه الاستغفار ويريد به أذىً وهو القائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]!.

والشيءُ المُهِمُّ أن الاستغفارَ ممكنٌ مع عدم التوبة، فبمجرد أن يقول الإنسان بعد الذنب: أستغفر الله، اللهم اغفر لي.. فقد استغفر، لكن التوبة تحتاج لندمٍ وإقلاعٍ عن الذنب وعزمٍ على عدم العود، بيدَ أنَّ الاستغفار المثمر الكامل التام هو الذي يصاحبه ذلك، فيكون استغفارًا وتوبةً معًا، وبهذا يُعلم أنَّ مطلقَ الاستغفار أمرٌ سهل؛ لأنه عبارةٌ عن كلام يتلفظ به الرجل من غير شروط، ولهذا تتوجه النصيحة لمن ابتلي بفعل سيئة أن يركض إلى حصن الاستغفار بعد الذنب فورًا.

ويمكن أن يجعل ذلك في ثوب ركعتين، يطيل فيهما السجود، ويعتذر فيهما إلى الله تعالى، ومن فعل ذلك فلتُزَفَّ إليه البشائرُ بما أخرج **أبو داود** من رواية **أبي بكر** ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ.. إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ**». ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ[1].

صححه الألباني.

اصدقني القول: هل خطر ببالك وأنت تقرأ هذا الحديث أنك إن أذنبت أن تقوم فتبالغ في تحسين الوضوء، وأن تصلي ركعتين، ثم تشتغل بالاستغفار مائة مرة مثلاً، أم قرأته بنية العلم دون العمل؟!.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥٢٣)، والآية في سورة آل عمران رقم: (١٣٥).

أدع الإجابة لك، المهم أنك إذا أخذت في الصلاة، ووصلت السجود، أو دعوت بعد الصلاة، فيمكن أن تناجي ربك بالإضافة للأدعية المأثورة بما فيه تذللٌ وخضوع، ومن ذلك أن تقول:

يا ربِّ، لم يكن منِّي ما كان من ذنبٍ عن استهانةٍ بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكارًا لاطِّلاعك، ولا استهانةً بوعيدك؛ وإنما كان عن غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، وسعة حلمك ورحمتك، واتكالاً على عفوك، وحسنَ ظنٍّ بك، ورجاء لكرمك، وقد غرَّني بك الشيطان، والنفسُ الأمارة بالسوء، وسترك المرخي عليَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى نجاتي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك[1].

إلهي؛ عبدك الآبق رجع إلى بابك، عبدك العاصي رجع إلى الصلح، فاعف عني بجودك، وتقبلني بفضلك، وانظر إليَّ برحمتك، اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب، واعصمني فيما بقي من الأجل، فإن الخير كله بيدك، وأنت بنا رؤوفٌ رحيم..

يا مجلي عظائم الأمور، يا منتهى همة المهمومين، أحاطت بي ذنوبٌ أنت المذخور لها، يا مذخورًا لكل شدةٍ تب علي، إنك أنت التواب الرحيم..

يا من لا يشغله شأنٌ عن شأن، ولا سمع عن سمع، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، برحمتك يا أرحم الراحمين، إنك على كل شيء قدير[2].

اللهم إني أُشْهِدُكَ أني تُبتُ الآن إليك من كلِّ ذنب، نادمٌ على ما فعلت، مقلعٌ عما أذنبت، عازم على ألا أعود، فبدل سيئاتي حسنات.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٨٢-١٨٣).
(٢) منهاج العابدين للغزالي ص (٦٣).

يـا ربِّ ضعفـتُ أمـام شـهوتي ولا غـيرك يقويني، يـا رب ضللـت ولا سـواك يهديني، يـا رب غرقـت في حـب الدنيـا ولا غـيرك ينجيني، يـا رب احترقـت في نـار المعـاصي ولا سـواك ينقـذني، فاغفـر لي -اللهـم- ذنبـي كلـه، دِقَّـه وجلـه، أولـه وآخـره، علانيتـه وسرَّه.

ونحـو هـذا مـن الـكلام المتضمـن للاسـتعطاف والتذلـل، فهـذا مـن تمـام التوبـة والاسـتغفار، ويسـلكه الأذكيـاء في التعامـل مـع ربهـم.

ثالثًا: عمل الحسنات الماحية:

بمجـرد وقـوع العـين عـلى هـذه الجملـة يقفـز إلى الذهـن نصَّـان عظيـمان؛ الأول منهـما قـول الله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هـود: ١١٤]، والآخـر حديـث النبـي: «**وأَتْبِـعِ السَّـيئةَ الحَسَـنةَ تَمْحُهَـا**»[1].

والنصَّـان يشـعران بـأنَّ الذنـبَ واقـعٌ مـن غـير شـك كـما تقـدم، لكـن المهـم أنـه إن وقـع أن يشـتغل الإنسـان بمحـوه وإذهابـه.

تخيـل شـابًّا وهـو يُقلِّـبُ في محطَّـاتِ التلفـزة، أو مواقـع الانترنـت نقـرت يـده عـلى مقطـعٍ فيـه مـا يحـرم النظـر إليـه، وتفاعـل معـه، وبقـي يتنقـل مـن مقطـعٍ إلى آخـر، ثـم تذكـر، فبـدأ الغـم يتنـزل بسـاحته، وضاقـت عليـه نفسـه، وظـنَّ أن لا ملجـأ مـن الله إلا إليـه، فأخـذ يذكـر الله، واسـتغفر الله مائـة مـرة، وبقـي مهمومًـا كيـف يمحـو مـا حصـل منـه؟؛ سـعيًا في تبييـض الصحيفـة، والنجـاة مـن ألم الحسـاب والعتـاب أو العقـاب يـوم القيامـة، فلاحـت في مخايلـه العطايـا الربانيـة التـي تتيـح لـه خاصيَّـةَ المَحْـو لمـا وسَّـخته يـداه في سـجل أعمالـه.

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٩٨٧). وقد حسنه الألباني.

وبدأ مشروع المحو!.

فقام يجالس أمه، ويزيل عنها همومها، أو ذهب يصل بعض رحمه، ويدخل السعادة عليهم، أو رأى في طريقه طفلاً أو صاحب حاجةٍ فأعطاه شيئًا من المال، وهو يستحضر حديث النبي: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»[1]، أو أمسك كتابًا وأخذ يقرأ شيئًا من العلم ليعبد الله على بصيرة.

أو صلى ركعتين قبل نومه، أو بعد يقظته، أو مكث في المسجد حتى شروق الشمس؛ ليظفر بأجر حجة وعمرة، لعله يعود من ذلك كيوم ولدته أمه نظير الحاج المحرم.

أو جلس بعد صلاة العصر[2] أو المغرب في المسجد نصف ساعةٍ مثلاً، وهو ينوي بذلك التحصل على دعاء الملائكة المجاب؛ استفادةً من قول النبي ﷺ: «وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فيه، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»[3]، وهو يستشعر شدة الحاجة لهذه الأدعية الثلاثة تحديدًا، وهذه فرصةٌ نفيسة، ولما تذوق **ابن بطال** قدرها أخذ ينصح ويقول:

«فمن كان كثير الذنوب وأراد أن يحطها الله عنه بغير تعب فليغتنم ملازمة مكان مصلاه بعد الصلاة، وليستكثر من دعاء الملائكة واستغفارهم له؛ فهو مرجو

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي، رقم الحديث: (٣١٦٨)، وهذا جزء من الحديث، وقد صححه الألباني.

(٢) وقد ورد فضل خاص لمن جلس في المسجد يذكر الله بعد صلاة الفجر حتى الشروق أو بعد صلاة العصر حتى الغروب؛ فقد أخرج أبو داود في سننه برقم (٣٦٦٩) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً». حسنه الألباني.

(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢١١٩، ٤٧٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٣٨) واللفظ لمسلم.

إجابته لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨][١]!.

وربما حمله تفكيره على أن يعتكف في المسجد يومًا أو بعض يوم؛ سعيًا في دخوله في قول النبي ﷺ: «مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ»[٢]. صحَّحه الألباني.

وقوله: «إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ» أيْ: أقبل عليه وتلقاه بِبِرِّهِ، وإكرامه وإنعامه؛ لوقوع صنيعه الموقعَ الجميلَ عنده[٣].

أو قصد ثغرًا قريبًا منه، ورابط فيه ليلةً يحرس البلد وأهله، وهذه وسيلة فعَّالة أكدها شيخ الإسلام **ابن تيمية** بقوله: **من كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد؛ فإن الله ﷻ يغفر ذنوبه**، كما أخبر في كتابه بقوله سبحانه تعقيبًا على الحث على الجهاد: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٢][٤]، وكذلك قوله تعالى:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

[آل عمران:١٩٥]

تعقيبًا على الهجرة والإخراج من الديار والإيذاء في سبيل الله والقتال والقتل.

أو سمع أنَّ فلانًا مريضٌ فقصده بالزيارة ليخفف عنه، ويخفف كذلك عن نفسه! وهو يلتذ باستدعاء حديث النبي ﷺ إلى ذهنه: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا جَلَسَ عِنْدَهُ اسْتَنْقَعَ فِيهَا»![٥]. صححه الألباني.

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢/ ٩٥).
(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٠٠).
(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٦٧٣).
(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٤٢١).
(٥) الترغيب والترهيب للمنذري، رقم الحديث: (٥٢٧٦). من رواية كعب بن مالك ﷺ.

يا الله؛ ما أمتع هذا الحديث! إن قوله: «خاض في الرحمة»، وقوله: «استنقع فيها» يستحوذان على الانتباه كل استحواذ، ويسيطران على الأذهان كل سيطرة، شابٌّ وقع في الإثم، فخرج يطلب رحمة الله، ودخل عند أخيه المريض زائرًا، وهو يستشعر أن بيته كوعاء كبير من الرحمة، وجلس يخوض فيه كما يخوض أحدنا في البحر، وانتقع فيه كما ينتقع العصفور في الماء، وخرج مرحومًا بعد أن كان محرومًا!.

وغير ذلك مما يفتح الله به عليه.

وهناك أمرٌ فوق المحو؛ وهو أنَّ فعل الطاعات نافعٌ للمجتمع من جهة، كما تقدم من إدخال السرور على الأهل والأرحام والفقراء والمرضى، وحراسة المسلمين من عدوهم، وقد أفاد الشعراوي أن هذا الملحظ هو إحدى الحِكَم لعدم قبول توبة المرء عند الاحتضار والغرغرة؛ لأنها توبةٌ لا ينتفع منها المجتمع؛ بل هو شرٌّ تخلصت منه الأمة[1]، ونافعٌ لصاحبه كذلك، من حيث إن الحسنات تقوده للثبات الذي يحتاجه في مواجهة سيول الفتن، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:٦٦]، فالعمل بالمواعظ يرزق الثبات، لا أن الثبات شرطٌ لفعل الصالحات، كما يتوهمه كثيرٌ من النَّاس.

وبتعبير آخر: **إنَّ فعلَ الحسنات من جملة أسباب ترك السيئات**، وقد أعجبني قول الشيخ **الطريفي** إذ غرَّد قائلاً: «الطاعات والمعاصي تتنافر، فمن أراد الخلاص من معصية فليزاحمها بطاعة حتى تزول».

رابعًا: المصائب المُكَفِّرَة:

من جُملة ما يواجه به المذنب ذنبه أن يُبالغ في تَحَمُّلِ المصائب النازلةِ به، وإنه

(١) تفسير الشعراوي، تفسير الآية (١٧) من سورة النساء، ص (١٤١١).

ينبغي لمن أكثر من أفعال السوء أن يربي نفسه ألا يستاء البتة من البلايا التي قدَّرها الله عليه.

والأصل في التعامل مع المصيبة أن يسير الإنسان في خطَّين متوازيين: أن يأخذ بأسباب دفعها أو تخفيفها من جهة الجوارح، وأن يصبر عليها من جهة الشعور القلبي.

والصبر ليس التعامل الوحيد مع المصيبة؛ بل هو **المرتبة الأولى**، والتي تقوم على ضبط الإنسان لمشاعره المتَّقدة، فلا يتكلم أو يفعل ما فيه إثم رغم الغليان الذي في صدره.

والمرتبة الثانية: الرضا، ويزيد على الصبر بأنَّ نَفسَهُ تكون معه ساكنةً مطمئنة.

والثالثة: الشكر على ما قدَّر الله؛ لأنَّ المصائبَ في نظره من جملة النعم؛ لما فيها من تكفير السيئات، وتكثير الحسنات، والنعم الباطنة في قوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠] هي المصائب في تأويل بعض العلماء.

والرابعة: المحبة لله بعدها؛ لأنه يعتقد أن الله محسنٌ إليه في كل وقت، ويريد به خيرًا، وأنه يمنع عنه ما يريد ليعطيه ما يحتاج.

وبالتالي تصبح المصائب بهذا التعامل الشعوري من جملة ما يبدد الإنسان به زلَّاته، وإن ربنا جل وعلا قد علم قلة طاعاتنا، وكثرة سيئاتنا، فأراد أن يطهرنا بهذا السبيل؛ ليقل حرجنا يوم القيامة، وليس المراد بالبلاء أن تُعَذَّب؛ لكن المراد أن تُهذَّب، وإلا لو عاملنا الله بمقدار ذنوبنا لما كان لنا أقدامٌ نمشي بها على وجه الأرض، وهو القائل سبحانه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ [فاطر: ٤٥]، وهذه من أشد الآيات على قلبي.

وعليه؛ فلا داعي أن تتنكد إذا منع الله عنك شيئًا من العافية أو المال، وقد قال **ابن عطاء**: «**العطاء من المخلوق حرمان، والمنع من الخالق إحسان**»، وقال: «**متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنعُ عينَ العطاء**»، بل تعامل أنك في نعم من نوعٍ خاص، تجني منها الرحمة حينًا، والعلو في الدرجات في الجنة حينًا آخر.

ويدل على الأول ما أخرج **أبو داود** عَنْ **أَبِي مُوسَى** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«**أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ والبلايا**»[1]. صححه الألباني.

ويدل على الآخر ما أخرج **الحاكم** في المستدرك من حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«**إِنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ لَهُ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَ اللهِ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ ذَلِكَ**»[2]. حسنه الألباني.

إلى هنا ننتهي من وسائلِ التطييب في الدنيا، والتي تتصدر جُرَع الدواء لقوة فاعليتها في ردم ما انهدم بالذنب في علاقة العبد بربه، **وأرى أن أستطرد لإكمال نظرية التطييب من غير بسطٍ، فأقول:**

إن الوسائل الأربع إذا طهَّرت العبد وطيَّبته كان من الذين ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

وإن لم تف هذه الأربع بأن لم تكن التوبة نصوحًا، وهي العامة الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملاً تامًّا، وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه، ولم

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٢٨٠).
(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم الحديث: (١٢٢١).

تكن الحسناتُ الماحيةُ والمصائبُ المكفرة كافيتين لقلتهما أو لعظم الذنب، **مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء:**

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه، لما أخرج **مسلم** في صحيحه عن **ابن عباس** ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»(١).

ويصلح أن يقال: إنَّ الحديثَ اشترطَ نوعًا دقيقًا من الناس، وهم الذين لا يشركون بالله شيئًا، وهذا يعني أنهم على مرتبةٍ من الصدق والإخلاص، فينبغي للذي يعاني الذنوب والسيئات أن يحرص على صحبة أهل الإيمان والفضل، فإنهم يوم أن يرحل ويصلوا عليه ينتفع بصلاتهم عليه بتوفيق الله جل وعلا.

والثاني: ما يُهدي إليه إخوانه المسلمون من هدايا الأعمال؛ من الصدقة عنه، والحج والصيام عنه، وقراءة القرآن وسقاية الماء، وجعل ثواب ذلك له، وقد أجمع أهل العلم على وصول الصدقة والدعاء، واختلفوا فيما وراء ذلك، وأوسع المذاهب في وصول القُرَب إلى الميت مذهبُ الإمام **أحمد** رحمه الله.

والثالث: إن لم يكف ما سبق فلا بد من تمحيصه بفتنة القبر، وعذابه، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

فإن لم تف هذه بالتمحيص مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء:

أحدها: أهوال القيامة وشدة الموقف.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٢٤٢).

والثاني: شفاعة الشفعاء، ولذلك ثلاثة شروط: أولها: أن يقبل الله الشافع، فقد يؤمل إنسانٌ في شفاعة أحد الشهداء له، وهو بحاجةٍ لمن يشفع له، والثاني: أن يأذن الله للشافع بالشفاعة، والثالث: أن يرضى عن المشفوع أن يشفع له، كما قال الله:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

والثالث: عفو الله عز وجل، ومن وسائل الفوز به عفو الإنسان عن خصومه ومن آذاه.

فإن لم تف هذه الثلاثة فهنا يتوقفُ الكلام وينعدم البيان، هنا الرزية الكبرى والبلية العظمى، هنا المصيبةُ التي لا تُجبر، والثلمة التي لا تسد، هنا دخول النار رحمةً في حقه؛ ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه، فإذا استؤصل خبثُهُ وصُفِّي ذهبه وصار خالصًا طيبًا.. أخرج من النار وأدخل الجنة، وصلح ساعتئذٍ لأن تخاطبه الملائكة:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

وباكتمال محطات التمحيص أختم الكلام عن هذه النظرية بتعقيبٍ كأنه الياقوت النفيس في جودته وعمقه، وهو لصاحب النظرية نفسه **ابن القيم** عليه رحمةُ الله إذ قال:

قد يكون في الشخص مادتان، فأيهما غلب عليه كان من أهلها، فإذا أراد الله به خيرًا طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار، فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة، ويمسك عن الآخر مواد التطهير، فيلقاه يوم القيامة بمادةٍ خبيثةٍ ومادة طيبة، وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخبائثه، فيدخله

النار طهرة له وتصفيةً وسبكًا، فإذا صلح لجواره أخرج منها، وإقامةُ هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال الخبائث، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد..

ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]؛ وذلك كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه فإنه لا يطهر، فلذلك حرَم الله تعالى على المشرك الجنَّة.

ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرءًا من الخبائث كانت النار حرامًا عليه؛ إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره منها، فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب، وشهدت فِطَرُ عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين، وربُّ العالمين، لا إله إلا هو[1].

(١) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٦٨).

المطلب الرابع

صبر واصطبار

تقدم أنَّ الأصلَ في علاج الشهوات هو الصَّبر، وهذه جرعةٌ لازمةٌ لا تَفَلُّتَ منها، وبها يتحقق قصدُ امتحانِ المُكَلَّفِ في هذه الدار؛ إذ لو كانت طريقُ الجنة كلها مسَّرات، ومحفوفةً بالشهوات لأتاها الناس رغبةً فيها لا امتثالاً لأمر الله، ولو كانت طريق النار محفوفةً بالمكاره والأمور المستثقلات لفر الناس عنها رغبةً عنها لا اتقاءً لغضب الله، فجاء الأمر مخالفًا للرغبات الآدمية ليتحقق القصد من الابتلاء في المكلفين.

فإن اشتكى الشابُّ المشقةَ والعناءَ بسبب ضغطِ الفتنِ وتَهَيُّجِ الشهوات فيُوصى بالاصطبار بعد الصبر؛ فإنَّ الاصطبارَ نهايةُ الصبر وغايته[1]، وهذه الطاء أصلها تاء الافتعال التي تفيد التكلف في الفعل، وكأنه في ساحة نزال وميدان قتال..

وقد أعجبني تعليق المفسر المشهور **ابن عطية** على قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥] إذ قال: هنا أمرٌ بحمل تكاليف الشرع، وإشعار ما بصعوبتها، فهي شريعةٌ تحتاج إلى اصطبار، أعاننا الله عليها بمنه[2]!.

(١) تفسير الثعالبي (٣/ ١٥).
(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٢٤-٢٥).

أما عبقري المفسرين المعاصرين الإمام **الطاهر ابن عاشور** شيخ الزيتونة بتونس فقال: الاصطبار هو شدة الصبر على الأمر الشاق، وإن الله نزل القائم بالعبادة هنا منزلة المغالب لنفسه، المقاتل لها، ولهذا عُدِّي الفعل باللام كما يقال: اثبت لعدوك[1]!.

إذا عُلِم هذا فليس من فراغ أن يكون الصبر مع العلم المفضي لليقين هما الجناحين اللذين يطير عبرهما الطامح في الإمامة في الدين، كما قال ربنا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وإياك أن تحسب أنَّ من تراهم على العفَّةِ والالتزام أنهم خُلِقُوا بشهواتٍ ضعيفة، كلا؛ ولكنهم يتكلفون الصبر ويعانون شدته في ذات الله، ولك أن تدرك عظم المجاهدة، وحاجتها إلى نفسٍ صامدة بتأمل ما قال **أبو يزيد**: **ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سقتها وهي تضحك!**.

على أنَّ العاقلَ قد يضعفُ في لحظةٍ وينظر للحرام، لكن لا يكون عبدًا لشهوته على الدَّوَام، بل كم انهزم الشيطان على بابه وتقهقر، فيصبح بذلك من عباد الله الصَّالحين الذين هم في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع العسكرية التي تنهزم فيها جيوشُ المقاتلين كما قال **الرَّافِعي**[2]!.

ولعلَّ أعظمَ أنموذجٍ للشاب الصابر بَطَلُهُ إمامُ العفافِ في القرآن، يوسف عليه السلام، فإنَّ أسبابَ الوقوعِ في الفاحشة قد تكاثفت عليه من كل جانب، لكنَّهُ صبر، وصار بِصَبرِهِ هذا وعِفَّتِهِ إلى ما بلغ من الإمامة في الدين والملك في الدنيا، مع أنَّ الذي ابتلي به -كما قال **ابن القيم**- أمرٌ لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله؛ فإن موافقة الفعل إنما هي بحسب قوة الداعي وزوال المانع، **والداعي هنا في غاية القوة من وجوه منها الاثنا عشر وجهًا الآتية:**

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٤٢-١٤٣).
(٢) وحي القلم للرافعي (٢/ ١٥٥).

أحدها: ما ركَّبَهُ الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان للماء والجائع للطعام.

والثاني: أن **يوسف** ﷺ كان شابًّا، وشهوة الشباب أقوى.

الثالث: أنه كان عزبًا لا زوجة له تكسر شدة شهوته.

الرابع: أنه كان في بلاد الغربة، ويتأتى للغريب من ذلك ما لا يتأتى لغيره، لا سيما وأن الفضيحة بين المعارف والأرحام منتفيةٌ هنا.

الخامس: أنَّ المرأة كانت ذاتَ منصبٍ وجَمال، وكلا الأمرين يدعو إلى موافقتها.

السادس: أنها غير متمنعة، وكثير من الناس يزيل رغبتَهُ تمنعُ النساء؛ لما يجد في نفسه من ذل السؤال والخضوع لهن.

السابع: أنها هنا هي من طلبت وأرادت، فَكَفَتْهُ مؤنةَ الطَّلَبِ وذل الرغبة إليها.

الثامن: أنه يعيش في دارها وتحت سلطانها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها.

التاسع: أنَّهُ لا يخشى أن تُخبِرَ عنه؛ فإنها الطالبة له، وقد غَلَّقَتِ الأبواب، وغيَّبَت الرقباء.

العاشر: أنه كان مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا يُنْكَر عليه، وليس قبح الفاحشة من عبدٍ بدرجة قبحها من حر.

الحادي عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، وهو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به، وقد وقع لاحقًا بالفعل.

الثاني عشر: أنَّ الزوجَ لم يَظْهَر منه الغيرة عليها، وكل الذي فعله أنه وعظها بالترك، ومعلومٌ في النفس أنَّ شدةَ الغيرة هي أقوى الموانع، وقد انتفت هنا.

ومع كل هذه الدواعي إلا أَنَّهُ آثَرَ مَرضاةَ الله وخوفه، واختار السِّجْنَ على الزِّنَا، وهذا من كمالِ معرفته بربه وبنفسه[1]، وهو ما زال شابًّا في مقتبل العمر!.

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٤٨).

فيالله لهذا الصبر اليوسفي الذي نحتاج بعضه اليوم، حتى نُكْمِلَ طريقنا إلى الله في رحلة الامتحان بسلامٍ وأمان، ولا يكون مثل أحدنا كمثل ذاك الكلب الذي استقبح اسمه فقال للأسد: يا سيد السباع غير اسمي! فقال: إنك خائنٌ لا صبر لك! قال: جربني، فأعطاه قطعة لحم، وقال: إن حفظتها غيرت اسمك، فرقص طربًا من الفرح، فلما جاع جعل ينظر إلى اللحم، ويصبر، فلما غلبته نفسه هجم عليها وأكلها وقال يعزي نفسه: والله ما الكلبُ إلا اسمٌ حسن[1]!.

إنَّ الصَّبْرَ اليوسفي يصدح في سمع الشباب أنَّ **المؤمنَ القويَّ بكلِّ أرضٍ يتقي**، ويقرر أنَّ **فساد البيئة ليس عذرًا في ترك الاستقامة**، ويبشر بأن **كل قطعة من العناء ستنقلب إلى قناطير من الهناء** فيما يستقبل من الزمان، **فالعناء جسر الهناء**.

فاصبر يا يُوسُفِيَّ الخُلُق واصطبر، واعلم أنَّ اللهَ تعالى قدَّر أن تكون المعصيةُ سهلةً لذيذة، ليميز بها الخبيث من الطيب، وجعل أجرَ الصابر مبهمًا إشارة إلى فرط عظَمِه وكثرته، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

واعلم أنَّ الصبر في زمان شدة الفتن أعظم أجرًا، وأكثر فضلاً؛ فقد أخرج أصحاب السنن إلا **النسائي** أن النبي ﷺ قال:

«**فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ**»[2]. صححه الألباني.

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص (١٤٠).

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٣٤٣)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٠٥٨)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٠١٤)، علمًا بأن الحديث طويل، لكن هذه الفقرات هي التي صحت منه بناء على حكم الشيخ الألباني رحمه الله.

وإن الله تعالى لم يجعل شِفَاء القلب فيما حَرَّمَهُ على العَبْد، فَأَمَرنا بِغَضِّ البَصَر؛ ذلك أنَّ النظرةَ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليسَ، فإن تكرر النظر اشتد السُّم، فَكَيفَ يُتداوى من السُّمِّ بِالسُّمِّ[1]؟!.

ومما يُعين العبدَ على الصبر أن يعلم أنَّ اللهَ شَدَّدَ عليه في غضِّ البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠] فأمر بالغضِّ صراحةً في صدر الآية، ونبَّه في جوفها أنَّ ذلك أطهرُ لهم، وختمت بتهديد مقلق، وتأمل نصَّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، فإنَّ الخبيرَ هو العليم بدقائق الأمور وتفاصيلها[2]، وإنَّ من يصنع شيئًا يُركِّبُهُ من مواد متفرقة، فكأنَّ العبدَ يحتال بجملةٍ من التدابير على مقارفة الشهوات، والله يُعْلِمُهُ أنه خبيرٌ بصناعته.

والأمر بالغض يُشْعِرُ بوجود مُحَرَّمٍ يقع النظرُ عليه، وإن كانت سياسةُ الشَّريعةِ هي تحريم التبرج في مقابل تحريم النظر، فلا بد لذلك من الصبر، وأدعك الآن مع صاحبِ القلمِ المبدع والتأصيل المدهش، الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله عنه إذ قال فأحسن القول:

شَدَّدَ الله على الرجل في غض البصر، وشدد على المرأة في الحجاب، حتى يقل ما بينهما من تجاذبٍ وميل، ولا يعني هذا أنه يجوز للرجل إبداء مفاتنه فيَفتِن، ولا أنه يجوز للمرأة إطلاق بصرها فتُفتن، ولكن الوحي يشد الحبال المرتخية في النفوس أشد من الحبال الثابتة فيها، وأقرب الناسِ إلى السُّقُوطِ يجذب أشد من البعيد عنها، حتى تكتمل فطرة العفاف وتصح..

---

(١) روضة المحبين لابن القيم ص (٩٣-٩٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢/ ٣١٠)، تفسير الألوسي (١٣/ ١٢٣)، تفسير روح البيان للخلوتي (٧/ ١٠٠).

فـإذا لم يغـض الرجـل بـصره؛ فـإنَّ المـرأة تدفـع فتنتـه بحجابهـا، وإن لم تتحجـب المـرأة؛ فالرجـل يدفـع فتنتهـا بغـض بـصره..

ولهـذا ربـط الله بـين غـض البـصر وبـين الزنـا؛ لأنـه سـببٌ لـه، فقـال للرجـال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ [النـور: ٣٠]، وقـال للنسـاء، ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النـور: ٣١]، ولكنَّـهُ زاد في النِّسَـاء: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[1].

وعرض الإمام **الغزالي** علاج الصبر عن الشهوات في حلةٍ حسنة فقال:

إن المريـض إذا اشـتدت ضراوتـه لمأكـولٍ مُـضِرٍّ فطريقـه أن يستشـعر عظـم ضرره، ثـم يغيـب ذلـك عـن عينـه فـلا يُحضره، ثـم يتسـلى عنـه بـما يقـرب منـه في صورتـه ولا يكثـر ضرره، ثـم يصـبر بقـوة الخـوف عـلى الألم الـذي ينالـه في تركـه، فـلا بـد عـلى كل حـالٍ مـن مـرارة الصـبر[2].

وعقب الذي تسطر يطيب لك الآن أن تترنم بقول الشاعر:

سَأَصْبِرُ حتى يعجزَ الصَّبْرُ عن صَبْرِي ... سَأَصْبِرُ حتى يَنْظُرَ الله فـــي أَمْرِي
سَأَصْبِرُ حتى يَعْلَمَ الصَّبْـــرُ أَنَّنِي ... صَبَرْتُ على شيءٍ أَمَـــرَّ من الصَّبْرِ

والله الموفق وحده.

(١) الحجاب في الشرع والفطرة للطريفي ص (٢٠).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٧/ ١٩١)، وقد توسع الغزالي في ذلك وغيره من أنواع العلاج فلينظره من ابتغى التوسع.

المطلب الخامس

تضييقُ دائرةِ المحرمات عند تحتمها

يقول: حاولت بكل سبيلٍ أن أدعَ ذلك الذنب، لكني أَسقطُ فيه مرةً بعد مرة، رغم أني أجتهد في البعد عنه، وقد حلفت غير مرة ألا أعود إليه، لكنِّي أقع، **وبافتراض ضعفي المتكرر وتحتم الوقوع في الذنب قطعًا فما إرشادكم؟!.**

أقول:

متقررٌ عند أيِّ عاقلٍ أنَّ من خسر درهمًا ليس كمن خسر اثنين، ومن سُجن سنةً ليس كمن سُجِن سنتين، **وهنا تنظيرٌ لسياسة تقليلِ الشَّر قدر الإمكان.**

فإذا كان الطريق إلى الفاحشة يبدأ من محطة الخواطر السيئة، ويمر بقراءة المواد الفاحشة، ومشاهدة المرئيات المحرمة، ومحادثة النساء، ومصافحتهن، والخلوة بهن، ونحو ذلك وغيره.. فإنَّ الإنسانَ إذا خضع لذل المعصيةِ في محطةٍ فينبغي أن يتوقف عندها ولا يكمل، ويجتهد أن ينعطف راجعًا على عجل..

فإن اشتغل مثلاً بالخواطر فلا يتجاوز للنظر[1]؛ فإن وقع في النظر فأن يكون لصورةٍ أولى من أن يكون لمقطع فيديو، وهذا أهون من الخلوة بالنساء أو مسهن، وهكذا..

(١) مع بقاء الاجتهاد في حفظ النفس من الخواطر، فمن ضبطها أو قلَّل منها سهل عليه ترك ما بعدها، ولهذا يقول الغزالي: من كان إلى ضبط خواطره أقرب.. كان لرتبة الولاية أقرب».

هذا أولاً، ثم أن تكون نظرة أخف من نظرتين، وأن يكون النظر مرة في اليوم أو الأسبوع أهون من أن يكون مرتين.

فالسِّيَاسةُ هنا تنص على التوقف عند أقل الضرر في الدِّين، وهو في نفس الوقت مُقرٌّ بأنَّه آثمٌ، ولا يبرر فعله، لكنه يضيق الخناق على عسكر الشر.

ثم إنه يُسِرُّ بذنبه، ولا يجهر به، ولا يدعو الناس إليه، فمن كان فاسدًا فحذار أن يكون مفسدًا.

وهو مع كل ذلك محافظٌ على خطِّ الحَسنات من صلاةٍ وسننٍ وتهجد وصدقةٍ، وصلة رحم ودعوةٍ وجهاد وتلاوةٍ وحفظٍ، ولا يلتفت لمن قال بعدم جدوى الحسنات مع استمرار السيئات؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات، فضلاً عما فيها من الأجور المضاعفات.

فإذا نجح في ذلك كله أو بعضه فليشرع في بندٍ جديدٍ في منطق هذه السياسة، يقوم على عزل هذا الذنب عن بقية الذنوب؛ فمن كان يضعف عند ذنبٍ ما -وليكن النظر للحرام بحكم الباب الذي نعالجه- فليقطع نفسه عن عامة الذنوب التي لا يقع هو فيها ضعفًا بضغط الجِبِلَّة التي تركبت في الغريزة وشدة الفتن في الواقع، فلا يكذب قط، ولا يسب ولا يغتاب ولا يحلف كذبًا ولا يشهد زورًا، ولا يأكل حقًّا ولا يقطع رحمًا، فيحصر الداء في المنطقة التي تضعف سيطرته فيها على نفسه.

وأما بخصوص التعامل مع نفس هذه المعصية؛ فإنَّهُ يجتهد في تركها، فإن لم يفلح فيعمل على تقليلها، والتوبة منها، وليكثر في مقابلها من عملٍ صالحٍ بعينه؛ **ليجلب من الحسنات ما يوازن به ما ورد عليه من السيئات**، ويجتهد أن يستحدث طاعةً مشروعة لم يكن يعملها، أو يبالغ في طاعةٍ يعملها لم يكن يبالغ فيها من قبل.

وأذكر أنَّ أحدَ الإخوةِ قال لي: درستُ في بلدٍ أجنبيٍّ عدةَ سنوات، وكانت الفواحش أمرًا مستساغًا جدًّا في ذلك البلد، ورأيت عددًا من الناس يهلكون ويتلطخون في قاذورات المعاصي، ورأيت أني واقعٌ في دائرةِ الذنب لا محالة، فقررت أن أكتفي باختلاس النظر إلى الحرام ولا أتجاوزه قط؛ فلا أجلس إلى الفتيات، ولا أصافحهن، ولا أختلي بهن، فضلاً عما فوق ذلك، مع إقراري بمأثمة ذلك، لكني أضعُف، وقد عصمني الله من التردي في باطن الإثم وله الفضل والحمد!.

إذن؛ فالحكمةُ تَقبلُ بالوقوفِ عند درجةٍ من الإثم؛ قطعًا لخطٍّ تتابعهِ وتزايده، مع التنويه بأنَّ **انتهاكَ حُرُماتِ الله في بلد العافية أثقل من انتهاكها في بلد الفتنة، وأجر الصبر في بلد الفتنة أعظم من الأجر في بلد العافية**، فدرجةُ المشقَّةِ ذاتُ تأثيرٍ طرديٍّ في حجم المعصية.

وعلى ما سبق؛ فمن ابتُلِيَ بذنبٍ يؤرقه فلا يتجاوزه لغيره، ثم ليواجهه بالاستغفار والتوبة وفعل الحسنات الماحية وتحمل المصائب المكفرة، ويقطع طريق التوسع التي يعتمدها الشيطان أصلاً في جر الإنسان إلى شباكه، كما قال ربنا ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١]..

فإنه لو تماشى مع الشيطان في سياسته، وطاوعه في خطواته فقد تجده مقبلاً بشراهةٍ على الذنوب؛ فيشرب الدخان ويشاهد الأفلام، ويضيع الصلوات ويقترف الموبقات، وربما نام على جنابة واستيقظ على جنابة، كأنه جيفةٌ والعياذ بالله.

وهذا التَرَدِّي الشائن والسقوط المهلك هو الذي حذَّر منه **ابن القيم** فقال: **من عقوبة المعصية أنها تجعل صاحبها من السِّفْلَةِ بعد أن كان مهيأً لأن يكون من العِلْيَةِ، وإنَّ اللهَ تعالى جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته**

أهـون خلقـه عليـه، وجعـل العـزةَ لهـؤلاء، والذلـةَ والصغـار لهـؤلاء، كـما قـال النبـي: «وَجَعَـلَ الذِّلَّـةَ وَالصَّغَـارَ عَـلَى مَـنْ خَالَـفَ أَمْـرِي»[1]..

وكلـما عمـل العبـد معصيـةً نـزل درجـةً إلى أسـفل، ولا يـزال في نـزولٍ حتـى يكـون مـن الأسـفلين، وكلـما عمـل طاعـة ارتفـع بهـا درجـة، ولا يـزال في ارتفـاعٍ حتـى يكـون مـن الأعلـين الأكرمـين، وقـد يجتمـع للعبـد في أيـام حياتـه الصعـود مـن وجـه والنـزول مـن وجـه، وأيهـما كان أغلـب عليـه كان مـن أهلـه؛ **فليـس مـن صعـد مائـة درجـة ونـزل درجـة واحـدة كمـن نـزل مائـة درجـة وصعـد درجـة واحـدة**[2]**!**.

وهـذا الـذي ختـم بـه كلامـه هـو عـين مـا أريـد، فيمكـن أن يُوجـد شـابٌّ ملتـزمٌ صاحـبُ أدبٍ وتعبـدٍ، يحمـل السـلاح ويجاهـد ويصـل الرحـم، لكنـه لـو فتـح الانترنـت، وأخـذ يشـاهد مقاطـعَ حَسَـنةً، ثـم رأى بجانبهـا مقطعًـا سـيئًا فإنَّـهُ ينسـى كلَّ المواعـظ، وينقـر بيـده عليـه ويعـصي، **فـما ينبغـي لهـذه الدرجـة مـن السـقوط أن توقـف عـشرات الدرجـات مـن الصعـود.**

أعني: فما ينبغي لسيئةٍ من السِّيئات أن توقف زحفَ العشرات من الطاعات.

وفي نفـس التقريـر لهـذه الثقافـة يقـول الشـيخ **أحمـد سـالم**: مـا أُعلِمُـكَ إيَّـاهُ أن تصنـعَ لـك مسـارًا ثابتًـا للطاعـة لا يتأثـر بوقوعـك في الذنـب، واحـرص عـلى عـدم الاسترسـال في ذنـوبٍ أخـرى، حتـى لـو ابتليـت بذنـبٍ أصررت عليـه لا تطاوعـك نفسـك عـلى تركـه.. فـلا تنتقـل مـن خانـة الذنـب بغـير إصرار إلى خانـة الإصرار، ولا تنتقـل مـن خانـة الإذنـاب بـإصرار إلى خانـة الاسترسـال في الصغائـر، ثـم مـن ذلـك إلى خانـة الكبائـر، ثـم إلى خانـة الموبقـات، ثـم إلى خانـة مـن لا يبـالي أيَّ محـارم الله انتهـك، ويبقـى يتنقـل حتـى يُختـم لـه بالكفـر، **فالسياسـةُ أنَّـكَ تقـف بالخسـارة عنـد حدهـا الأدنـى مـع الحفـاظ عـلى مسـار الطاعـة ثابتًـا لا يتأثـر بمسـار المعصيـة**. ا.هـ.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٩١٣).
(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص (٥٨).

وأحب هنا التأكيد على أنَّ الصبرَ على غضِّ البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده، والتمادي في المعصية يجعل ألم الترك لها يزداد عند كل محطةٍ يقطعها، ولهذا قال **ابن القيم**: **الصبر على الشهوة أيسر من الصبر على ما توجبه الشهوة**[1]، ولهذا من غض بصره فقد أراح نفسه.

ومن أعظم صور العذاب النفسي أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا عن بعضه، ولا قدرة لك على نيله، ولك أن تتخيل أن شخصين دخلا السجن، ومُنع عنهما الطعام، ولكن وضع الطعام عند أحدهما مع منعه منه، فإنه سيكون أعظم ألمًا من الأول، ولهذا قال الشاعر:

وكنتَ متى أرسلت طَرْفَكَ رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر

رأيتَ الذي لا كلَّه أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا الذي نُنَظِّر له هنا نحتاجه أيضًا في المواطن التي يمكن أن تجتمع فيها المباحاتُ والمحرمات، فيقف عند المباحات ولا يتعداها، والله يقول: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وأذكر أنَّ بعضَ طلبةِ الطب في إحدى الجامعات في دولةٍ عربيةٍ ذكروا لي أنَّ جامعتهم مختلطة، وأنَّ الجامعةَ عندما تقوم بإرسال الطلاب والطالبات إلى المشافي التعليمية لممارسة الطب والتدرب عليه تجعلهم في مجموعاتٍ مختلطة، ولا يمكن تفلت الطالب من ذلك، فإذا تحتَّم الأمر عليه فالواجب على الشاب غض البصر قدر الإمكان، والوقوف عند حدود العلاقة دون تقدم.

أما من توسَّعَ في العلاقة مع الفتيات، وربما صافحهن وصادقهن وتبسَّط في محادثتهن ومراسلتهن والدراسة معهن دون الطلاب، وبرر ذلك أو بعضه بمسوغاتٍ سخيفة.. فهذا من المعصية المتأكدة، والإنسان يحتال على نفسه فكيف لا يحتال

(١) الفوائد لابن القيم ص (١٣٩).

على غيره؟!، وهو يعلم بوازع الله في قلبه حد الحلال من الحرام؛ فإنَّ اللهَ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم المفسد من المصلح، ويكفي المسلم زجرًا قول الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق:١].

وإنَّ الدخول في المنطقة التي تضعف سيطرته فيها على نفسه؛ كالمصافحة والمحادثة.. تجعله معذبًا نفسيًّا، وربما انحدر التزامه يومًا بعد يوم، وهبطت أخلاقه أسبوعًا بعد أسبوع، فكان الأخف عليه أن يقطع مادة الشر ويغض البصر، ويرحم نفسه من الدخول في ذلك المشوار المتعب أصلاً، ويُيَئس نفسه من ذلك، وكما قالت العرب: **اليأس إحدى الراحتين!**.

فإن توسع العبد، ولم يأخذ بمنهج الترك للمعصية أو التضييق لدائرتها.. توالت عليه رماح الشهوات، وسهام النظرات، حتى أوقعته جريحًا أو قتيلاً، قال **ابن القيم**: **ومن العجب أنَّ النظرةَ سهمٌ لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوأ مكانًا من قلب الناظر نفسه، فيؤذي صاحبه**، ثم أنشد قائلاً:

يا راميا بسهام اللَّحْظِ مجتهدا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

وباعث الطرف يرتاد الشفاء له ... احبس رسولك لا يأتيك بالعطب[1]

وفي ختام هذا المطلب أقص عليك قصةً لطيفة، آوت إليها العذاب النفسي الذي تكلمنا عنه، ثم الراحة بالقطع الذي نظَّرنا له، وأترك صاحب القصة بنفسه يتكلم عما جرى معه، وهو الشيخ الأديب صاحب القلم المبدع الشيخ **علي الطنطاوي** فيقول:

من أصعب ما مر بي من تجارب في مجال الدروس الخصوصية تجربة كنت ناسيها فما حدثتكم حديثها، هي أنه كان في «بوَّابة الصالحية» مؤسسة أهلية

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٠٦-١٠٧).

لأستاذ لبناني اسمه سليمان سعد، تدعى «الجامعة العربية»، سمع بأني أُحسن العربية، وأحتاج إلى المال، فعرض عليَّ أن أُلقِيَ عنده درسًا خاصًّا لطالبٍ واحدٍ بأجرٍ كان يعتبر كبيرًا جدًّا، فقبلت، وكانت المفاجأة الكبيرة يوم الدرس أن هذا الطالب جاء يحمل معه تاء التأنيث، لم يكن طالبًا ولكن طالبة شابة تتفجر شبابًا وتفيض حسنًا، تنشر حولها ساحة من الفتنة مثل الساحة المغناطيسية!.

لم أقدر أن أُمَكِّن نظري منها لأصف وجهها وعينيها، ولكنَّ اللحظة التي لقيت عيناي فيها عينيها كفت لتقول لي وأقول لها...!.

والخلاصة أني أُصِبتُ منها بمثل ما يصيب من يمسه السلك مشحونًا بتيار الكهرباء، ووقفت ألتقط أنفاسي وأرقب أن أفيق من دهشتي، يتقاذفني ميلٌ نفسيٌّ إلى تدريس هذه الفتاة مع حاجتي إلى الأجر الكبير الذي عُرض عليّ، وخوفي من الله الذي أسأله أن يبعدني عن طريق الحرام ومزلات الأقدام..

وترددت أن أقول: لا.. فأحرِمَ نفسي متعة الجمال والمال، أم أقول: نعم.. فأسلك سبيل الضلال؟

وتمنيت أن أقوى على الرفض فلم أستطعه، ومنعني ديني من أن أعلن القبول، وكانت هذه الخواطر تمر في نفسي مر الفِلم الذي يكر مسرعًا، وهما يرقبان الجواب، وهو يشجعني على القبول، فقلت: ولكني لا أستطيع أن أدرس هذه الآنسة وحدها -وقد نسيت أن أقول لكم: إنها كانت سافرةً يتهدَّل شعرها على كتفها وتبدو ذراعاها- قالا: ولِمه؟

قلت: لأنَّ ديني يحرم هذا علي، قالت: آتي بأخي معي يحضر الدرس، وليتها ما نطقت؛ فقد كان صوتها فتنة أخرى كامنة فيها، ومن الأصوات ما يفتن ولو نطقت صاحبته بالموعظة والتذكير!.

وحضر أخوها ودرَّستها، درَّستها أربع حصص أو خمسًا، الله أعلم كيف كنت فيها، وإن لم أدر (صدقوني) ما لون عينيها، فأنا كنت الخجلان لا هي، فكنت أتحاشى النظر إليها على رغبة مني فيما أتحاشاه!.

ثم رأيت أن استمرار الدرس مع غض البصر ولزوم الاحتشام ومع ما في النفس من الرغبة الطاغية نوعٌ من عذاب الدنيا، ونظري إليها ورفع الكلفة معها وتوثيق الصلة بها تعريضٌ لنفسي لما هو أشد منه من عذاب الآخرة، فتركت لها ما بقي من الأجرة معها، وهربت منها وقلبي عندها[1]!!.

(١) الذكريات لعلي الطنطاوي (٢/ ١٩٠-١٩٢).

المطلب السادس

تبهيت شهوات الدنيا بشهوات الدين

الشهوات لها وهج، ولا بد من تبهيته.

ويكفي في ذلك أن نعلم أنَّ الشهوات هي المنطقة التي تحف جهنم من عامة الجهات، فطريقها أوله لذة وهناء لكن آخره عذابٌ وشقاء، أما طريق الجنة فأوله شقاءٌ وعناء، لكن آخره نعيمٌ وهناء وأي هناء!.

فمن تخطى عقبةَ العناء انقلبت حياته نعيمًا وهو في دار الدنيا دار العمل، وأصبح يجد شهوته ولذته ومتعته في نفس الأعمال الصالحة التي تُفضِي إلى الجنة، وكأنها صُبغت بطرفٍ من نعيم الجنة نفسه، والأعداد الهائلة التي نجحت في تخطي تلك العقبة صرحت بفضل لذات الحسنات على لذات السيئات، وما عادت تُهزم أمام شهوات الأجساد ولو قويت، **فوجب أن نخمد الشهوات البدنية بالشهوات الدينية القلبية.**

وأمثلة هذا الباب يشق حصرها، وأكتفي بتسجيل بعضٍ منها، في أبواب التعبد والجهاد والعلم.

أما اللذة في التعبُّدُ؛ فيقفز إلى الذهن ذاك الركوع النبوي الذي يتكلم عنه **عوف بن مالك** ﷺ فيقول كما في رواية **النسائي**: «**فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»**[1]!!.

صححه الألباني.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٠٤٨)، واللفظ له.

الله أكبر! ركوعٌ يزيد عن ساعةٍ ونصف!.

أي لذة كانت تغمره وهو يستمتع بتكرير هذه الكلمات!.

إنَّ قريبًا من ذلك كان يمر به بعضُ الفضلاء من المعتكفين، ولهذا قلما اعتكف شابٌّ وترك الاعتكافَ بعد ذلك.

وأذكر أنَّ أحدهم أخبرني يومًا أنه يجد في نفسه ضيقًا عندما يصل التشهد؛ لمشقة الخروج من الصلاة لفرط اللذة التي يشعر بها، وآخر انفرد يصلي في جوف الليل، فلما جاء وقت السحور قبيل الفجر ناداه بعضهم، فانتهى من ركعتيه سريعًا ظنًّا أن هناك أمرًا، فتفاجأ بوصول الفجر وكان يظن الساعة الثانية ليلاً!.

وأما اللذةُ في الجهاد؛ فأكتفي بشهادة الفارس المجاهد الذي حضر مئات المشاهد، الشيخ **عبد الله عزام** ﷺ فإنه قال: كم أدعو الله ألا يحرمني الجهاد، وإني لا أُطِيقُ أن يمر بِمُخَيلتِي العود للحياة الناعمة من الإفطار إلى الغداء إلى العشاء ثم المنام، وكم أَجِدُ ضيقًا يفتك بِصَدري، بل تكاد تموت نفسي إذا غادرت ساحة القتال لزيارة الأهل ولقاء المحبين؛ فالجهاد لي كَالمَاء للسمك، فإن لم أجاهد أَمُتْ، لكني ألتقي بكم طمعًا في تجنيد بعضكم، فأنا كَصَيَّادِ السمك، وكلما تمنى علي حَبيبٌ إِطالةَ الزِّيارة قلت: لا أطيق فراقَ أرضِ الجنة وعُشَّاقِ الحُور[1]!.

وسَمِعتُ قريبًا من هذا المنطق من أحد المجاهدين عندنا، فإنه قال لي: والله ما ينفك عني الضيق إلا إذا دخلت موقع التدريب!.

وأما اللذة في العلم؛ فيكاد يُجمع كل من غاص في بحور العلم أنَّ للعلم شهوةً عارمةً في النفس، ولذةً تهيمن على الذهن، حتى قال بعضهم: إنِّي لأخشى ألا أؤجر على العلم؛ لأنه معدودٌ عندي في جملة الشهوات!.

---

(١) كلمات من النار للشيخ عبد الله عزام ص (٢٢٤).
وانظر الكلمة المرئية على الرابط : http://www.youtube.com/watch?v=iqvbvuIIZHM

والعجيب أنَّ جماعةً من العلماء **كالشيباني والماوردي وابن القيم** قد عدوا شهوة العلم شرطًا لِعَدِّ الرجل من أهل العلم، وقالوا ما معناه: لن تكون عالمًا حتى يصير شهوةً من شهواتك[1]، ولنأخذ نص **ابن القيم** مثلاً فإنه قال بأسلوبه الجذَّاب الذي يأخذ بالألباب:

ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه.. لم ينل درجة العلم أبدًا، فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في إدراكه رُجِيَ له أن يكون من جملة أهله، ولذةُ العلم لذةٌ عقليَّةٌ روحانيةٌ من جنس لذة الملائكة، ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان، ولذة الشرور والظلم والفساد في الأرض شيطانيةٌ يشارك صاحبها فيها إبليسَ وجنودَهُ[2].

وشهد **الشافعي** منتصرًا لهذا المعنى بقوله: جعلتُ لذَّتِي في هذا العلم وطلبه حتى رزقني الله منه ما رزق[3]، ولما سألَهُ تلميذُهُ **الربيعُ بن سليمان** [ت ٢٧٠ هـ]: كيف شهوتك للأدب؟ قال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه، فتود أعضائي أنَّ لها أسماعًا تتنعم به مثل ما تنعمت الآذان[4]!.

وانظر إلى كليم الله **موسى**؛ فقد اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، لكنه لما علم أن رجلاً بمجمع البحرين أعلم منه قال: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف:٦٠]، فلولا لذة الزيادة من العلم وحبه له.. لما تجشم عناء الوصول إلى الخضر ، ولو سلخ من عمره مئات السنين.

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٦).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٢).
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/ ٥٩).
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٣-١٤٤).

وهذا أحد الشعراء يقول:

لجلسةٌ مع أديبٍ في مناظرة ... أشفي بها الهم أو أستذهب التَّعبا
أشهي إليَّ من الدنيا وزخرفها ... وملئها فضة أو ملئها ذهبا

وبلغ الحال ببعضهم أن يصدح قائلاً: للكلمةُ الحسناءُ أشرف من الجارية العذراء، والمعنى المُقَوَّم أحب من المال المُكوم[1]!.

وأصرح من ذلك وأغرب ما قاله العلامة اللغوي الكبير **محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي** [١٣٢٢ هـ] ضمن قصيدةٍ تَخَطَّت حاجزَ المائتي بيت، ذكر فيها أنَّ لذةَ العلم طغت على سائر لذاته، بل أحالتها سمومًا مهلكة فقال:

ولما طعمت لذة العلم صيّرت ... سواها من اللذات عندي كالسم
ولما عشقت العلم عشق درايةٍ ... سلوت عن الأوطان والأهل والخِلْم
وأمعنتُ في إدراك ما رُمت نيلَه ... فأدركت ما أدركتُ بالصبر والحزم[2]

ومن لطيفِ ما ذكره الشيخ **محمد بن إدريس** بلبصير الضرير قال: عندما كنت طالبًا بجامع القرويين بفاس كان يسكن بالقرب من البيت الذي أقيم فيه مع الطلبة فقيهٌ له مكتبةٌ فوق السطوح يظل يقرأ فيها الليل كله يقرأ ويبحث ويتدبر ويستنبط، وكان إذا فتح الله عليه في مسألةٍ من المسائل يأخذ دفًّا كان يعلقه في حائط غرفته، ويبدأ في الضرب عليه بسعادةٍ وفرح، وكان الناس إذا سمعوا ضرب الدف يقولون: ها هو الشيخ قد فهم وفتح له[3]!.

(١) الهوامل والشوامل للتوحيدي ص (١١).
(٢) نقلًا عن ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (٢١).
(٣) نبضات قلم لربيع السملالي ص (٥٧).

ويدل على ما تسطر ما أخرج **الحاكم** في مستدركه عَنْ **أَنَسٍ** ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ»[1]. صححه الألباني.

ولا يَخفَى أنَّ إدراكَ هذه اللذة لا يكون بصلاة ركعتين خفيفتين في باب التعبد، ولا برباط ليلةٍ في باب الجهاد، ولا بقراءة كتابٍ أو كتابين في باب العلم، فلا بد من الانتماء للجانب الذي تريد التلذذ به، والتعمق فيه، والإقبال إليه، والدوام عليه، ومن ثَمَّ ينقلب قطعةً من نعيم، حتى لكأنك تعيش في روضةٍ خضراء، وحديقةٍ غَنَّاء، فلا يصدنك عن هذه الجنة التي أكرمنا الله بدخول طرفٍ منها تلك المكاره التي تحفها، وأسوار الجهل التي تحيط بها، ولعلك تنتفع بهذا الكلام النفيس القيم الذي جادت به قريحة **ابن القيم** فقال وأحسن القول:

إنَّ السعادةَ الحقيقيةَ النفسيَّةَ الروحيةَ القلبيةَ هي سعادة العلم، وهي الباقية على تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وبها يترقى في معارج الفضل ودرجات الكمال، ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة، وعظم قدرها.. لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجاب من المكاره، وحجبوا عنها بحجابٍ من الجهل؛ ليختص الله لها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم[2]!.

(١) المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث: (٢٨٦).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٠٨-١٠٩).

المطلب السابع

شراء الراحة بقرارٍ واحد

كثيرٌ من الشباب لا يفصله عن طموحاته إلا قرار، ولا ينقذه من أمواج الشهوات إلا قرار، وقد تجده في الواقع صاحبَ إدارةٍ وقرار، يتّبِعُ كثيرٌ من الناس قولَهُ، ويأتمرون بكلمته، إلا أنه لا يستطيع تطبيق قراراته الشخصية على نفسه!.

ولذلك فأكثر الناس استمتاعًا بالحياة، وتأثيرًا في الواقع أكثرهم ضبطًا للمشاعر، وتنظيمًا للقرارات التي تخصهم أنفسهم.

وقد شهد المطلبُ الفائت شهادةَ عدلٍ لا زور فيها قط أنَّ لذةَ العلم ولذة التعبد ولذة الجهاد لا تقل أبدًا عن لذة الشهوة؛ بشرط الانتماء إلى الجانب الذي تريد لذَّتَهُ أن تكون أصلاً في حياتك.

فماذا على الذي يعاني السيئات، ويقاسي الفتن والشهوات لو أخذ قرارًا أن يصبح طالب علم متقدمًا في الطلب، يدرس اللغة مثلاً أو الإدارة أو التاريخ أو الجغرافيا السياسية أو الشريعة؟!

أو قرر أن يكون عابدًا صاحب تهجد وحفظ للقرآن؟!

أو عزم أن يكون مجاهدًا يستشعر أنه يعادي الصهاينة أو المنافقين، ويصبح من الكوادر البشرية المركزية في البلد الذي يعيش فيه، تلك التي ستزهق الباطل وتشتت أهله؟!.

قال لي أحدُ الشباب يومًا: خطتي أن أكون أخطر رجلٍ على الصهاينة في فلسطين، وتقدم في خطته، وقام بأعمالٍ جهاديةٍ فاخرة، وقدر الله أن يُستشهد باستهداف صاروخيٍّ خاص لما أدرك الصهاينةُ عظيم خطره!.

وبتركيز الحديث حول الموضوع الذي نعالجه أقول:

إنَّ الكثرةَ من النَّاسِ لا يستبهم عليها الحلالُ من الحرام في باب الشهوات؛ فالحلال بيِّن والحرام بين، ولكنها تحتاج لقرارٍ جريءٍ بترك حضور المسلسلات والأفلام، وترك المصافحة للنساء ومراسلة الفتيات، وما أشبه ذلك.

فإن قرَّر القرار ولكنه تبعثر في الهواء فيمكن أن يخوض تجارب القرارات القاسية التي تقتلع أصل الداء من جذره الممتد في نفسه.

فإن كان لا يفصله عن الحرام إلا نقرة زر على جواله الحديث مثلاً فماذا لو قرر أن يترك جواله ويعود إلى جواله القديم «الكشَّاف»؟! بل ماذا لو قطع النت تمامًا عن بيته؟! أو على الأقل اعتمد جوالاً كشافًا قديمًا لنفسه، وترك النت في جوال مهجورٍ لا يراه إلا على قلة، أو أبقى النت في الحاسوب ليس إلا، وكان فيه من الزاهدين.

أعي تمامًا أنَّ هذا الأمر من الصعوبة النفسية بمكان، بعد أن أصبحت هذه الأجهزة وبرامجها جزءًا من الحياة الشخصية العملية، لكني مقتنع أيضًا أن جوالاً لا ينبغي أن يكون سببًا في هدم حياة إنسان عاقل، له إنجازات ولديه طموحات، وكلها تدفن بسبب جوال أو تلفاز أو انترنت، ومتقرر عند العقلاء قبل الفقهاء أنَّ درءَ المفاسد مقدم على جلب المصالح إذا تساوت أو كانت المفاسد أغلب!.

وحتى لو افترضنا السلامةَ من الإثم فهذه الشواغل الذهنية أصبحت صارفةً عن الطموحات الكبرى التي يحملها صدر الإنسان، وكم من طاقاتٍ تبددت، وأوقاتٍ أُهدِرَت، وشخصياتٍ انعقدت عليها الآمال ثم جرفتها سيول برامج التواصل الاجتماعي، وبقيت في أحسن الأحوال تشتغل بالمفضول عن الفاضل!.

وعلى صعيدي الشخصي كنت قبل ثلاث سنوات أعاني عدم القدرة على فطام النفس عن الدخول للفيس بوك، ويسرق من وقتي نحوًا من نصف ساعة يوميًّا على الأقل، وكلما عزمت على تقليل المدة أو عدم فتحه أصلاً فشلت..

وفي تلك الأيام قدَّر الله أنَّ بعضَ المسائل الفقهية بَقِيَت محلَّ إشكالٍ عندي، ولم أجد حلها في الكتب التي أعتاد النظر فيها، فبحثت في «جوجل» للتحصل على الجواب بسرعةٍ كالعادة فلم أجده، فأفردت يومًا لبحثها في مكتبتي، ومكثت ساعاتٍ طويلةً أتنقل بين رياض الكتب المطولة، فحصل لي من اللذة البحثية لانهمار الفوائد العلمية ما ذكَّرَني بسابقِ العهد قبل سطوة الانترنت على عقول طلبة العلم، ورأيت أنَّ الوصولَ السريعَ المختصرَ إلى الجواب عبر الشبكة يحرمك من عشراتِ الفوائد المعرفية المهمة، فقررت فصل الانترنت عن البيت، ولم أعده إلا بعد نحو سنة لما سافرت لإكمال الدراسة العلمية، وخصَّصت إذ ذاك يومين أسبوعيًّا للتواصل الشبكي مع الأهل، ولم أجعل عليه البرامج المُشغلة كالفيس بوك وتويتر، ولا تسألني عن البركة التي وجدتها في الوقت بعد ذلك.

ومن أكثر الأخبار فاعليةً في غرس ثقافة القرارات الجريئة تلك القصة التي تُذكر عن مالك بن دينار والتين، وهاك سردها:

دخل **مالك بن دينار** السوق يومًا فرأى رجلاً يبيع التين، فاشتهاه، فقال للبائع: أتداينني بكذا وآتيك بالثمن في الغد؟ فقال: لا. فقال: لو رهنت عندك حذائي أتقبل؟! قال: لا، فمشى ولم يتكلم.

فتنكد بعض الحاضرين وعاتبوا البائع وأخبروه أن الذي طلب منه ذلك هو الإمام العابد الزاهد **مالك بن دينار!**.

فأراد البائع أن يستدرك الأمر سريعًا فقال لعبده: الْحَقْ بذاك الرجل، واعرض عليه عربة التين كلها، فإن قبلها منك فأنت حرٌّ لوجه الله!.

فطار العبد فرحًا، وحث الخطى يسعى، والحرية تتخايل بين ناظريه، ووصل سريعًا إليه، وقال: يا إمام؛ إن سيدي البائع يهديك عربة التين كلها!

فقال له: قل لسيدك: **إن مالكَ بنَ دينارٍ لا يَشْتَرِي التينَ بالدِّين**، وقل له أيضًا: **إن مالك بن دينار قد حَرَّمَ على نفسه أكلَ التِّين إلَى يَومِ الدِّين**!.

أدرك **مالك بن دينار** أنَّ الرجلَ سيعطيه التين لمقامه الديني المنتشر بين الناس، فيكون قد دخل للدنيا من بوابة الدين، فأراد سد الثغرة التي دُهِم منها.

لكن العبد لم يدرك الرسالة بعد، فقال: **خذه يا إمام؛ فإن في أخذك عتقي**! فرد عليه: **إن كان فيه عتقك فإن فيه رِقِّي**!.

بالله عليك؛ هل رأيت فقهًا أعمق أو أدق أو أجود من ذلك!.

لن نختلف أنَّ صنيعَهُ عزيمةٌ شخصيةٌ ليس من شرطٍ أن تطَّرد كالقانون بين الناس.

لكن يكفي أن تبقى أنموذجًا مستحبًّا لكل من أراد أن يقطع تأثيرَ الشَّهَواتِ على مسيرة حياته بقرارٍ جريء، وأنموذجًا كذلك لكل عالمٍ وطالب علم في الاحتراس من استفادة الدنيا وحظوظها عبر مدخلٍ ديني، وهذا الموضوع حقُّهُ التحليل والبسط، وهو من أخطر المفاهيم التي بات إدراكها واجبًا على المشتغلين بالعلم والدعوة؛ لكثرة المتعثرين في شباكه اليوم، ولعل الله ييسر معالجته وبيان فقهه وحدوده في مؤلَّفٍ يناسبه.

والمقصود من هذا المطلب أنَّ من كان يُعَانِي الشَّهَوات، والنظر للفتيات في الجامعة أو السوق أو عبر الشاشات ما أحوجه إلى الاتجاه ناحية القرارات التي تحل المشكلة جزئيًّا أو كليًّا؛ كأن يقرر شغل وقته بالدخول في تخصصٍ علميٍّ يستحوذ على تفكيره، أو يبحث عن وظيفةٍ تسيطر على وقته، أو يقرر الزواج، أو يعزم على التعفف حتى يغنيه الله من فضله، فهذه هي البطولةُ والرجولةُ والشجاعةُ التي قال عنها الشاعر:

ليس الشجاع الذي يحمي مطيته ... يوم النزال ونار الحرب تشتعل
لكنْ فتىً غَضَّ طرفًا أو ثنى بصرًا ... عن الحرام فَذَاكَ الفارس البطل

مع التنبيه المهم أنَّ الفترةَ التي تعقب القرار تتضمن عناءً نفسيًّا عادةً قد يمتد لأيامٍ أو أسابيع، كثمنٍ يدفع مقابل التعود على ما تحولت إليه، ومهمٌّ كذلك ألا تزيد عن قرارٍ أو اثنين، وأن يكون في حدِّ الإمكان، وأنك إن رسبت في التنفيذ فيمكن أن تعيد الكرة حتى تفلح، واستعن على ذلك بالإلحاح على الله أن يعطيك ويكرمك، فالله إذا أعطى أدهش بعطائه، وعسى أن نرى منك قراراتٍ جريئةً نافعةً بتوفيق الله لك، فيها صلاح دينك ودنياك.

المطلب الثامن

الخطة الإدارية المكثفة

سألتُ أحدَ كبارِ رجال الأمن عن أكثر الأسباب تأثيرًا في اختلالِ التزامِ الشباب، وإصابتهم بأمراض الشهوات، من خلال جلوسه معهم، فقال لي بدون تلعثم: وقت الفراغ!.

ورغم أنَّه جوابٌ متوقع إلا أنَّ استفادته من الفئةِ التي انهارت طموحاتها أمام امتحان الشهوات يجعل العناية به أمرًا من محاسن الوجبة المقدَّمة في العلاج.

وكان يقترح أن يملأ الشابُّ وقتَهُ بالدراسة والرياضة، مع اجتهاده في فطم نفسه عن الشهوات، وتقليل فرصة الخلوة التي تستيقظ فيها الشهوة.

وبشكل عملي لا بد أن تقوم هذه الجرعة من العلاج على أن يكتب الشابُّ **خطةَ عملٍ مكثفة**، تسيطر على فكره، وتهيمن على عقله، ويكون هامش التفلت فيها محدودًا.

وتتوزع الخطة على خمسة محاور: الأول: الإيماني والتربوي والخُلُقي، والثاني: العلمي والمعرفي، والثالث: الدعوي، والرابع: الاجتماعي، ويدخل فيه الوظيفة والبيت والزواج، والخامس: الشخصي، ويدخل فيه الجانب الترفيهي والرياضي والصحي، وجانب المهارات المختلفة؛ كتعلم مهارة السباحة والخط وقيادة السيارات وغير ذلك.

ويجعل الخطة سنويةً على الأقل، فإن شقَّ عليه ذلك فلتكن شهرية، وحبذا لو جرت على قواعد التخطيط كما ينص عليها المختصون في الإدارة، وهذا الأمر قد

بسطته مفصلاً في كتاب: «**فقه الاستدراك**»[1]، يسر الله نشره قريبًا.

ويمكن الاستعانة بدورات التخطيط التي تملأ الانترنت، وكذا قراءة كتاب: «**الخطة البرّاقة لذي النفس التواقة**»، للدكتور صلاح الخالدي، وهو منشورٌ على الانترنت، وقد نفع الله به كثيرًا من الشباب الطموح.

فإذا سلك الشاب هذا السبيل؛ فإنَّ المتوقعَ ألا يتبقى معه كثيرُ وقتٍ للهو، فإن وقع في الإثم كان سقوطه قليلاً، ونهوضه منه سريعًا.

ومن علائم التوفيق الإلهي للشاب في هذه المرحلة أن تتضمن خطتُه مشروعاتٍ ذاتَ قيمة؛ كما لو اهتم بدراسة علمٍ ما، سواء كان منسجمًا مع تخصصه الجامعي أو لا، كما لو درس علم التاريخ أو الإدارة أو السيرة أو الدراسات الإسلامية، وكذلك يتعلم التلاوة وأحكام التجويد، ويشرع في حفظ بعض أجزاء القرآن الكريم؛ كسور المُفَصَّل، من سورة الحجرات إلى سورة الناس.

وكلما كان الوقت مشحونًا بالأعمال كانت الإنجازات سببًا مهمًّا في راحة نفسية الشاب، ودافعة له لاستحداث المزيد من الأعمال الصالحة المشروعة التي لم يكن يعملها، ويخف ضغط السيئات عليه يومًا بعد يوم.

ويصبح الإنجاز شيئًا أساسيًّا في يومه مهما كان مشغولاً.

وأذكر أني التقيت بأحد القيادات التي يغلب على الظن انشغالها البالغ، ففاجأني أنه أتمَّ حفظ القرآن الكريم خلال سنة ونصف، بتحديد ساعة ونصف فجر كل يوم حيث لا يحتاجه أحدٌ من الناس في هذا الوقت!.

(١) وهو كتاب يتكلم عن فقه استدراك ما مضى من العمر، وكيفية تصحيح المسير، وتعويض ما فات في الزمن الطويل في زمن قصير، حتى لكأنَّ صاحبه استثمر حياته مبكرًا.

وجالست طبيبًا أخبرني أنه اقتطع وقتًا مهمًّا لحفظ القرآن، بجوار دوامه في المستشفى والعيادة الخاصة، وأنه أكمل قرابة العشرين جزءًا بفضل الله، وخطته أنه يحفظ ثلاثة أجزاء في كل سنة، ويبقى يكررها حتى لا تتفلت.

وشخصٌ ثالثٌ يدرس الطب أخبرني أنه يخصص خمس ساعات في اليوم لدراسة الطب، ويجعل بجوارها ساعة لورده من القرآن تلاوةً وحفظًا، وساعة للتفسير، وساعتين لقراءة نحو من خمسين صفحة في الثقافة الإسلامية والفكرية، وقد قرأ أكثر من مائة كتاب بهذه الطريقة التي ما زال ملتزمًا بها من سنوات!.

إن استحضار هذه الإنجازات لمن كان مشغولاً تجعل الإنسان يشعر بالأسى على نفسه المُقَصِّرَةِ أولاً، ثم على الشاب الذي يمشي بدون بوصلة ولا هدف ولا خطة، فتجده يسهر حيث ينبغي أن ينام، وينام حيث ينبغي أن يستيقظ، وقد يكون متورطًا بترك الصلاة التي هي رأس العبادات في دين الله جل وعلا.

والحقيقة التي لا مناص من التصريح بها أنَّ **كل شاب لا يستطيع حل مشكلاته الخاصة يتحول هو إلى مشكلةٍ اجتماعية** كما يقول الدكتور **عبد الكريم بكار**.

وهناك ملحظ لطيف أشير إليه في الختام؛ وهو أن الذي يمشي وفق خطة مدروسة تجده يفعل أكثر من ٧٠ ٪ من الخطة، ويبقى مهمومًا على فوات النسبة المتبقية، بينما الذي يمشي من غير خطة تجده يفعل نحوًا من ٣٠ ٪، ويكون في غاية الفرح!.

والمقصودُ من هذه الجرعة أن يُهرع الشابُّ إلى تسيير حياته وَفق خطةٍ إداريةٍ يكتبها بنفسه، وبعفوية، ويجتهد في تطبيقها حتى تُسَيطر على وقته وفِكْرِه، ويصل بها حد الكلل بما لا يمنحه مجالاً للتفلت والضياع، وإن لم يفعل ذلك فإنه سيبقى غالبًا جزءًا من مشاكل المجتمع، وربما رضي بحياة الكسل، وترك العمل، وكثرة الجدل، وأصبح مع الأيام قليل الحيلة، مزعجًا لأهله، مرهقًا لإخوانه، فهيا تقدم -أخي الشاب- ولا تتكاسل، واقصد فضل الله، وإنَّ اللهَ إذا أعطى أدهش! والله ذو الفضل العظيم.

المبحث الثالث

حراسة الذات من ذنوب الشهوات

معلومٌ أنَّ درهمَ وقايةٍ خيرٌ من قنطارِ علاج، وعليه؛ فدفعُ النَّفسِ عن الوقوعِ في المعصية أسهلُ من فعلها ثم التَّعَنِّي في رفعها من القلب والسلوك، ولذلك قالوا: الدفع مقدمٌ على الرفع.

وذلك أنَّ الإنسانَ قويٌّ في بعده عن المعصية، والشيطان ضعيفٌ أن يوقعه فيها، ما لم تخطُ الخطوةَ الأولى، فإن خطوتها صرت أضعف وصار أقوى؛ إذ إنَّ ألمَ الوقاية والترك أهونُ من ألم العلاج والرفع، ولذلك قال عمر: **إنَّ تركَ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة**[1].

ومَنطِقُ الوقايةِ والاحتراس من الوقوع في الذنب أصلاً معتمدٌ عند كثيرٍ من أصحاب العزائم في السلف والخلف، ونكتفي بمثالٍ لرجلٍ من السلف، وآخر من الخلف، في التعامل مع داءٍ واحدٍ وهو الغيبة؛ لنطلع على منهج التفكير في دفع هذا الذنب.

---

(١) نثر الدر للآبي (١/ ١١٧).

أما المثالُ الأول: فعن **ابن عياش** قال: كنت جالسًا مع **وهب بن منبه**، فجاءنا رجلٌ فقال: إني مررت بفلانٍ وهو يشتمك، فغضب وهبٌ وقال: أما وجد الشيطان رسولاً غيرك؟! -يعني أما وجد الشيطان الذي يريد أن يفسد العلاقة بين الناس أن يجد شخصًا يُحَمِّلُهُ ذلك غيرك؟!- قال: فما برحنا من عنده حتى جاء ذلك الرجل الشاتم، فسلَّم على وهبٍ فرد عليه السلام وصافحه، وأخذ بيده وضحك في وجهه، وأجلسه إلى جنبه[1]!.

وأما الآخر: فهو للإمام المفسر **محمد الأمين الشنقيطي** صاحب الكتاب النفيس الرائع «**أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن**»، يحكي حادثةً حصلت معه فيقول: مررتُ يومًا فِي رحلةِ الحجِّ بقريةٍ نائيةٍ، فالتمست وإخواني أَعرابيًّا نَبِيتُ عنده، فَأَنْزَلَنَا مَنْزِلاً يَعْوِي منهُ الكلبُ، وأَغلقَ علينا بَابَ البَيت، وكان البرد شديدًا، ولم يأت لنا الرجل بما نتغطى أو نستدفئ به، فَبِتْنا ليلةً في خوفٍ وبردٍ لا أعادَ اللهُ علينا مثلَهَا، حتى كان صُبحُهَا أحبَّ غائبٍ إلينا، ووالله الذي لا إله إلا هو ما سألتُ عن اسمه ولا اسم أبيه؛ خشيةً مِنَ الوُقُوعِ فِيهِ!.

(١) تهذيب الكمال للمزي (٣١/ ١٤٩)، حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٧١).

والشيخ **محمد الأمين** هو صاحب الكلمة التي تُعَدُّ من مفاخرِ الأقوال التربوية: **وَاللهِ لَقتل أولَادِي ونهب أَمْوَالِي أَهون عِندِي مِنَ الغيبةِ التي تأكلُ حَسَنَاتِي بعد أن أَتْعَبَت رَجُلاً كَبِيرًا مِثْلِي!**.

وبعد الذي قرأت عيناك ووعاه فؤادك ناشدتك الله؛ هل تتوقع أن يقع وهب بن منبه أو الشيخ محمد الأمين في الغيبة؟! إن الأمر أقربُ إلى المحال؛ لأن سياستهم التربوية قائمةٌ على قطع أسباب المعصية نفسها.

وهذا المنطق هو الذي يقوم عليه علاجُ الشهوات في الشريعة، فربنا جل وعلا لم يحرم الزنا فحسب؛ بل حرم معه المقدمات التي قد تفضي إليه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢]، فلم يقل: ولا تزنوا، بل حرم الاقتراب الذي يشمل حظر المقدمات.

وهذا المعنى نشعر به أيضًا في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠] فحرَّمَ النظر الذي هو سببٌ للوقوع في الفاحشة؛ قطعًا لطريق المعاناة؛ لأنَّ النظرَ بوابةُ الدخولِ للمنطقة التي تضعف فيها السيطرة، والتي نجد فيها التبسط في الكلام مع الفتيات، ومحادثتهن، ومصافحتهن، والخلوة بهن، ثم الوصول للمَسِّ والتقبيل حتى تُوصِلَ السلسلةُ الآثمة إلى درك الفاحشة الكبرى والعياذ بالله تعالى، ومن توحَّلَت قدماه في هذه المنطقة تعنَّى في الخروج منها، فأراد الله أن يحفظ

مشاعرَك، ويريحك من شدة العناء بالتحريم المطلق لأول محطةٍ تُسلك في هذا الطريق، وهي النظر؛ إذ من نظر إلى النساء لم يصبر كما قال **طاووس**، وربما أدَّاه ذلك إلى الاستمناء، وربما ما هو فوق ذلك.

وفي هذا المبحث -الذي أسهبت في مقدمته لأهمية التنظير لفكرة الحراسة- ذكرٌ لطائفةٍ من العوامل التي يتحقق بها مفهوم الحراسة من الوقوع في الذنب.

وأنبه أنَّ هذه العوامل أكثرها قناعات شعورية تعين على المقصود، ثم إنها أقرب إلى الترهيب منها إلى الترغيب؛ لأننا نتكلم عن اللحظات التي تسبق المعصية، أما إذا وقع الذنب فلا بد أن يُفتح باب الرجاء والترغيب؛ لئلا ييأس الإنسان من روح الله أو يقنط من رحمته، فيحصل بذلك التوازن المطلوب.

ودونك الآن تبيان ذلك في عشرة مطالب:

المطلب الأول

سياج الحماية

وأعني بهذا السياج الأمني البيئةَ العاصمةَ من التَّمَادِي في الذنوب، فتقللها إلى آخر حد، وهي تتكون من البيتِ المحافظ، والصَّديقِ الصالح، والمسجد الحاضن، والالتزام بالأنشطة الجماعية؛ من مثل الدورات العلمية والدروس المنهجية وحلقات التحفيظ، وأعباء الجهاد في سبيل الله.

واعلم أنَّ **التربيةَ الإيمانيةَ مسئوليةٌ فردية**؛ فقد لا تجد بيتًا محافظًا، ولا صديقًا صالحًا، ولا مسجدًا فعالاً شبابُهُ؛ فما العمل؟.

ابتداءً لا بد من شحن وقتك بالأوراد المكثفة؛ فتقرر الدراسة التخصصية، حتى لو كنت قد أنهيت تخصصًا فلتبدأ في آخر، أو لتكمل في نفس الاتجاه، فطلب العلم حافظٌ من الضياع، فتوزع وقتك على الدراسة الأكاديمية، والقراءة الفردية في كتب الفقه والعقيدة والتفسير والحديث والسيرة والفكر والثقافة والإدارة وغير ذلك، وتضع خُطَّةً لكل ذلك[1]، وتسمع كذلك لبعض الشخصيات المؤثرة في التربية الوعظية؛ كالشيخ **محمد بن محمد المختار الشنقيطي**، وغيره من أهل الفضل والدعوة.

(١) هناك خطة متكاملة كتبتها لمن رام طلب العلم الشرعي، بعنوان: «**المعراج العلمي المقترح لطلب العلوم الشرعية**»، وهي منشورةٌ على قناتي التليغرام، والقناة باسم: «محمد بن محمد الأسطل»، «@malastal».

وتشرع في حفظ أجزاء من القرآن الكريم، وحسنٌ لو التحقت بحلقة تحفيظ حتى لو كنت متقدمًا في السن، وكلما أذنبتَ عاتبت نفسك به وقلت: ألست بالذي يحفظ؟ فحالك تربيةٌ لك، ولهذا من الكلمات الرائعة لفضيلة شيخنا الشهيد **نزار ريان** ﷺ أنه قال باللغة العامية: «ربِّ دَقنك بِتْرَبِّيك»!؛ أي: أعف لحيتك وهي تتولى تربيَتَك![1].

إذن؛ فالأوراد المكثفة حلٌّ حسن، وإن كنت أنصح بالبحث عن حلولٍ جزئيةٍ لكل ركن من أركان السياج الأمني؛ فمثلاً:

إذا لم يكن المسجد القريب منك فعالاً فيمكن أن تقصد مسجدًا أبعد، ولو أن تصلي فيه بعض الصلوات، وتتابع بعض الأنشطة العلمية والدعوية فيه، وماذا عليك لو غبَّرت قدميك في سبيل الله! وماذا عليك لو استثمرت وقت المشي في أوراد المراجعة والتسبيح!.

وإذا لم تجد صديقًا صالحًا قريبًا فابحث عنه ولو كان بعيدًا؛ فإنَّ الصاحبَ الصالحَ محطةٌ تستحق البحث عنها جيدًا، فإن سقطت في حُفَر الغفلة هُرع لنجدتك وإغاثتك.

وإياك أن تصاحب فاسقًا؛ فإنَّ من خان أول منعمٍ عليه لا يفي لك غالبًا[2]!.

أمَّا إن سألتني عَن صِفَات الصَدِيقِ وسِمَاتِه؛ فَأُهْدِيكَهَا في آيةٍ ما أَحْلاها ومَا أَبْهَاهَا؛ بل هي والله عندي من أجمع النصائح وأزكاها، قال الله ﷻ:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، فإياك أن تصاحب فاسدًا غافلاً متبعًا للهوى، أو فاشلاً انفرطت أموره، بل صَاحِبِ الصالحَ الخلوق كثير الإنجاز.

---

(١) يقصد بذلك أن إطلاق اللحية من مظاهر التدين، وحالئذٍ فإن صاحبها يستحي أن يرتكب المعصية حتى لا يسقط من أعين الناس، فضلاً عما تورثه اللحية في الغالب من حالة الخشية من مخالفة الأوامر بعد أن اتسم صاحبها بالديانة والتعبد.

(٢) المدهش لابن الجوزي ص (٤٢٦).

فإن قلت: إنَّ إخوان الصدق عملةٌ نادرة.. قلت لك: إنَّ أرضَ الله لم تَخلُ من صالحٍ صاحب أدبٍ وخُلُقٍ وتعبد، وإن لم تجد أخًا كاملاً كالذي تريد.. فخذ من كل صديقٍ أحسن ما فيه؛ فلو أخذت عبادتك وتُقَاك من فلان، وعِلْمكَ من علان، وهيئتك ولباسك من جارك، وأدبك وأخلاقك من زميلك.. لَكُنْتَ قد أحسنت صنعًا.

فإن مرَّت بك الأيام تطوى، وتكرَّرتِ الشكوى، فإليك نصيحةً حُسنى:

لا يُبَطِّئَنَّكَ عن مَسلك الغُرباء المهتدين قِلَّةُ السالكين؛ فَإِنَّ النَّاجين قِلَّة، والغُرباء قِلَّةُ القِلَّة، فاسلك سبيل الحق، وطريق العفة والخُلُق، ولا تستوحش من قلة أهلها، والرجاء فيك ما صحَّ منك العزم أن تصل بصلاحك إلى أن تكون أنت قدوةً صالحةً لغيرك، فتصبح صالحًا مصلحًا، تهزم الشيطان وجنده، وكم رأينا من كان مضطرب الحال، ثم أصبح محلًّا لفضل الله وكرمه وتوفيقه، وإنَّ اللهَ إذا أعطى أدهش.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة:٦] بعد قوله تعالى على لسانهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥]؛ أي: لا تجعلنا سبب فتنة للذين كفروا؛ بأن يروا ضعفنا، أو قلة التزامنا، فيُزهدهم هذا في اتباع ديننا، فلما استجاب الله لهم صاروا أسوةً حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

المطلب الثاني

السيئة المهلكة

وَرَدَ عن **جعفرِ الصَّادق** أنَّه قال: **إنَّ الله أخفى رضاه في طاعته، فلا تحتقرنَّ من الطاعة شيئًا؛ لعل رضاه فيه، وأخفى سخَطَهُ في معصيته، فلا تحتقرن من المعصية شيئًا؛ لعل غضبه فيه، وأخفى أولياءه بين عباده، فلا تحتقرن من العباد أحدًا؛ لعله وليُّ الله تعالى**[1].

والجزءُ الذي نحتاجُهُ هو الثَّانِي، لكن يحسن أن أُمَثِّلَ للأوَّل والثالث تتميمًا للموضوع، ثم نتفرغ للكلام على الثاني بعونه تعالى.

أما الأول فيعني أنَّ الإنسان وإن تعبَّد كثيرًا إلا أنه يجهل العبادة التي يحل عليه بها رضوان الله، وهذا يجعله ينشط لأداء المزيد من الطاعات؛ فلعل الطاعة التي يدخل بها الجنة أو ترفعه فيها لم يعملها بعد.

ومن شواهد ذلك:

ما أخرج الشيخان عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوكٍ عَلَى الطريقِ فأخَّرَه فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»**[2].

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٤٧).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٥٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٥٠٤٩).

وهذا المؤمنُ الذي ورد خبرُهُ في سورة يس، تَكَلَّمَ بجُملٍ يسيرة في الدعوة إلى الله ونصرة رسله، فقتل سريعًا، فقال الله ﷻ عنه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦، ٢٧]، فانظر عظيم فضل الله عليه بعد الذي قال، وربما يتكلم الداعية بالخير ولما ينطق بعدُ بما يجعله مقبولاً عند ربه.

ويغبط بعض العلماء **رجاء بن حيوة** الذي اقترح على **سليمان بن عبد الملك** أن يولي **عمر بن عبد العزيز** خليفةً للمسلمين من بعده[1]، وشاء الله أن يقيم **عمر** حضارة إسلامية ما زال الناس يتغنون بها إلى اليوم، رغم أنه لم يدم في الخلافة إلا حولين، قالوا: فكل ما عمله **عمر** فهو في ميزان حسنات رجاء!.

لكن غبطتهم **لمصعب بن عمير** ﷺ أشد؛ فإنه لما سافر للمدينة سفيرًا للإسلام جالس **سعد بن معاذ** ﷺ، وتلا عليه القرآن، وكلمه بجملٍ قليلة يعرض عليه الإسلام، فأسلم، وقدَّر الله ألا تبقى دارٌ في المدينة إلا وفيها رجالٌ مسلمون ونساء مسلمات، وذلك بعد إسلام **سعد**[2]، ولحكمةٍ أرادها الله انطلقت دولة الإسلام في أرجاء الأرض من المدينة وإن انطلقت الرسالة من مكة، ولذلك عقَّب بعض العلماء بقوله: فالناس وذراريهم ومن أسلم على أيديهم في ميزان **سعد** ﷺ، **وسعد** وكل هؤلاء في ميزان **مصعب**، ولو لم يتكلم **مصعب** إلا بتلك الكلمات التي تحدث فيها مع **سعد** ربما لكفته عند الله!.

وأمَّا الجُزءُ الثالث فيعني أنَّ الإنسانَ قد يحتقر واحدًا من الناس، ويكون صالحًا وليًّا لله تعالى، وأكتفي في التمثيل لذلك بخبر **أويس القرني** من قبيلة قرن

---

(١) عمر بن عبد العزيز لعلي الصلابي (٣/ ٢٦٢).

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٨٤)، والروض الأنف للسهيلي (٤/ ٦٤).

باليمن، فإنه كان في غَمْرِ الناس، ولم يكن بمحلِّ التقديرِ منهم، لكن النبيَّ ﷺ قال فيه: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»[1]!!.

وذكر **الذهبي** أنَّ أصحابَ **أويس القرني** كانوا يسخرون منه ويؤذونه، وكان له ابن عم يحتقره، حتى إنَّ **عمرَ** رضي الله عنه لما سأل عنه كان ابن عمه في وفد أهل اليمن فقال: يا أمير المؤمنين، هو ابن عمي، وهو رجلٌ فاسدٌ لم يبلغ أن تعرفه أنت، فأنكر **عمر** عليه ذلك، وأخبر الناس بفضله وقول النبي ﷺ فيه، ثم التقى به **عمر** رضي الله عنه بعد ذلك، وكان من أخباره ما كان[2]!.

فانظر كيف يُعامل في الأرض وما وجاهته في السَّماء!.

ولك أن تتخيل أنك تَسُبُّ أحدًا أو تهين أخًا أو قريبًا أو صديقًا ويكون هو بالمنزل العظيم عند الله تعالى، أنت تؤذيه في الأرض وهو معدودٌ في أهل الفردوس في السَّماء!.

وهذه -وربي- موعظة كافية كفيلة بأن تربي وتؤدب الواقع في ذلك.

والآن نعود إلى الجُزءِ الثَّانِي من الكلمة، وهو الذي نحتاجه هنا، والمعنى: إذا كان سخط الله غير معلومٍ لنا في أيِّ معصيةٍ هو؛ فإنَّ الإنسانَ يخشى أن يكون الذنبُ الذي تلبس به هو الذي حلَّ سخط الله عليه فيه، فلا يفلح بعده، فإذا استشعر الناظر للحرام هذا الشعور أعانه ذلك على الصبر عن معصيةِ الله اتقاءً لسخطه ومقته.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٦٥٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢٣-٢٤). وهناك تفاصيل كثيرة هنا يمكن أن يطلع عليها من أحب أن يبسط له في علمه.

ومن شواهد المسألة:

ما جاء في الصحيحين عن **ابن عمر** رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ[1] الْأَرْضِ»[2].

ففي الحديث تفخيمُ الذَّنبِ وإن كان صغيرًا[3]، وذهب **النووي** إلى أنَّ هذه المعصيةَ ليست صغيرة؛ بل صارت بإصرارها كبيرة[4]، وليس في الحديث أنها تُخَلَّد في النار[5]، وهذا الحديث ورد بهذه الشدة؛ لئلا يتكل أحد، ولا بد أن تُستحضر أحاديث الترغيب بجواره؛ لئلا ييأس أحد أو يقنط، فيحصل بهذا التوازن المطلوب.

---

(١) الخشاش: هوام الأرض وحشراتها واحدِهُ: خشاشة.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٣١٨)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٥٩٨٩). واللفظ للبخاري.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري (٦/ ٢٠١).

(٤) اختلف العلماء هل تنقلب الصغيرة إلى كبيرة بالتكرار؟ كلام النووي هنا ترجيحٌ للقول بذلك، وهنا قول آخر مفاده أن الصغيرة لا تنقلب كبيرة بحال، ولا تُخرج الكبيرةُ من المِلَّةِ إلا بالاستحلال.
ومن ذهب إلى الأول الإمام الغزالي؛ فإنه عقد فصلاً في كتابه «إحياء علوم الدين» بعنوان: «بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب»، وذكر أن الصغيرة تكبر بأسباب وذكر منها: الإصرار والمواظبة، ولهذا قيل: «لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار»، فكبيرة واحدةٌ تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تُصور ذلك لكان العفو عنها أرجى من صغيرةٍ يواظب العبد عليها، ومثال ذلك: مثال قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صُبَّ عليه دفعة واحدة.. لم يؤثر، إلا إن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر؛ فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودةٍ ومقدمات، وقلما يقتل القاتل بغتةً من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة.
وذكر أسبابًا أخرى أهمها: استصغار الذنب، والسرور بالصغيرة، والتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، وأن يجهر به، ويظهره؛ لما فيه من جناية على ستر الله الذي أسدله عليه، وغير ذلك مما ذكره وفصَّل فيه، فلينظره من أحب أن يبسط له في علمه في المجلد السابع ص (١٠٩-١١٦).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٤٠).

وعند **البخاري** في الأدب المفرد عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قيل للنبي: يا رسول الله، إِنَّ فُلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ وتَصُومُ النَّهَارَ، وتفعل وتصدق، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، فقال رسول الله: **«لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**[1]. صحَّحَهُ الألباني.

وجاء في سورة الأعراف: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]، إلى أن قال ربنا: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦]، فهم هنا احتالوا في أمرٍ حرامٍ، وجعلوه في صورة مباح، فعاقبهم الله بأن جعلهم على هيئة القرود التي تشبه الإنسان وليست بإنسان.

ولو سرَّحت نواظر التأمل لوجدت أنهم لم يزيدوا في نظر الرائي على الاحتيال لأكلة سمك، وربَّما لو طرحت سؤالاً بين مجموعة من طلبة العلم: أيهما أشنع: الاحتيال على أمر شرعي لصالح أكلة سمك أم قتل إنسان بريء.. لرجح كثيرٌ منهم فظاعة القتل، لكن السياق يخالف ما يقع في الظنون، ويشير إلى أنَّ غضبَ الله حلَّ عليهم عند هذا الذنب، حتى جعلهم قردةً ذليلين حقيرين، ولا يخفى ما في ذلك من تشنيع الاحتيال على أمر الله وحكمه.

والمقصود: أنَّ الإنسانَ إذا شعر بضغط الشهوة عليه، وعزم على المعصية فينبغي أن يستحضر هذا الشعور، وأن غضب الله قد يحل عليه؛ لئلا يستهتر بالمعصيةِ أو يستخف بها.

لكن لو أذنب حقًّا فما ينبغي أن يقنط من رحمة الله، فيغلب ساعتئذٍ جانب

---

(١) الأدب المفرد للبخاري، رقم الحديث: (١١٩).

الطمع في رحمة الله ومغفرته وعفوه؛ لينشط في الاستغفار والتوبة وعمل الحسنات الماحية، ليستقيم جناحا الخوف والرجاء بذلك التوازن الحسن.

ولذلك ينصحون في دروس التزكية أن يجعل الإنسان ميزانه في النظر إلى الأشياء ميزان ذهب؛ إذ إنَّ الجرامَ الواحد ثمنه كبير، حتى إنَّ بعضهم ينصح المشتري أن يفتح عينيه جيدًا عند البائع؛ فلو نفخ في يده، أو وضع مروحةً قريبةً لأثَّر ذلك على الميزان، وتكلف المشتري مالاً لبدًا، ولا ينبغي أن يجعل ميزانه ميزان شاحنات كبيرة؛ لأنه لا يُظهر النتيجة إلا عند وزنٍ معين، فلو وقف عدة أشخاص ربما ظهروا في الميزان!.

فكلما كان الشاب هيَّابًا من الله تعالى، يقلقه الذنب الصغير كلما كان أقرب إلى الهدى، وأعون له على العفاف والتقى، فإنه عندئذٍ يسهل عليه أن يقول: «معاذ الله إنه ربي»، أو إني أخاف الله رب العالمين، وكان بذلك ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى، وقد حدثنا القرآن أن أهل الجنة إذا أقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون، قالوا: إنا كنا قبلُ في أهلنا مشفقين، وذلك أنهم مشفقون من الساعة ويعلمون أنها الحق، كما أنهم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، ولذلك فإن السجون أحب إليهم مما يدعونهم إليه أهل الشهوات، أو أن يقترفوا ما هم مقترفون.

المطلب الثالث

ترك السيئات؛ لئلا تَحبَطَ الحسنات

من المشاعر الزاجرة عن مقارفة السيئة أن يستشعر العبدُ أنَّ هذه السيئة ربما أبطلت أعمالاً صالحةً في مقابلها، عبر ما يُسمَّى بقانون حبوط العمل.

وهذا الملحظ نبَّهَ عليه الإمام **أحمد** بقولٍ يقطر فقهًا نصُّه: **وينبغي للعبد في هذا الزمان أن يستدين ويتزوج؛ لئلا ينظر ما لا يحل فيحبط عمله**[1]!.

وإذا قال الإمام **أحمد** هذه الكلمة في زمنه القائم على البساطة، والذي كان مستوى العفة فيه مرتفعًا، وكانت الفتن فيه قليلة مقارنةً باليوم، فماذا عساه يقول لو أدرك زماننا!.

ولا أستطيع كتم دهشتي من ذلك الفقه العالي الذي سطره **ابن القيم** حول قانون الحبوط، فهيئ ذهنك جيدًا لإدراك الفلسفة الشرعية في هذه القضية الخطيرة، ومن مهمات ما قال: الحبوط قسمان: عامٌّ وخاص..

فالعام: حبوط الحسنات كلها بالردة، وحبوط السيئات كلها بالتوبة.

والخاص: حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعض، وهذا حبوطٌ جزئي، ولما كان الكفر والإيمان كلٌّ منهما يبطل الآخر ويذهبه، كانت شعبة كل واحدٍ منهما لها تأثيرٌ في إذهاب بعض شعب الآخر، فإن عظمت الشعبة ذهب في مقابلتها شعبٌ كثيرة!.

---

(١) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص (٨٥).

قلت: معنى هذا الكلام أنَّ شُعبَ الإيمان إذا كانت بضعًا وسبعين شعبة.. فإن للكفر وكذلك النفاق شُعَبًا في مقابلها، فإذا حصل ذنبٌ فإنه يُحبط العملَ الصَّالِحَ الذي يقابله في نفس الشُّعبة، فإذا كان الذنب كبيرًا أحبط شعبًا كثيرة، فلو كان الذنب ردةً عن الدين فقد أحبط كلَّ الشُّعَبِ إذا مات على الردة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]، وكذلك الحسنات تذهب السيئات التي في مقابلها، فإن تاب الإنسان من كل ذنوبه أحبطت توبته عامة السيئات، وكان يمشي على الأرض كيوم ولدته أمه!.

ولذلك كان النبي ﷺ يحرص أن يدعو في سجوده: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[1]. فكل قطعة منه تأتي على عامة السيئات لتكون المغفرة عامةً لا تُبقِي ذنبًا ولا سيئة.

ومن الشَّواهِدِ التي ذكرها **ابنُ القيم** على الحبوط الخاص ما قالته أمُّ المؤمنينَ **عائشة** لأم **زيد بن أرقم**، وكان قد تعامل بالعِينَةِ وهي نوع من أنواع الربا: **أخبري زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله إلا أن يتوب، لما باع بالعينة!.**

لماذا بطل الجهاد تحديدًا بسبب هذه المعاملة الربوية؟! لماذا لم تحبط الصلاة مثلاً أو صلة الرحم أو الصدقة؟!.

يجيب العلامة **ابن القيم** فيقول: وتأمل كيف قويت هذه الشعبة التي أذن الله فاعلها بحربه وحرب رسوله على إبطال محاربة الكفار، فأبطل الحرابُ المكروهُ الحرابَ المحبوب، كما تبطل محاربة أعدائه التي يحبها محاربته التي يبغضها!.

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٢).

قلت: فالمجاهد مُحَارِبٌ لأعداء الله، والمرابي متعرضٌ للحرب من الله، فلما تقاربا في المعنى أبطل إثم الحرابُ الثاني أجر الحرابَ الأول، ومن تلبَّس بالربا فينبغي أن يستعين مع التوبة بالجهاد في سبيل الله على إبطال ما حصل بسبب الربا من سيئات، فإذا كان الربا يحبط أجر الجهاد فإنَّ الجهاد يحبط إثم الربا، والله أعلم.

فإن قيل: كيف تحبط الأعمال بغير الردة؟ قيل: دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تُحْبِطُ الحسنات كما أنَّ الحسنات يذهبن السيئات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢][1].

وقول **عائشة** وكلمة الإمام **أحمد** المتقدمان يدلان على ذلك، فكما أنَّ السيئةَ تَذهَبُ بِحَسنةٍ أكبر منها.. فإنَّ الحسنةَ يحبط أجرها بسيئة أكبر منها.

ومن تخيل مشهد حبوط العمل في ساحة القيامة في أشد الأوقات فاقةً وحاجةً إلى الحسنة الواحدة كاد أن يطيش عقله!.

ويمكن تقريب ذلك بطالب دراسات عليا أنفق سنتين من الزمان يُصَنِّف رسالته العلمية، ثم اجتاح جهازه الحاسوب فايروس خطير، ولما نقر على أيقونته الموهومة تلفت الملفات كلها وهو في أَمَسِّ حاجتِهِ إليها، وتعذر استرجاعها لأنها عطبت في نفسها!.

وأذكر أنَّ أحدَ الإخوة حدثني أنَّ سائقًا قال له: طلب مني أحد الركاب أن أوصله إلى بيته، ويقع في جوف قرية نائية، وذلك ليأتي بأهله ومن ثم أوصلهم

(١) انظر مجمل ما ذكر في كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص (٨٥-٨٧).

إلى مكانٍ ما، وكان هذا في الليل بعد العشاء، فأوصلته على تعبٍ مني، فلما وصلنا بيته قال له: ليس معي فكَّة، والذي معي مائة شيكل؛ فهل لك أن تعطيني خمسين لآتي لك بالمائة، فأعطيته، وكان هذا هو الذي حصَّلته من العمل طوال النهار[1]، فذهب وبقيت في انتظاره، ولكن طال الانتظار جدًّا ولم يعد، فأدركت أنه لصٌّ محتالٌ ماهر، ولم أستطع تحديد شقته في العمارة التي يسكنها؛ لتعدد الشقق فيها، وكم تعذبت نفسيًّا على ضياع جهد اليوم كله في لحظات!.

وهذه هي العبرة التي أريد، فتخيل أنك تتعب في الحسنة ثم تفقدها بالحبوط، في وقتٍ تكون الحسنة أثمن من الدنيا وما فيها!.

وإنَّ استحضارَ هذا الشعور قبل التلبُّسِ بالمَعصيةِ مُعِينٌ على الإحجام عنها، وبهذا يصبح **ترك السيئات من جملة وسائل المحافظة على ذخيرة الحسنات.**

على أنه ينبغي أن يُعلم أن سيئات العبد الحديثات إذا استغرقت حسناته القديمات وأبطلتها ثم تاب منها توبةً نصوحًا خالصةً عادت إليه حسناته، ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها؛ بل يقال له: تبت على ما أسلفت من خير؛ فإن الحسنات التي فعلها في الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره من عتاقةٍ وصدقة وصلة، وقد قال **حكيم بن حزام** ﷺ لرسول الله ﷺ: أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ فقال: «**أسلمت على ما أسلفت من خير**»[2]؛ وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن فتلاقت الطاعتان واجتمعتا، والله أعلم[3].

(١) تساوي ١٥ دولارًا تقريبًا.
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٤٣٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٣٨).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٨٢٨).

المطلب الرابع

من عاش على شيءٍ مات عليه[1]

إنَّ حالةَ المرءِ عند مماته هي مُلخَّصُ ما كان عليه في حياته، وإنَّ عمله في السر والعلن هو الريشة التي ترسم بها صورة مشهد وفاته، ولهذا لو نظرتَ في الأسبوع الأخير من حياة أيِّ صَالحٍ أو فاسدٍ لوجدت الأعمال التي عملها هي من جنس الأعمال التي اعتادها، وكثيرٌ من الناس تخرج روحه عند عملٍ بعينه مما كان يعمل خيرًا كان أو شرًّا، والهناء كل الهناء لمن مات على طاعة، والشقاء كل الشقاء لمن مات على معصية.

ولذلك قلَّ أن تجد من كان يدخن أو يغني أو يأكل الحقوق أو يقيم على العقوق أو يترك الصلوات أو يقارف ذنوب الشهوات أنه أقلع في الأيام الأخيرة من حياته، وقد يمن الله على بعض العباد بالتوبة فيها، وكذلك يندر أن تجد من كان يصلي أو يجاهد أو يصل الرحم أنه فسق في الأيام الأخيرة من حياته.

ولعل هذا ما عناه مجاهد بقوله: إنَّ المؤمنَ يَموتُ مؤمنًا وَيُبعثُ مؤمنًا، وإن الكافر يَموتُ كافرًا وَيُبعثُ كافرًا[2]!.

---

(١)

(٢) ذكرت الكلمة في جملة من التفاسير منها: تفسير ابن عطية (٥/ ٨٥)، تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٤٧)، تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٦).

وقد أشار القرآن الكريم للقاعدة التي ترجمت بها المطلب في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١] أي: إنَّ من الظن الفاسد أن يعتقد أهلُ السيئات أن يُسَوِّيَ اللهُ بينهم وبين ذوي الحسنات في المحيا والممات، فكما تخالفوا في أعمال الحياة فسيتخالفون في مشهد الختام، عدلاً من الله في أصحاب السيئات، وفضلاً منه على أصحاب الحسنات.

أما الحديث الذي أشكل على بعض الإخوة؛ وهو حديث الصحيحين عن **ابن مسعود** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إن الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»[1] فيتضح معناه بضمه لحديث الصحيحين أيضًا من رواية **سهل بن سعد الساعدي** رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فيما يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيما يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[2].

فأنت ترى أنَّ النبيَّ ﷺ قيَّد ذلك فيما يبدو للناس، وليس من ذلك أنَّ العبدَ الموفق الذي قضى حياته في عباده ربه أن يخذل عند مماته، فهذا بعيدٌ بعيد، وما كان الله ليضيع إيمانكم، ولا عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى، وما مات من يُظن فيه خيرٌ على ختامٍ مشين إلا لدسيسةٍ بينه وبين ربه ظهرت عند موته.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٣٣٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٨٩٣). واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٨٩٨)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٢٠).

وعليه؛ فإنَّ من المشاعر الزاجرة أيضًا عن مقارفة السيئات أن يعلم الإنسانُ أنه إن سار في طريق الشهوات في الجلوات الظاهرات أو الخلوات الخفيَّات؛ فقد يموت على هذه الحال والعياذ بالله، وما ربك بظلام للعبيد، وإنَّ الله ما خذله عند الموت، وغاية ما في الأمر أنَّ ما كان يُفعل سرًّا جعله الله بسبب الإصرار عليه جهرًا، **فالخواتيم تكشف المستور**، ولهذا صدق من قال: **الخواتيم ميراث السوابق!**.

فيا أيها الأخ الحبيب:

اجعل لك عملاً صالحًا مخبوءًا بينك وبين ربك، ولو بصفحاتٍ تتلوها، أو تسبيحاتٍ تذكر الله بها، أو دريهماتٍ تنفقها، وتب إلى الله تعالى دومًا من كل مَعصيةٍ ظاهرةٍ أو خفية؛ لئلا تظهر في صورة خاتمةٍ لا ترضاها، فإنَّ اللهَ يُحبُّ التوابين ويحب المتطهرين، وكن من الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا.

بقي أن أمثل ولو بقصةٍ واحدة على قاعدة الباب، وأختار الخاتمة التي هزت أحاسيسي، وهي التي حملتني على تأليف الكتاب الذي جعلت عنوانه: «**من عاش على شيءٍ مات عليه**»، وهي خاتمة الشيخ **عبد الله عزام** رحمه الله.

والشيخ **عبد الله عزام** كان مشهورًا بكثرة العبادة خاصة التهجد، وكان عالمًا في الفقه وأصوله، ونال درجة الدكتوراة من الأزهر الشريف في ذلك، ثم قدر الله أن يبلغ الإمامة في الجهاد، ويصبح شيخ المجاهدين في أفغانستان، ثم هو من هو في الدعوة والخطابة والتنظير، فأمسك الله روحه وَفق الذي عاشت عليه..

فإنه أثناء توجهه لخطبة الجمعة اغتيل بتفجير سيارته، يقول شاهد الحدث: طار الشيخ عدة أمتار من قوة الانفجار، ثم وقع ساجدًا لله تعالى جهة القبلة!، فظننته يسجد شكرًا لله، فحركته، وإذا به قد فارق الحياة!.

فجاءت خاتمته كما صنعها لنفسه؛ فظهر صلاحه في الموت يوم الجمعة، ولما عاش داعيًا إلى الله تعالى بإذنه استشهد وهو في طريقه لخطبة الجمعة، يعظ الناس ويحرضهم على القتال في سبيل الله، ولما كان مجاهدًا كتب الله له أن يقضي شهيدًا نحسبه كذلك ولا نزكيه على ربه، ولما كان عابدًا متهجدًا جعله الله يقضي نحبه ساجدًا بين يديه، فهل رأيت أعجب من هذا الختام؟! فعلاً؛ إذا أعطى الله أدهش!، وإنَّ الله ذو الفضل العظيم.

المطلب الخامس

إذ تستغيثون ربكم

يظهر صدق الداعي وحرصُه على حاجته في أشياء منها: تقديمه صدقة بين يدي دعائه، والتماسه أوقات الإجابة، واتباع المنهجية القويمة للوصول إلى دعاءٍ مجاب[1]، وغير ذلك، وهنا تركيزٌ على قرينةٍ مهمةٍ؛ وهي الاستغاثة في الدعاء.

في أول لقاءٍ عسكريٍّ بين النبيِّ ﷺ وقريش، وعلى غير استعدادٍ نفسيٍّ ولا عسكريٍّ للمواجهة رأينا أحبابنا الصحابة رضي الله عنهم أمام قوات قريش، ولئن هُزمنا في هذه المواجهة فإنها كارثةٌ ومصيبةٌ كبرى بكل المقاييس، ويكفي أن نستحضر فقط أنَّ المقاتلين الموجودين هم مادةُ الإسلام، وربما بلغ عددهم نصف عدد المسلمين في العالَم في تلك اللحظة، وأمام هذه الصورة رأينا النبي ﷺ يطلب الغوث من ربه، ويلح عليه إلحاحًا شديدًا، ومن دعائه: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعدُ في الأرض أبدًا**»، وما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩][2]!.

فحصلت الإجابة بعد الاستغاثة في الدعاء.

---

(١) فصلت القول في هذه المسألة في كتاب «دليل المعتكف»، في مبحث الدعاء، وهو منشورٌ على الانترنت.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤١٧).

وكنت قد قرأت كلمةً رائدةً تُنسَبُ لابنِ مسعودٍ نصها: «يأتي على الناس زمانٌ لا يستجاب لأحدهم ما لم يدع استغاثة الغريق»!.

فإذا استحضرنا ضغطَ الشهوات في هذا الزمان الذي بات متصفًا بزمان الفتن رأينا أنَّ من أهم وسائل الاحتراس في الوقوع في درك الذنوب أن يُبالغَ الذي يعاني السيئات في طلب الغوث من ربه، فيسأل الله أن يلطف به ويخفف عنه ويثبته فلا يبدل تبديلاً، ويحفظه من الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن، ويصلح قلبه، ولهذا كان من دعاء فضيلة الشيخ ابن باز: «اللهم أصلح فساد قلوبنا»، ويتوب إلى الله كذلك ويستغفره، ويشكو له ظلم الذين يتبعون الشهوات ويريدون أن نميل عن ديننا إليها ميلاً عظيمًا.

ولو جَعَلَ دُعَاءَهُ في جوفِ الليل أو في آخره لكان خيرًا له وأقوم، فقام وتوضأ وصلى وسجد وأطال السجود وهو يشكو لربه ما به، وليس من شرط أن تلتزم اللغة الفصحى، والكلمات المنمقة، بل تكلم بما في قلبك، وإنَّ الله رحيمٌ ودودٌ يعلم ما في الصدور، ولا يخسر في معاملته أحد، وبذلك تَسْتَن بالإمام الشيرازي الذي كان إذا جنَّ الليل يقوم وينادي رب العالمين قائلاً:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أَجِدُ
وقلتُ يا عُدَّتِي في كلِّ نائبةٍ ... وَمَنْ عليه لكشف الضر أعتمدُ
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبرٌ ولا جَلَدُ
وقد مددتُ يدي بالذلِّ معترفًا ... إليك يا خيرَ مَنْ مُدَّتْ إليه يَدُ
فلا تردنَّها يا رب خائبةً ... فبحرُ جودِك يروي كلَّ من يَرِدُ

وأذكر هنا بعض الأدعية التي يمكن الاستعانة بها:

■ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

■ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٢ - ١٩٤].

■ ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

■ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

■ «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ.

■ اللهم أنت الملاذ حين ينقطع كلُّ ملاذ، أنت الملجأ حين لا يكون للمسلم ملجأ، أنت الأمان حين ينقطع بالخائف كلُّ أمان، يا أمان الخائفين، يا ملجأ الملتجئين، يا معتمد المعتمدين، يا سند الهاربين، يا غوث المستغيثين، يا مجيب المضطرين، يا مُفرِّج الكرب عن المكروبين يا محبَّ المُلِحِّين، يا سامع شكوى المشتكين، يا مَفْزَعَ العصاة العائدين، يا أمل من لا أمل له، يا ذخر من لا ذخر له، يا سند من لا سند له، ارزقني الثبات والصبر والعفاف والتقى والغِنى، انقطع رجائي إلا منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

■ إلهي، سبحانك، أنت أمرتنا أن نُحْسِنَ إلى السَّائِلِ ولو كان من أهل السوء، إلهي، قد ضاقت المسالك، وحلت المهالك، فأستغفرك مما سَبَّبَ ذلك، وهأنذا سائلٌ ببابكَ، متوسل بذاتكَ، لائذٌ بجنابكَ، ممسك بكتابكَ، مستغفر بأعتابكَ.

■ اللهم إني أُشْهِدُكَ أني تُبتُ الآن إليك من كلِّ ذنب، نادمٌ على ما فعلت، مقلعٌ عما أذنبت، عازم على ألا أعود، فبدل سيئاتي حسنات.

■ اللهم إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة.. أن يحلَّ بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن رحمتك أحبُّ لي، وأوسع لي، لك العتبى حتى ترضى، لك التوبة بعد التوبة حتى ترضى.

- اللهم اغفر لي إنك كنت غفارًا، وارْضَ عني؛ فإنه لا طاقة لي بسخطك، أعوذ بك من كلِّ ذنب يحول بيني وبين رحمتك وحنانك، أتوسل إليك بصلاتي وصيامي وبكائي، وما قبلته من صالح عملي، املأ قلبي صلاحًا بعد أن ملأت الأرض فسادًا، إنك الحليم الكريم، الودود الرحيم، فهبني وأنت الكريم، ولا تمنعني وأنت الحليم، ولا تحجبني وأنت الحكيم.
- اللهم إن كان عبدك أهلَ المعصية؛ فإنك أهلُ المغفرة.
- اللهم إن كانت شاكلة عبدك العصيانَ والإجرام؛ فإن شاكلتك الغفرانُ والإكرام.
- اللهم لا تكشفْ لِيَ سترًا، ولا تفضح لِيَ سرًّا.
- يا ربِّ ضعفتُ أمام شهوتي، ولا غيرك يقويني، يا رب ضللت، ولا سواك يهديني، يا رب غرقت في حب الدنيا، ولا غيرك ينجيني، يا رب احترقت في نار المعاصي، ولا سواك ينقذني.
- اللهم لا تحرمني بقبائح عيوبي، ولا تقطعني بمخازي ذنوبي.
- اللهم إني أشتهي مغفرتك، أشتهي رحمتك، أشتهي عفوك، أشتهي رضوانك، أشتهي أن تغفر لي ذنوب العمر في هذه اللحظة، اللهم إن تعذبني فإني عبدك، وإن تغفر لي فإنك أنت العزيز الحكيم.
- اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّهُ وجِلَّه، أوله وآخره، علانيته وسره، اللهم أدخلني الجنة بلا حساب، ولا عذاب، ولا عقاب، ولا عتاب[1].

(١) ذكرت هذه الأدعية وغيرها عند الحديث عن الدعاء في كتاب «دليل المعتكف»، وهو منشورٌ على الشبكة، فمن أراد الاستكثار منها فلينظر الكتاب.

المطلب السادس

تفتيت فتنة الشهوات

يقول الشيخ **إبراهيم** السكران فرَّج الله عنه: كنت أراجع في كتب الحنابلة مسألة حكم النظر لوجه المرأة للحاجة؛ كدراسةٍ أو معاملةِ بيعٍ وشراء، ونحو ذلك مما يشق معه صرف البصر عن المتحدث، وبين زحمة الأقوال والتعليلات لا أدري ما الذي قادني إلى مراجعة كتاب الفروع **لابن مفلح**؛ فإنه حين انتهى من عرض الاتجاهات وحصيلة الروايات عن **أحمد** عقَّبَ على غير عادته بجملةٍ واحدةٍ استحوذت على كل أحاسيسي، لله أبوه كيف استطاع أن يلخص كل هذه الفكرة الأخلاقية في جملةٍ واحدة، والله إنني منذ يومين أكتشف نفسي بين فينة وأخرى أهمس بعبارته طربًا بعبقريتها، وأتمنى أن أجد أيَّ شخص بجانبي لأعيد له شرح مشاعري تجاه هذه العبارة.

حيث يقول في عبارته المركزة: **وليحذر العاقل إطلاق البصر؛ فإنَّ العينَ ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه!**[1].

صَحيحٌ إنَّ اللذائذَ والأهواء عمومًا ولذة النظر المحرم خصوصًا لا تحتاج إلى معلومات بقدر ما تحتاج إلى شظيةٍ إيمانيةٍ تسترد لك مراقبة الله، لكن الوعي أحيانًا بحقيقة اللذائذ المادية ذاتها وتفاهتها، وإدراك شيء من زيف ظاهرها الخلاب يمنحك قوةً مضاعفةً في مواجهة الفتنة، والتعالي عليها، والإفلات من براثنها.

(١) الفروع لابن مفلح ومعه تصحيح الفروع للمرداوي (٨/ ١٨١).

وهذا هو سرُّ الشَّيءِ المدهش في عبارة **ابن مفلح**، فبدلاً من أن يُقَدِّمَ موعظةً خالصةً عمد إلى تفتيت وهج الفتنة ذاتها.

وفعلاً؛ كم من وجهٍ خلابٍ للمارة لا يراه من حل له إلا دون ذلك، ولذلك اصرف بصرك، وتأكد أنَّ الواقع أقل بكثيرٍ مما تتصور، ولكنه هالة البعيد والوهج الزائف لغير المقدور عليه. ا. هـ.

وحتى لا تأخذ الشهوات أكثر من رتبة «زينة» نعيد تلاوة قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، فالشهوات زينةٌ لا قيمة، شأنَ المكياجِ الذي تتزين به المرأة لوقتٍ يسيرٍ ثم تزيله، ولهذا كان العربُ يفرقون بين المرأة الجميلة في نفسها والجميلة بأدوات التجميل، فالأولى يخصونها باسم الغانية؛ لاستغنائها بجمالها عن وسائل الزينة[1].

وإذا كان هذا الكلام إنما هو في حق شهوة النساء من غير تزيينٍ جديد، فكيف وقد تضخم هذا الجانب اليوم جدًّا في المسلسلات والأفلام الهابطة، مما يعني أنَّ العروضَ المقدمة أعلى بأضعافٍ كثيرةٍ من مقدار الزينة في شكلها الحقيقي.

إنَّ معرفة الشاب لهذا الملحظ مهمةٌ في إعانته على التصبر، ولئلا يتوهم حجمًا للشهوة أو طبيعةً لها ثم يصاب بالصدمة بعد ذلك، وفي ظني أنَّ حاجةَ المتزوجِ لهذا الملحظ تداني حاجة الأعزب إن لم تكن مثلها، والمتزوج إن لم يرض بما آتاه الله، وراح يمد عينيه إلى ما وراءه من المفقود لم يتم له مطلب؛ إذ في كل امرأة نقصٌ مهما حسن جمالها، وربما شقَّ طريقًا جديدًا من المعاصي يختلف عن طريق العُزَّاب.

ومع قناعتي بالدَّورِ الفعَّال لتبهيت وهج الشهوة، وتفتيت حجمها الوهمي إلا أنَّ تربيةَ القلب باستحضار مشهد الجنة والنار، والصحف والميزان والصراط،

(١) فقه اللغة للثعالبي ص (١٨١).

وتقلب القلوب والأبصار والتنقل في عرصات يوم القيامة، والتحسر الشديد الذي تصطك منه الأضلاع يوم يقوم الناس لرب العالمين لكفيلة أن تُطفئَ نارَ الشَّهوةِ، وترزق صاحبها الاستقامةَ على أمرِ الله، حتى لو تمردت الشهوة، وقامت في وجهه، وعصى.. فما هي إلا دقائق حتى يعود إلى جادَّةِ صلاحه.

وتفريعًا على هذه القناعة فإننا لو تصورنا الشَّهوةَ في أحسن حلةٍ، ولم ينطفئ وهجُهَا في نظر الرائي فإنَّ تربيةَ الآخرة تجعل الشاب ينظر إليها كطعامٍ بالغ اللذة، وَلْيَكُنِ العسل الذي يُضرب به المثل في لذة المآكل، لكن خُلط فيه سم بالغ الخطر، فأي يد تمتد إليه عند ذلك؟!.

وهذا المعنى مستعارٌ من كلامٍ نطق به طبيبُ القلوب وخبير النفوس، صاحب القلم السَّيَّال والسِّحر الحلال **ابن القيم الجوزية** الذي قال:

إنَّ العاقل الكَيِّسَ لَيَرَى المَنَاهِي كَطَعَامٍ لَذِيذٍ كَالعَسَل، قَد خُلِطَ فيه سُمٌّ قَاتل، فَكُلَّمَا دعتْهُ لَذَّتُهُ إلى تناولِهِ نَهاهُ ما فيه من السُّم، وإنه لَيَرَى الأوامر كَدَواءٍ كَرِيهِ المَذاق، مُفْضٍ إلى العَافِيةِ والشِّفَاء، وَكُلَّمَا نَهاهُ كَراهةُ مَذاقِهِ عن تناوله؛ أمرهُ نفعُهُ بالتناول[1]!.

هذا وبالله التوفيق.

(١) الفوائد لابن القيم ص (١٣٧).

المطلب السابع

الآثار الشرعية والصحية لذنوب الشهوات

من رحمة الله بعباده أن جعل شؤمَ المعصية حاضرًا بآثاره الفتَّاكةِ المدمِّرَةِ في الدنيا قبل المؤاخذة في الآخرة؛ تحصيلاً للتربيةِ الهاديةِ الزاجرة، وهنا تسجيلٌ لطائفةٍ من تلك الآثار، وتركيزٌ خاصٌّ على الأضرارِ الصحيَّةِ الناتجةِ عن مشاهدةِ المناظر الجنسية.

أما آثارُ السيئات فقد أطال **ابن القيم** النفس جدًّا في كتابه «**الداء والدواء**» وأتى بما يُرَبِّي القلوب ويصلح النفوس، وذكر بعضها مجملاً في كتابه العظيم «**الفوائد**»، وهو الكتاب الذي كان سببًا مهمًّا في انطلاقي للدراسة الشرعية، وقبل أن نفسح المجال **لابن القيم** ليعدد بعضها نستحضر أنَّ الأوامرَ الإلهيةَ هي أصل الفطرة، ولهذا فالعاصي لا يطيب له العيش، ويشعر دائمًا بنزع السكينة وفقد الطمأنينة، والآن نعود لسرد بعض آثار الذنوب، فقد ذكر **ابن القيم** منها الاثنتا عشرة الآتية:

١) **قلة التوفيق**، وكثرة الخِذلان والحرمان.

٢) **فساد الرأي**، ولذلك تجد أكثر قرارات المقبل على الشهوات خائبة.

٣) **خفاء الحق**، فقد تجده نصيرًا للباطل خصيمًا للحق، قد انقلب عقله وانتكس رغم قيام القناطير المقنطرة من الأدلة والبينات التي تميز الحق من الباطل.

٤) **فساد القلب**، فقلبه مستودعٌ لنجاسة الشهوات، وقذر السيئات.

٥) **قسوة القلب**، فلا يشعر بلذةٍ في صلاة أو تَدَبُّرٍ في تلاوة أو تأثرٍ بخطبةٍ أو محاضرة.

٦) **إضاعة الوقت**، فلو قارن بين السنوات التي عاشها بعد البلوغ وبين الإنجازات التي حصَّلها لأصيب بصدمةٍ، وربما ما زال شريط ضياع الوقت مستمرًّا.

٧) **الوحشة بينه وبين ربه**، فلا يشعر بلذاذة الوصال معه، ولا بقوة الانتماء لهذه الشريعة.

٨) **محق البركة في الرزق والعمر**، فتعبه كثير وتحصيله قليل، وسخطه كثير، قد عوقب بنكد العيش رغم توفر أسباب السعادة بين يديه.

٩) **حرمان العلم**، فرغبته في العلم ضعيفة، وكلما أمعن في المعصية تتابعت الشواغل التي تصرفه عن العلم، وتعوقه عنه.

١٠) **لباسه لباس الذل، وإهانة العدو له**؛ لأنَّ من هابَ الله وعظَّم أمره جعل الله له حظًّا من عز النفس وتقدير الناس له، وإلا جعله في نفسه ذليلاً، وفي القلوب مهينًا.

١١) **ضيق الصدر، وطول الهم والغم وضنك المعيشة**، وربما أحاط به من الضيق والغم ما لا يَعرِفُ له سببًا.

١٢) **نفرة الخلق من أهل الحق والصدق عنه، والابتلاء بقرناء السوء** الذين يفسدون قلبه، ويضيعون عليه وقته[1].

---

(١) الفوائد لابن القيم ص (٣٢-٣٣).

وطريق التوفيق تبدأ بإزاحة أسباب التعويق، أعني أنَّ من أراد أن يصل ويُوفَّق وينجح في حياته فعليه قلع جذر الصحبة الفاسدة، وتكوين علاقات صالحة جديدة، وهذا الموضوع يحتاج لنفسيةٍ صادقةٍ وقراراتٍ صارمة.

وأما الأضرار الصحِّيَّة:

فهناك دراسة جديدة أجريت من قبل باحثين في جامعة كامبردج وجدت أنَّ دماغ الإنسان الذي ينظر للمشاهد الجنسية يسلك سلوكًا يشبه دماغ ذلك الذي يدمن المخدرات والخمر، وتُعتبر هذه الدراسة هي الأولى من نوعها، وقد تمت عام ٢٠١٣م، حيث استخدم العلماء التصوير بالرنين المغناطيسي لأدمغة مجموعة من الشباب المدمنين على ذلك.

وتشير الدراسات إلى أنَّ الدماغَ يبدأ بفرز مادة الدوبامين بمجرد النظر لمشهدٍ جنسي، وهذه المادة ترهق الدماغ، وخاصة المنطقة الأمامية منه وهي الناصية؛ حيث إنَّ هذه المنطقةَ هي المسئولةُ عن اتخاذ القرارات، وهي أشبه بالفرامل بالنسبة للسيارة، فكما أنَّ قيادةَ السيارة من غير فرامل تعطل خاصة التحكم بمسارها.. فكذلك الذي يتابع الأفلام الجنسية يصبح مع مرور الزمن غير قادرٍ على اتخاذ القرار المناسب؛ لأنَّ منطقةَ الناصية تبدأ في التآكل تدريجيًّا، وهو ما يعبر عنه بعض المختصين بأنَّ مشاهدةَ المناظرِ الجنسية يتسبب في تلف أجزاء من الدماغ، تمامًا كما يحدث مع مدمني المخدرات.

وكذلك يتم فرز مادة التستيرون والأكسيتوسين مما يسبب إرهاقًا لأنظمة عمل الدماغ، ويشوش عمليات التذكر والتعلم.

ومادة الأكسيتوسين هي المسئولة عن الثقة بين البشر، ومع الإدمان على المشاهد الجنسية يتشكل ما يُسمَّى بالعشق الافتراضي، وبالتالي يختل إفراز هذه

المادة، والنتيجة أن حياته الاجتماعية تتضرر، حتى لو كان متزوجًا، وقد تنهار أجزاء كبيرة من حياته العاطفية مع زوجته، وتكثر بذلك المشاكل الزوجية.

وهناك نقطة مهمة جديرة بالذكر؛ وهي أنَّ مادة الدوبامين -التي تجعل الإنسان يشعر بالسعادة عند حصوله على مبلغٍ من المال مثلاً، أو إنجاز عملٍ ما بنجاح، وكذلك عند رؤية المشاهد الجنسية- يقل إفرازها وتضمر تدريجيًّا بعد فترة من متابعة مشاهدة ذلك، مما يجعل الإنسان لا يشعر بالسعادة كما كان يشعر بها من قبل، ويبدأ يبحث عن وسائل أشد إثارة، وبالتالي يزيد الضرر ويزيد تلف الخلايا مما يجعل عملية المشاهدة عمليةَ تدميرٍ حقيقيَّةً في النظر الطبي المحض.

بالإضافة إلى أنَّ إدمانَ ذلك يعيد تشكيل الدماغ تشكيلاً سيئًا، مما يجعل المشاهد في حالة استنفارٍ دائم، وإدمانٍ على المشاهدة من دون سبب، فتجده يتنقل من مشهدٍ لآخر دون توقف، وما تقدم من تآكل المنطقة الأمامية من الدماغ مع الزمن وما ينتج عنه من اضطرابٍ في القرارات سببٌ آخر في فقد توازنه وجعله ينقاد وراء شهوته كالمجنون[1].

وبعد هذه الإفادة الصحية أعيد ما قلته في المطلب الفائت من أنه مع قناعتي بالدور الفعَّال لهذه الجرعة الصحية في زجر كثيرٍ من النَّاس عن الإقدام على معصية النظر المُحَرَّم، أو على الأقل عن الإكثار منها.. إلا أنَّ تربية نصوص الوحي التي تستحوذ على القلب والعقل أحكم وأقوى؛ لأنَّ كثيرًا من الناس مستعدٌّ للتنازل عن صحته مقابل لذَّتِه، ألا ترى أنَّ كثيرًا من الأطباء يدخنون مع كونهم أعرف الناس بالمخاطر الصحية لذلك؟!.

(١) دراسة تم نشرها على الانترنت مرفقة بفيديو بعنوان: المشاهد الجنسية تتلف الدماغ.

وعندئذٍ أين موقع هذه الإفادات من قلبٍ هش الإيمان قليل التقوى!.

وأين موضع تلك الدراسات من تربية القرآن التي تنذر الناس بيومٍ تشيب منه الولدان الذين لم يذنبوا يومًا، ويؤخذ فيه بالنواصي والأقدام، وترى الناس فيه سكارى، وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد!.

المطلب الثامن

بغض المعصية

هذه مسألة نفسيَّة شعوريَّةٌ محضة.

إنَّ الإنسانَ إذا كره شيئًا أو بغض شخصًا مثلاً فإن مجردَ ذكره كفيلٌ بأن يجعله يشعر بالضيق والاشمئزاز.

فإذا وضع الإنسان الشهوة المحرمة في هذه الدائرة البغيضة، وصار يربي نفسه أنه بمجرد استحضارها في الذهن يشعر بالغثيان النفسي.. فإنه لن يتفاعل معها تفاعلَ الذي يتخيلها ويفكر فيها ويحدث نفسه بها.

وهذا الملحظ يدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات:٧]، فما يزال الشاب يدعو ربه ويلح عليه أن يُحَبِّبَ إليه الإيمان والعفة والطهارة والنقاء، ويزينه في صدره، ويبغض إليه الكفر والفسوق والعصيان وينفره من ذنوب الشهوات.. حتى يجد نفسه في نفرةٍ نفسيةٍ منها تحميه من الوقوع في وحلها، وتدفعه إلى ساحة الطاعات ورياض الحسنات، حتى يصبح ممن يستبقون الخيرات، ويسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض.

المطلب التاسع

هجر مظان المعصية

بعض الشباب يكون تقيًّا متى توفَّرت بيئةٌ مناسبة، فإن غاب من يُذَكِّره ويثبته مسَّته الغفلة، ولو توفرت بيئةُ المعصيةِ فإنَّهُ يعصي، وربما ترك الصلاةَ في المسجد أو هجرها بالكلية، فهو ضعيفٌ بنفسه قويٌّ بإخوانه، ولهذا كان من فضلِ الأخِ الصَّالحِ أن يُستحيى من المعصيةِ في حضرته.

والذي يحرص على دينه لا بد أن يُضَحِّيَ في ذات الله، فإذا علم أنَّ هناك نزهةً ترفيهيةً في مكانٍ مختلطٍ، أو جلسةً يرقُّ فيها دينه.. لم يذهب إليها.

وإذا علم أنَّ سفره لدولةٍ ما سيضيع عليه التزامه.. لم يسافر إليها.

وإذا علم أن هذه الصحبة ستشتت عليه هناءه الإيماني، وخُلُقَهُ التربوي.. تركها ولا كرامة، لئلا يقول يوم القيامة: يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلاً! فإن الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدو إلا المتقين.

وإذا علم أنَّ جلوسه على الانترنت سيفسد عليه قلبَهُ.. تَخَفَّفَ منه، ولو أدى ذلك إلى إجراءات صارمة تُبعِدُهُ عنه، بل لو استطاع أن يهجره بالكلية فهو أولى، وإن كنت أعلم أنَّ هذا الطرح يُصَنَّف اليوم في خانة ما يُوصف بأنه دروشة المشايخ؛ لأنَّ العقليةَ الحديثة جعلت هذه الأشياء أصلاً، وإنما ينبغي أن يتوجه الكلام في تدبيرها لا في إلغائها وتركها، لكني رغم إدراك هذا جيدًا إلا أني بثثت هذا المقترح بقصد وصوله لزمرةٍ من الشباب الطموح المهتمين بالإنجاز والسَّلامة

من الإثم، والذين لديهم استعدادٌ للتضحية بكل نفيسٍ في سبيل تحصيل هذه الغاية الشريفة، فمثل هذا الخطاب يناسبُهُم، لا سيما وأنني التقيت بغير واحدٍ من هذا الصنف يعمل به في خاصَّة نفسه.

والحاصل: أنَّ الذي يسعى لصلاح قلبه، والنجاة من ألم الشهوات وعذاب السيئات عليه أن يهجر الأماكن والأشخاص والمنافذ التي يضعف عندها إيمانه ويقع بسببها في درك الذنوب، وقد تخسر بسبب هذا التوجه علاقات، وتفوت عليك منافع في مقابل التحصل على هذا الإنجاز الإيماني العظيم.

المطلب العاشر

استشعار منطلقات التعامل مع الله

يقول **يوسف بن أسباط**: «لا يمحو الشهوات إلا خوفٌ مزعجٌ، أو شوقٌ مقلق»[1].

والذي يظهر أنَّ المحركات الإيمانية القلبية اللازمة في علاج أدواء الذنوب عامة والشهوات خاصة لا تقتصر على الخوف والشوق؛ بل ينضم إليها الرجاءُ والحياءُ والتعظيمُ والذلُّ المتضمنُ للانقياد لأمر الله..

فهذه هي المنطلقاتُ الستةُ في تعامل العبد مع ربه، والدخول إلى الله تعالى عبر واحدٍ منها نافعٌ جدًّا، ولكلٍّ طعمه ومذاقه الذي يتميز به، والناس يتفاوتون في التفاعل معها، وكثيرٌ من الناس يتربَّى بنصوص الرجاء أو الشوق أو الحياء أو التعظيم أضعاف ما يتربى بنصوص الوعيد والخوف.

وقيمة هذه المنطلقات في الباب الذي نُعالجه أنها تُمثِّلُ الزواجرَ الداخليَّةَ الحاجزةَ عن السقوط في المعصية، فهي عمليةُ ردعٍ قلبية، لها دورٌ فعَّالٌ في إصلاحِ القلبِ من الداخل، وإعانةِ صاحبه على تطهيره، ومقاومةِ الهجمات الشيطانية التي تستهدفه.

وفي هذا المطلب تعقيبٌ متوسطٌ بين الاختصار والتطويل على كلٍّ منطلقٍ منها، ودونك بيان ذلك:

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ١٧٠).

أولاً: الرجاء:

وهذا المقام يصلح علاجًا ووقاية..

أما إنَّهُ علاج؛ فإنه يلزم بعد مقارفة السيئات؛ فالإنسان إذا أساء فإنه يأخذ يرجو الله، ويستدِرُّ رحمته، فهو الرحمن الرحيم، صدَّر كتابه بالرحمة، ورحمته وسعت كل شيء، وإذا كانت شاكلة العبد العصيان.. فإنَّ شاكلةَ الربِّ الرحمةُ والغفران، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٤]، وهذه الآية هي التي عدَّها **أبو بكر الصديق** ﷺ أرجى آية في كتاب الله تعالى للتعليل الذي تسطر[1].

وهذا المنطلق عندئذٍ له قدرةٌ هائلةٌ على الفتك باليأس والإحباط والقنوط التي يحاول الشيطانُ بكلِّ سبيلٍ أن يغرزها في قلب العاصي؛ لئلا يستدركَ على نفسه بالتوبة والاستغفار وفعل الحسنات الماحية، فمقام الرجاء يرزق العاصي ميلادًا نفسيًّا جديدًا، وإلا فأيُّ ذنبٍ بالله عليك يصمد في وجه رحمة الله وعفوه وكرمه وفضله!.

هذا الرب الذي يغفر ذنوبَ العمر في سجدة، ويُبَيِّضُ وجهَكَ يوم القيامة بدعوة، ويعطيك أجر حجَّةٍ وعمرةٍ بجلسةٍ بعد صلاة الغداةِ في المسجد إلى شروق الشمس، فتخرج بعدها كيوم ولدتك أمك بإذن الله وفضله!.

هذا الرب الذي غفر لامرأةٍ بغيٍّ بسقايةِ كلبٍ شربةَ ماء، ولرجل بإماطة غصن شوكٍ عن الطريق، ولمن قتل مائة نفس ثم قرر أن يتوب، فاقصد باب الله ولا تيأس فإنه القائل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠].

---

(١) تفسير الألوسي (١١/ ٧١).

أما إنَّه وقايةٌ وحراسة فإنَّ من استحضر منافعَ غضِّ البَصَر واستشعر فضله سهل عليه الصبر عن إطلاق البصر، وملاحقة المشاهد المثيرة هنا وهناك، وقبل أن نورد زمرةً من تلك المنافع دعني أسألك:

هل تأمَّلتَ يومًا هذه الآية:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤]؟.

إنها تتحدثُ عن أحبِّ الشَّهوات إلى الإنسان، وخاصَّةً شهوة النِّساء، والتي هي أضر فتنةٍ على الرجال؛ لعُنفها وشدتها وضَغطِهَا، ولهذا قدَّمها على بقية الشهوات في الذِّكْر.

ولكن هل تأملت يومًا الآية التي بعدها؟ إنَّ كثيرًا من الناس يمر عليها ولا يربطها بما قبلها، ولعلَّ السببَ أنَّ الآيةَ المذكورة تقع في نهاية الحزب، فإذا بلغها القارئُ في التلاوة ورأى علامة انتهاء الحزب فكأن هناك انفكاكًا شُعُوريًّا عنده أنَّ التي بعدها منفصلة عنها، على الرغم من كونها رُكنًا في تتمة المعنى، ونصُّها:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥].

والمعنى: إنَّ من اتقى الله وصبر عن شهوة النساء في الدنيا التي زُينت للناس أكرمه الله بجناتٍ خالدًا فيها أبدًا، فلا موت ولا ألم ولا فقر ولا شدة ولا حزن ولا هم ولا غم، وله فيها أزواجٌ مطهرةٌ من الدنس والخبث، لا يتعرضن لحيض ولا نفاس ولا بول ولا غائط، وأعظم من ذلك كله يغمره ربُّنا برضوانه، فلا يسخط عليه أبدًا، فهناك الرضا والحبُّ والودُّ من الله، والتمتع برفقة الصالحين، والتنعم بنعيم رب العالمين.

فانظر -بالله عليك- يريد الله أن يكرمنا ويتفضل علينا، ويريد الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون أن يشيعوا الفاحشة بيننا، فيشتتوا دنيانا، ويفسدوا علينا ديننا وأخرانا، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

يريد المجرمون الذين ينشرون ثقافة التبرج، والمواد الهابطة أن يسرقوا منا كلَّ ذلك النعيم، ويجعلونا نعاني السيئات، ونتكبد بذلك قلة التوفيق وضياع الأوقات، وقسوة القلوب، ومنع إجابة الدعاء، ومحق البركة في الأرزاق، وضيق الصدر، والوحشة بيننا وبين ربنا جل وعلا..

فقاتل الله من فتننا في ديننا، وضيَّع حياءَنَا، وأفسد شبابنا وفتياتنا!.

آهٍ كم سرق الشيطان بِسُعَارِ الشَّهوات من عفتنا، فأحرق حسناتنا، وكاثر من سيئاتنا، وباعد بيننا وبين ربنا!.

عيون شبابنا وفتياتنا قد أرهقها النظر، ولو كانت ناطقةً لشكت، فوجب الترفق بها، واتقاء الله فيها.

والآن نُورِدُ بعضَ منافع غض البصر الذي هو في هذا الزمان بمنزلة القبض على الجمر، وأكثره من كلام **ابن القيم** ﷺ، ومن تلك المنافع هذه الخمس:

أولاً:

من غضَّ بصَرَهُ أورثَهُ الله حلاوةَ العبادةِ في قلبه[1]، فهو من أبهج الناس نفسًا، وأشرحهم صدرًا، يدرك جيدًا أنَّ النظرَ إذا كان له لذةٌ فإنَّ الغضَّ عنه أزكى وألذ، ألم تقرأ قول الله عن الغض: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور:٣٠]!.

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٠٦).

وتصوير ذلك برجلين صائمين، اشتد بهما الجوع وسط النهار، فعُرض عليهما الطعام، فأكل أحدهما، وصبر الآخر حتى أذَّنَ المغرب، فهذا وإن لم يأكل إلا أنَّ لذته أتم وأكمل، وهو الأكثر راحةً، والأحسن نفسية، والأرضى لربه، وهذه الفائدة يعرف سعرها من ذاقها ثم عوقب بفقدها.

ثانيًا:

غض البصر يكسب القلب نورًا يراه الإنسان في إقبال وفود الخيرات عليه من كل جانب، وإطلاق البصر يكسبه ظلمةً في قلبه يراها في تكاثف سحائب البلاء والضلالة والاشتغال بأسباب الشقاوة، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر، فإنه لما قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠] قال بعدها بأربع آيات: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

ثالثًا:

من غضَّ بصرَهُ عوضه الله بإطلاق بصيرته، فينفتح له من أبواب العلم والإيمان والفراسة الصادقة ما يجعله يزهد في فتن الصور والشهوات، وضد ذلك ما وصف الله به قوم لوط الذين أذلتهم شهواتهم فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمَه الذي هو فساد البصيرة، وهل يفلح من فسد عقله وانطمست بصيرته؟!.

ولهذا قال بعضهم: أطلق بصرك تنطفئ بصيرتك!.

رابعًا:

غض البصر يورث القلب ثباتًا وشجاعةً وقوةً وراحةً نفسيَّةً يجدها الطائع في نفسه، ويشعر بانطلاق القدم في الطاعات، أما المتبع هواه، المأسور لشهواته فيشعر بذلة تحيط به، وأبى الله إلا أن يذل من عصاه.

خامسًا:

أن غض البصر يفرِّغ قلب الإنسان للفكر في مصالحه وأعماله، والاشتغال بها، فتجده كثير الإنجازات عديد الطموحات، أما إطلاق البصر والتمادي فيه فيشتت عليه ذلك، وتنفرط عليه أموره، ويقع في اتباع الهوى والغفلة عن الله، وقد قال الله:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨][1].

والحق أنَّ هذه الفوائد جديرة بالعناية والاهتمام، وأن يضحى الإنسان في سبيل تحصيلها، وقديمًا قالوا: **من عرف أجور الأعمال هانت عليه في كل الأحوال**.

وكلما كان إيمان الإنسان أقوى، وإسلامه أحسن، وشعر بقوة انتمائه للدين، وقلة هزيمة الشيطان له كلما كان أعظم فضلاً، وأكثر أجرًا، حتى ربما يزيد عمله عن عمل قبيلةٍ بأسرها، يدل على ذلك ما أخرج **البخاري ومسلم** من حديث **أبي هريرة** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا**»[2]!.

ثانيًا: الخوف:

وهذا المنطلق يصنع التوازن بِضَمِّهِ للذي قبله، فإذا كان الله قد يغفر لعبدٍ ذنوبَ العمر في سجدة فإن الله قد يعذب إنسانًا في ذنبٍ واحدٍ؛ كتلك المرأة التي دخلت النار في هرَّة حبستها، فوجب إذن أن نعامل الله بحذر..

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٠٦، ١٢٥-١٢٧).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٥٣).

وكيف لا نعامله كذلك وهو الذي يقول صراحةً:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨]،

ويقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]!.

وكيف للإنسان أن يأمن وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]!.

وكيف له أن يضحك ملء فيه وهو يرى أنَّ الله عاقبَ آدم لَمَّا عصاه بالأكل من الشجرة بعشر عقوبات؛ فقد كُشفت عورته، وأُخْرِجَ من الجنة، وفُرِّق بينه وبين حواء في موضع الهبوط، وكان نزوله لدار الشقاء، وجُعلت سجنًا له ولذريته، وسُلِّط الشيطان عليه وعليهم، وجعل الله بعضهم لبعضٍ عدوًّا، وقُرن اسمه بوصف المعصية في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، وعوتب عتابًا لا نجد أثقل منه على النفس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف:٢٢]، وبدلَّه جلدًا مظلمًا بالظفر النَّيِّر؛ فقد ذكر **ابن عباس وقتادة وابن جبير** أن ثياب آدم كانت الظُّفر، فلما أكلا نُزع عنهما وبقي ما نرى على أطراف الأنامل؛ تذكرة بالمخالفة ليتجدد الندم والتوبة[1]!.

والمقصود أنَّ الإنسانَ إذا عامل الله بحذر، وسيطر عليه الخوف من جلال الله تعالى ضَعُفَت عنده سطوةُ الشهوات، فاندفع للإكثار من الطاعات، وسهل عليه ترك السيئات، أو الإقلال منها على الأقل.

(١) قصص القرآن لسعد يوسف أبو عزيز ص (٢٤-٢٥)، وذكر عقوبة تحويل الظفر لجلدٍ مظلم أبو حيان في تفسيره البحر المحيط (٤/ ٢٨٠)، علمًا بأن في المسألة أقوالاً عديدة.

والخوف اليوم ثمن الأمن غدًا، كما جاء في مسند الشاميين عن شداد بن أوس ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْمَعُ لِعَبدِي أَبَدًا أَمنَين وَلا خَوفَينِ إِنْ هو أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَومَ أَجمَعُ فِيهِ عِبَادِي، وَإِن هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنيا أَمَّنْتُهُ يَوم أَجمَعُ فِيهِ عِبَادِي»(١).

وهذا ما جاء واضحًا في المقطع الذي كشفه الله لنا من حديث أهل الجنة مع بعضهم بعضًا، وذلك في آية سورة الطور في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور:٢٥، ٢٦].

وبدوام هذا الشعور يسلك الإنسان مسلك الاستقامة على أمر الله، فلا يزيغ يمنة ولا يسرة، ويبقى كذلك حتى تحضر الملائكة لنزع روحه، وعند ذلك يُبَشَّرُ بالأمن؛ إذ لا فائدة الآن من بقاء الخوف؛ لانتهاء فرصة العمل والاستكثار من الخير، وهذا ما كشفه لنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

ثالثًا: الحياء:

وهذا المنطلق نافعٌ جدًّا في تحصيل العفاف..

وذلك أنَّ الحياءَ يجعل صاحبَهُ دقيقَ الإحساس، لا يستريح نفسيًّا إلا بفعلِ الحَسَنات وتركِ السيئات، فتجد الحييّ مثلاً يستحي من الله إذا أعطاه مالاً ألا ينفق منه، وإذا رزقه طعامًا ألا يطعم جاره أو من ينظر إليه، وإذا منحه عافيةً في بدنه ألا يذهب للجمعة والجماعات وثغور الجهاد، وإذا أعطاه لسانًا يستحيي من الله أن يسب به أو يكذب أو يشهد زورًا أو يُهينَ به إنسانًا، أو يخدش به شعورًا، وإذا رزقه الله عينين مبصرتين يستحيي أن ينظر بهما إلى الحرام، وإذا يسر الله له خلوةً يستحي من الله أن ينتهك حرماته فيها(٢).

(١) مسند الشاميين للطبراني، رقم الحديث: (٣٤٩٥).
(٢) هذه الأمثلة مستفادة من محاضرة للشيخ صالح المغامسي وفقه الله.

فهذا المقام له تأثير فعَّال في العلاج، ويزجر صاحبه على الأقل عن التمادي في الشر، وذكر **الذهبي** أنَّ رجلاً يسمى الجراح الحكمي قال: **تركت الذنوب حياءً أربعين عامًا**[1]، وهذه الكلمة وإن لم تَخْلُ من مبالغةٍ إلا أنها تدل على أهمية هذا المقام في التخفف من أثقال الذنوب بعد وقوعها، وفي التوقي عنها إذا قامت أسبابها.

وقد أكد هذا المعنى الإمام الفقيه **العز بن عبد السلام** فقال:

إنَّ العاقلَ إذا ما ذَكَرَ ما في النظرة المحرمة من التعزير والذم العاجل والعقاب الآجل زجره ذلك، وكذلك إذا ذكر اطلاع الرب حمله ألم الاستحياء والخجل على ترك المعصية، واجتناب لذاتها، ألا ترى أنَّ المريضَ يصبرُ على ألم مرارة الدواء لما يتوقع من لَذَّاتِ العافية[2]!.

وإذا كان العاقل يستحيي أن يراه فضلاء قومه على منقصةٍ.. فكيف لا يستحيي وهو يستشعر نظر الله إليه!، والله يقول في آية تسكب الحياء سكبًا في القلب: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨]، ويقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤].

ولهذا لما سُئل الجنيدُ المشهورُ بِدِقَّةِ الإشارات الإيمانية: كيف يتغلب العبدُ على إطلاق البصر؟ فقال: بعلمه أنَّ نظرَ الله إليه أسبق من نظره إلى ما ينظر إليه!.

وقبل توديع الكلام عن هذا المنطلق أشيرُ إلى عينةٍ مباركةٍ من الشباب إذا تقدم مستوى الواحد منهم إيمانيًّا فمن أكثر القضايا التي تؤرقه مسألة الحساب يوم القيامة، وما يحصل فيها من عتابٍ من الله تعالى له، وحتى لو قطع بمغفرة

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١٩٠).
(٢) قواعد الأحكام لابن عبد السلام (١/ ٢٠).

الله لـه والنجـاة مـن عقابـه فإنَّـهُ يبقـى قلقًـا مـن ألم العتـاب نفسـه، ولهـذا قـال **الفضيـل بـن عيـاض**: **وافضيحتـاه وإن غفـرت!**.

وذلـك أنَّ الإنسـانَ يشـعر بضغـط الحيـاء لـو راجعـه مخلـوقٌ مثلـه في عيـبٍ اقترفـه، فكيـف لـو عاتبـه ملـك الملـوك مالـك يـوم الديـن، وإلـه الأولـين والآخريـن!، ولهـذا فمـن الحَسَـنِ أن يكثـر الإنسـان مـن التـضرع لله بدخـول الجنـة بغـير حسـابٍ ولا عقـابٍ ولا عـذابٍ ولا عتـاب.

وعليـه؛ فـإذا أراد الله بعبـدٍ خـيرًا وفَّقَـهُ لتحصيـل الحيـاء اليـوم في الدنيـا؛ فإنـه ينجـي مـن الحيـاء غـدًا يـوم القيامـة؛ إذ مـن آتـاه الله الحيـاء قلـت سيئاتـه، وعندئـذٍ سـلم مـن الفضيحـة هنـاك يـوم تبلـى السـرائر، يـوم ينشـر كتـاب المـرء ويكـون مفتوحًـا مكشـوفًا بمـا فيـه من حسـناتٍ وسـيئات، لا يملـك صاحبـه إخفـاءه ولا تجاهلـه[1]، كمـا قـال الله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣]!. وطائـره أي: عملـه مـن خـيرٍ أو شر[2].

فـالله الله في الحيـاء!؛ فإنـه إن لم يحجـز الإنسـان عـن فعـل الذنـب.. فإنـه يحجـزه عـن الاسـتكثار منـه، والإصرار عليـه، فـما يجتمـع حيـاءٌ وإصرار، وصاحبـه حينئـذٍ ممـن إذا مسـهم طائـفٌ مـن الشـيطان تذكـروا فـإذا هـم مبـصرون.

رابعًا: الحب والشوق:

إن مـادة هـذا المنطلـق قـد تناثـرت في أجـزاء الكتـاب، وتجـد طرفًـا ظاهـرًا منهـا في منطلـق الرجـاء مـن هـذا المطلـب، وفي المطلـب السـادس الـذي بعنـوان: «**تبهيـت شـهوات الدنيـا بشـهوات الديـن**» مـن المبحـث الثـاني، وأزيـد هنـا فأقـول:

(١) صفوة التفاسير للصابوني (٢/ ١٤٢).
(٢) التفسير المنير للزحيلي (١٥/ ٣١).

ما أجمل أن تلتزم بالأمر حبًّا في الله، وشوقًا إلى جنته، فتشعر بلذاذة العلاقة معه، حتى إنك لتبكي وأنت تتلو آيات الوعد والجنة كما تبكي وأنت تتلو آيات الوعيد والنار!.

عندما تتصور شابًّا عقد على فتاة، ثم هو يشتاق لرؤيتها وزيارتها والجلوس معها فالعلاقة هنا أَجَلُّ من أن نقول: لا يصح له أن يقطعها التزامًا بالحق الاجتماعي عليه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ حُبٍّ وودٍّ وقرب، ولله المثل الأعلى؛ فالشاب الذي يحب الله تعالى يشتهي أن يجن عليه الليل للوقوف بين يديه، تجده ينام مبكرًا ليستيقظ مبكرًا ليتلذذ بطول القيام والركوع والسجود له، **يفعل العبادة تقربًا لا تهربًا، إخلاصًا لا تخلصًا**، لا يزال لسانه رطبًا بذكر الله، تسمع على لسانه دومًا: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، هاتان الكلمتان قال عنهما النبي عليه الصلاة والسلام: إنهما «**خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ**»(١)، تجد الناس يحرصون عليهما لخفتهما على اللسان، وثقلهما في الميزان، أما صاحبنا المحب المشتاق فيكثر منهما ولو كانتا ثقيلتين على اللسان خفيفتين في الميزان؛ لأنَّ المدارَ الأعظم عنده أنهما حبيبتان إلى الرحمن!.

من تخيل الجنة، وجلسات الصالحين فيها، وتَصَوَّرَ أنه يتمشى مع صفوته من أصدقائه على شواطئ جنات عدن مع **أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والمقداد** رضي الله عنهم، ثم قصدوا زيارة **نوح وإبراهيم ويوسف وأيوب**، ثم تواعدوا مع النبي ﷺ في سهرةٍ يحدثهم فيها عن البَعثة وأخبارها، والغزوات وأحداثها.. طاشت عنه لذائذ الشهوات، وكسدت عنده سوقُ السيئات، لا يبغي عن نعيم الطاعات حولاً.

فكيف لو تَخَيَّلَ مشهدَ الزيارةِ لله رب العالمين، ينظر إلى وجه الله الكريم كما ينظر إلى القمر ليلة البدر لا يُضام في رؤيته، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]!،

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٦٨٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٢١).

فهل يمكن لهذه الوجوه الناضرة النيرة المُشرقة أن تُصاب بالذلة بعد ذلك؟! معاذ الله، ولهذا متِّع عينك بتلاوة قول الله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس:٢٦]، أي: للذين أحسنوا الجنة، وزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، ولا يغشى وجوههم غبارٌ أو سوادٌ، ولا هوانٌ أو صغار[1]!.

فأي نفسية تدرك هذا ثم تقبل على سخط الله ومقته!.

ألا ما أنفعَ هذا المقامَ في غرس الصبر عن السيئات في قلوب المؤمنين، شوقًا إلى تلك المكارم!، يرون أنفسهم بعيني قلوبهم في جنة ربهم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]!!.

خامسًا: التعظيم:

من عظَّم الآمرَ رُزق تعظيمَ الأوَامِر، ومن ضعف تعظيمُ الله في قلبه رأيته يتفلت منها، ويبحث عن الحيل والمخارج لها، ولهذا وعظ الله عباده بتعظيم أمره، فقال في جانب السيئات: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠]، وقال في جانب الحسنات:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

وهذه محطةٌ رئيسةٌ في باب الوقاية والحراسة؛ فإنَّ من عظَّم أمر الله قزَّم أمر الشهوات، ومن استحوذ على تفكيره جلال الله وتعظيمه وتوقيره لم تذله ذنوبٌ ولا سيئات، فقلبه مشغولٌ بقضية أكبر تهيمن على فكره وأحاسيسه، وليس من السهولة أن يُمَرر الشيطان عليه خدعة شهوانية، ولئن سها أو أذنب لم يتجاوز الصغائر وعادَ من قريبٍ عبر حبل التوبة العاجلة النصوح.

(١) صفوة التفاسير للصابوني (١/ ٥٤١).

ولهذا اهتمَّ النبي ﷺ بغرس التعظيم في نفوس الصحابة وتنميته كما يغرس الفلاح بذرته في الأرض وينميها حتى تنضِجَ وتُعجِب الزرَّاع، فكان ﷺ يطيل الركوع جدًّا، ومبنى الركوع على التعظيم، حتى إنه ليجعله قريبًا من القيام، وأطاله مرةً بمقدار تلاوة سورة البقرة، فركوع المصلي على قدر تعظيمه لربه، فقارن بين هذه اللفتة النبوية وبين معاناة المصلي اليوم خلف كثيرٍ من الأئمة في إكمال التسبيحات الثلاث، حتى صار أداء الصلاة أشبه ما يكون بالمقاولات التي يراد إنجازها في أقصر الأوقات وبأقل التكليفات!.

ودعا وصيفةً[1] له يومًا فأبطأت، فقال: «لولا مَخَافَةُ الْقَوَدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لأَوْجَعْتُكِ بِهَذَا السِّوَاكِ»[2]، فإذا رأت الخادمة أنَّ أعظمَ الأمة قدرًا وأشرفها وأتقاها يخشى الله ويخاف القصاص للمظلوم من الظالم حتى لو كان التعزير بالسواك يقع في قلبها أنَّ الله عظيمٌ يستحق أن تُعَظِّمَ أوامِرُه وتُوقَّرَ شعائره.

ولهذا كان تعظيم الإنسان لربه على قدر معرفته به، فأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالاً، وقد ذم الله ﷻ من لم يعظمه حق عظمته فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] قال **سعيد بن جبير**: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[3].

إنَّ هذه الآية التي تأخذ بالألباب لكفيلةٌ أن تجعل من يسمع كلمة «حرام» مضطرب الحال، قد اهتز كيانُه وارتجت أحاسيسُهُ، كما لو مشى شخصٌ في حقلٍ وأُخْبِرَ أنَّ في طريقه ألغامًا متفجرة، لكن الواقع أنه لا ينتفع بهذا الوعظ والتذكير إلا من كان لديه رصيدٌ من خشية الله، اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠].

---

(١) أي خادمة، ويقال للخادم وصيف كذلك؛ لأنهما يوصفان عند البيع. انظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ١١٥).

(٢) المعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث: (٨٨٩) وضعفه الألباني، وقال المنذري: جاء بأسانيد أحدها جيد.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٩٥).

ومن هنا قال **ابن القيم** وأحسن القول:

لـو تَمَكَّـنَ وقـارُ الله وعظمتـه في قلـب العبـد مـا تجـرأ عـلى معاصيـه؛ فـإنَّ تعظيـمَ حرماتـه يحـول بينـه وبـين الذنـوب، والمتجـرئ عـلى معاصيـه مـا قـدر ربَّـهُ حـقَّ قـدره..

ومـن بعـض عقوبـة هـذا: أن يرفـعَ اللهُ ﷻ مهابتـه مـن قلـوب الخلـق، ويهـون عليهـم ويسـتخفون بـه كـما هـان عليـه أمـر الله واسـتخف بـه، فعـلى قـدر محبـة العبـد لله يحبـه النـاس، وعـلى قـدر تعظيمـه لله وحرماتـه يُعَظِّـمُ النـاسُ حرماتِـه، وإلا كيـف ينتهـك عبـدٌ حرمـاتِ الله ويطمـع ألا ينتهـك النـاس حرماتـه!..

أم كيف يهون عليه حق الله ولا يُهينُهُ أمام الناس!..

أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق!..

فمـن ضيَّـع ديـنَ الله ضيَّعَـهُ الله، ومـن يُهِـنِ الله فـما لـه مـن مكـرم، ومـن ذا الـذي يكـرم مـن أهانـه الله، أو يُهِـين مـن أكرمـه الله[1]!!.

وإنَّ مـن أعظـمَ الظلـم والجهـل أن تطلـب التعظيـم والتوقـير مـن النـاس وقلبـك خـالٍ مـن تعظيـم الله وتوقـيره[2].

والمقصـود أنَّ الإنسـانَ إذا ربَّـى نفسـه عـلى تعظيـم الله وتعظيـم أوامـره أصبـح هيَّابًـا مـن جنـاب الله، يخـاف أن يتـورط باقتحـام سـور السـيئات، وانتهـاك الحُرُمَـات، ولئـن وقـع في الذنـوب عـاد إلى ربِّـه عـن قريـبٍ، ومـلأ الأرض بالاسـتغفار العاجـل والتوبـة النصـوح والحسـنات الماحيـة، وموجبـات المغفـرة المُكَفِّـرة.

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (٤٦).
(٢) الفوائد لابن القيم ص (١٨٧).

سادسًا: التذلل لله:

وبعض العلماء يستحبُّ أن يُعبِّرَ عنه بالخضوع؛ لأنَّهُ اللفظُ الواردُ في النُّصوص، والأمر واسعٌ.

وهذا المقام يقل فيه الزحام، ومن فضائله أنه يجعل صاحبه سهلَ التحرك بتحريك النصوص له، يستدير بسهولةٍ ولينٍ بحسب تسيير الشريعة له.

ويَعْرِفُ المتقدمُ في العبادة أنه **على قدر التذلل يكون التلذذ**، فهذا المقام هو النكهةُ العجيبةُ التي تُجَوِّد طعمَ العبادة، فتجعل للصلاة والاستغفار والتوبة والدعاء مذاقًا آخر!.

ويظهر أنَّ **طاووس التابعي** أدرك هذه النكهة، فإنه قال: سمعت **زين العابدين** يقول في سجوده: **رب عُبَيدُكَ بين يديك، فَقِيرُكَ بين يديك، سائلك بين يديك، مِسكِينك بين يديك!** ثم قال: ما دعوت الله بهذا الدعاء يومًا إلا واستجاب لي!.

وأرجو منك -أيها الفاضل- أن تعيد قراءة هذا الدعاء بملاحظة جانب التذلل لله تعالى فيه، على أنَّ إجابةَ الدعاءِ منوطةٌ بأشياء منها: فقه المقال بالإضافة لحسن الحال وجودة الإقبال.

على أن العبد قد يكون صادقًا في دعائه، ويمكث فترات طويلة وهو يدعو ولا يشعر بالإجابة، ثم يأتي فضل الله إما بالاستقامة الكلية أو الأغلبية، فلا تيأس، فالفرج آت، وفضل الله واسع.

والحاجة لهذا المنطلق في باب معالجة ذنوب الشهوات عامة والنظر للحرام خاصة تكمن في أنه مهمٌّ جدًّا في الإلحاح على الله أن يحفظك من عذاب الشهوات، وأن يجعلك تنقاد لأمر الله بالعفاف والتقى، كما وله دورٌ فعَّال في حمل الإنسان على الالتزام بجرع الوقاية والعلاج كافة؛ لأنَّ المُسلمَ يتربَّى به على أن يكون وقَّافًا عند أمر الله، خاضعًا لأوامره، لا يعترض ولا يُبَرِّر ولا يكابر.

ومن هنا كان الذي يربي نفسه عليه مِمَّن حَامت سحائبُ التوفيقِ فوق قلبه، وهذا ما سطَّره **أبو طالب المكي** في كلمةٍ مهيبةٍ أستحبُّ لك حفظَها وتكريرَها وتعميمَها، ويعلم الله كم نشرتها بين إخواني، وذكرتُهَا في دروسي، وكتبتها على حسابي في الفيس بوك ونصها:

يقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البرِّ عليك من غير قصدٍ لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجأ والافتقار إلى الله ﷻ في الشدة والرخاء..

ويقال من علامات الخِذلان ثلاث: تَعَسُّر الخيرات عليك مع الطلبِ لها، وتيسر المعاصي لك مع الرهب منها، وغلق باب اللجأ والافتقار إلى الله ﷻ[1]!!.

سبحان الله العظيم!

يكرم الله عبده الموفق بفعل الطاعة من غير طلبٍ لها أو سعيٍ إليها، ويصرفه عن المعصية مع طلبه لها، ويفتح له باب اللجأ له والذل والانكسار بين يديه! وأضداد ذلك لمن أصابه الخِذلان ومسَّه الحرمان!.

أسأل الله جل وعلا أن يرزقني وإياك التوفيق، ويصرف عني وعنك أسباب الخِذلان وعوامل التعويق.

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١١٥).

المبحث الرابع

مسائل منثورة

هـذا المبحـث جعلتُـهُ لمسـائل منثـورةٍ لا يجمعُهَـا بـابٌ واحـد، وهـي مـن تتـمات الموضـوع ومُهِمَّاتِـه، وعددهـا سـبع، كل مسـألة لهـا مطلـبٌ يخصهـا، وإليـك سردهـا قبـل بـث الـكلام فيهـا:

١) التوسع في الذنوب اتكالاً على مغفرة الله ورحمته.

٢) يقول: عاهدت الله ألا أعصيه تلك المعصية لكني فعلت، فماذا عليَّ؟.

٣) داء العلاقات الثنائية.

٤) حكم النظر للأمرد، وفقه التعامل معه.

٥) إشاراتُ حمراء بخصوص الفاحشة الكبرى.

٦) التربية الإعلامية للأطفال إزاء استعمال الانترنت.

٧) عرفـت جُـرَع العـلاج ووسـائل الوقايـة ثـم أقـع مـرةً بعـد مـرة، فـماذا أفعـل؟.

ودونك الكلام على هذه المسائل أخي الفاضل:

المطلب الأول

التَّوسُّع في الذنوب اتكالاً على مغفرة الله ورحمته

من المواقف المتكررة أن يأتي الشاب ينصح صديقه أو أي إنسانٍ آخر، وينكر عليه معصيته بطريقةٍ مؤدبةٍ، فيرد الذي نُصح ويقول: يا شيخ؛ إنَّ الله غفورٌ رحيم!!.

يا الله، ما أبردَ هذا الرد!.

أنا لا أرى فيه ندمًا ولا اعتذارًا ولا استجابةً للنصيحة ولا إقلاعًا عن المعصية؛ بل آنسُ فيه استهتارًا وإصرارًا على ما هو فيه، وأمنًا من مكر الله، إذن ما رسالةُ الردِّ بهذه الكلمة الجليلة التي هي محلِّ إجماع، وهي التي ندعو بها الناس للتوبة، ونسكب بها بَرْدَ الأملِ والسَّكِينةِ والطمأنينة في قلب اليائس المحبط؟!.

وإعانة لك على تصور المشهد:

تخيَّل أنَّ شابًّا في الثانوية سبَّ أمه، وضرب أخته، وسهر ليلةً عند أصحابه دون إذنٍ من أبيه فاشتد غضب الوالد عليه، وأراد ضربه، لكن الولد هربَ من البيت، وقصد أخواله ليتشفعوا له عند أبيه أن يعود للبيت مع السلامة من العقوبة.

وجاء أخواله وكلَّمُوا الأب، لكنهم وجدوه مُصِرًّا على العقوبة، فأخذوا يذكرون له أنَّ الولد نادمٌ يعتذر، وأنه لن يعود لمثلها، وأنه مستعدٌّ للقيام بكذا وكذا من أعمال البيت، وأنه يحسن الظن بك خيرًا؛ فأنت الأب الحنون الذي جرت عادته بالمسامحة والعفو.

أرى أفكارك الذهنية تتوجَّهُ إلى أنَّ هذه المعطيات ستنتهي بمسامحة الرجل ولدَهُ، وإعادته إلى رحاب بيته..

لكن تخيل بالله عليك لو أنَّ الولد قال لمن سيتشفع له عند أبيه: إنَّ أبي حنون، وقلبه طيب، وإني لن أعتذر، ولن أقلع عن التحكم في إخوتي، وضرب من شئت منهم، ثم إنَّهُ من حقي أن أسهرَ خارج البيت كما أريد، وهو في النهاية أبي، وأعرف أنه حنون، ومطلوبٌ منه أن يسامحني ولو بقيت على ذلك!.

لعلك تقول في نفسك: هل هذا هو موضع الاستدلال بأنَّ الوالدَ يسامح ويعفو ويصفح؟!.

إنَّ هذا الجوابَ يُوجب تتابع المزيد من العقوبات وتكاثفها عليه، وما ذنب قلة مبالاته وعدم اكتراثه بأهون من ذنبه الأول!.

وبالعودة إلى موضوعنا فإنَّ ذلك الجوابَ لا ينطلي على عاقل، وإن تغلَّف في ألفاظٍ ذهبيَّة؛ لما ينطوي عليه من قلةِ أدبٍ قائلِهِ مع الله تعالى، والاستخفاف بأوامره ونواهيه، ولو تمكَّنَ تعظيمُ الله في قلبه لما تجرَّأَ أن ينطق به، ولبكى الدم وهو يتلو قول الله تعالى:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣].

ولهذا لما بلغ هذا الجواب البارد **ابن القيم**، وكيف يتعلل العاصي بأن الله غفورٌ رحيم، راح يقول: هو والله فوق ذلك، فالله أجلُّ وأكرمُ وأجودُ وأرحم، ولكن إنَّما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوفٌ بالحكمةِ والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة، وإنما ينفع حسن الظن من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، فهذا حسن ظن، والأول غرور[1].

وكأني **بابن القيم** يقول:

إنَّ هذا الجواب مقبولٌ ممن جاء نادمًا مستغفرًا تائبًا، منشغلاً بعمل الحسنات الماحية، أما رجاؤه لرحمة من لا يطيعه فإنه من الحمق والخذلان كما نقل هو ذلك عن أحد السلف[2].

ثم إنَّ هذه الشبهةَ مقتضاها إبطال نصوص الوعيد، وأن الله لن يعذب أحدًا من عصاة المسلمين؛ لأنه غفورٌ رحيم! مع أنَّ النصوص جاءت تخبر بعذاب أنواعٍ من المسلمين صراحةً، منهم الذي يغل من الغنيمة، والآمر بالمعروف غير العامل به، والمغتاب، والنائم عن الصلاة، والتارك للقرآن، والزاني، وشارب الخمر، والقاتل، والمرابي، والمجاهد والعالم والمنفق ممن لم يخلص لله في ذلك، ومن أخذ شبرًا من أرض غيره بغير حق[3]، وغير ذلك مما هو مبثوثٌ في كتب السُّنَّة بأسانيد صحيحة كالشمس.

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٥).
(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٥).
(٣) انظر الجواب الكافي لابن القيم ص (١٦-٢١).

ومن هنا رأى الإمام **الشافعي** أنَّ الأمنَ من مكر الله كبيرةٌ من الكبائر؛ لأن ذلك في الواقع استرسالٌ في المعاصي اتكالاً على عفو الله، وقال الحنفية: إنه كفرٌ كاليأس من رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩][1].

ودعنا نعد **لابن القيم** في جوابه عن ذلك؛ فإنه أتى بكلام ذي نفاسةٍ ما ينبغي أن يهمل، ومن ذلك قوله:

وهل حسن الظن بالله ممن هو مقيمٌ على مساخط ربه، مضيعٌ لأوامره، مُعَطِّل لحقوقه إلا من خدع النفوس وغرور الأماني!..

وقد قال **أبو أُمَامَةَ**: دَخَلْتُ أَنَا يَوْمًا **وَعُرْوَةُ** عَلَى **عَائِشَةَ** ﵂ فَقَالَتْ: لَوْ رَأَيْتُمَا نَبِيَّ اللهِ ﷺ فِي مَرْضَةٍ مَرِضَهَا، وَكَانَتْ لَهُ عِنْدِي سِتَّةُ دَنَانِيرَ أو سَبْعَة فَأَمَرَنِي نَبِيُّ اللهِ ﷺ أَنْ أُفَرِّقَهَا، فَشَغَلَنِي وَجَعُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى عَافَاهُ اللهُ، ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْهَا فَقَالَ: «**أَكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ أَوِ السَّبْعَةَ؟**». قَالَتْ: لاَ وَاللهِ؛ شَغَلَنِي وَجَعُكَ، قَالَتْ: فَدَعَا بِهَا ثُمَّ فَرَّقَهَا فَقَالَ: «**مَا ظَنُّ نَبِيِّ اللهِ لَوْ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ عِنْدَهُ**»[2]!!..

فيا لله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوا الله ومظالم العباد عندهم!، فإن كان ينفعهم قولهم: حسنًّا ظنوننا بك.. لم يُعَذِّب ظالمٌ ولا فاسق، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، ولينتهك الحرمات، وليتوسع في ذنوب الشهوات، وليقتحم سور الأعراض، وليحسن ظنه بالله، وأن النار لا تمسه، فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد[3]!.

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/ ١٦٥٩).
(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (٢٤٧٣٣)، وقال الألباني: إسناده حسن.
(٣) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٤).

وعليه؛ فإنَّ حسنَ الظن بالله إن حمل على العمل فهو صحيح، وإن دعا إلى الانهماك في المعاصي فهو غرور..

ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من ثمرتها ما ينفعه، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها وأحسن ظنه بأنه يأتي ذلك من غير حرثٍ وبذرٍ وسقيٍ وتعاهدٍ للأرض.. لَعَدَّهُ الناسُ من أسفه السفهاء، فكذلك من حسَّن ظنَّهُ في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة، بل وبالإقامة على المعصية، وقد قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨] فتأمَّل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات الثلاث: الإيمان والهجرة والجهاد كثمنٍ للرجاء فيما عند الله[1]!.

وهذا ما يَدُلُّ عليه قولُ الله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، فذكر الله أربعة أشياء هي بمثابة الثمن للمغفرة الإلهية العظيمة.

وبعد هذه الرَّشقةِ من القذائف الإيمانية التي أطلقها **ابن القيم** لا بد أن يتوجه عددٌ من الأسئلةِ لهذا الذي غرَّهُ حلمُ الله حتى أقام على معصيته، وتعلَّلَ بِمَغفرةِ الله ورحمته:

ما مقدار الجرعة الإيمانية الذي يحملك على الاستيقاظ من سَكَرِ الشهوات؟.

وهل يشترط أن ينزل بالبلاد زلزالٌ مُدَمِّر أو صاعقةٌ من السماء أو مرض يشل أركانك حتى تنتبه من رقادك، وتغار على حرمات الله وتُقلع؟.

وهل تنتظر حدثًا عنيفًا مدويًّا كعلامةٍ إلهيةٍ تردعك لتتوب وتعدل مسارَ حياتك؟.

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (٢٤).

أم لا بد أن تُفقأ عيناك حتى تُجبر على العفة عن النظر للحرام، فيكون عمى البصر شرطًا لنور البصيرة؟!.

بالله عليك؛ ماذا عليك لو عدت للعفة من غير فقدٍ للبصر، وقيامِ أحداثٍ عنيفةٍ مدوية، وكنت بذلك من الذين يأتون إلى ربهم طوعًا لا كرهًا، حبًّا فيه وشوقًا إليه، ورغبةً فيما عنده، ودخولاً في عباده الصالحين، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، ولا له فيهم نصيب!.

والحاصل: أنَّ الرجاءَ في مغفرةِ الله ورحمته لا بد معه من عملٍ وحذر.

وإنَّ من أراد أن يعرف قيمةَ المغفرة فليسأل مُعتَكِفًا جرَّب الاعتكاف في رمضان، فإنه يستوطن بيت الله عشرة أيام متتابعة، ويتعبَّدُ لله أكثر الوقت، وتجده يدرك جيِّدًا أنَّ أعظمَ فضلٍ يخرج به هو التحصُّل على مغفرةِ الله ورحمتِهِ، ويتوسل للفوز بذلك بالدعاء ليلاً ونهارًا صباحًا ومساءً على مدار الأيام العشرة في أدعيةٍ فرديةٍ وجماعية، ويطيل الصلاة والسجود وهو يلح على الله أن يغفر له.

المطلب الثاني

يقول: عاهدت الله ألا أعصيه تلك المعصية لكني فعلت، فماذا عليَّ؟

من الأسئلة المتكررة في هذا الباب:

عاهدت الله ألا أنظرَ إلى الحرام، أو لا أستمني، أو لا أفعل ذلك الذنب، لكني عُدت لهذا بعد ذلك، والذي جعلني أفعل ذلك أنَّهُ السبيل الذي يحملني على الإقلاع عن الذنب، وينجح في أكثر الأحيان، لكني أسقط أحيانًا، فماذا عليّ؟.

أقول:

إن المداخل لحَملِ النَّفسِ على فعل شيءٍ أو تركه ثلاثة: اليمين والنذر والعهد، وأُبَيِّنُ الحكم هنا في غاية الاختصار، ومن غير توسعٍ في الأقوال، فموضع بسط ذلك هو كتب الفقه المذهبي والمُقارَنَ.

أما اليمين؛ فإنه إذا حلف يمينًا ألا يعصي تلك المعصية مطلقًا، أو في فترةٍ زمنيةٍ ما.. فهو لا يعدو أن يكون مجردَ تأكيدٍ على الترك؛ لأنَّ تركَ المعصية واجبٌ شرعًا، فإن عصى فعليه كفارةُ يمين على الرَّاجح؛ لأنَّ الذنبَ أصبح واجبَ الترك من جهتين: أصل التحريم واليمين، فلما نكث اليمين وجب أن يُكَفِّر عنه، والكفارة هي إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون به أهليكم، أو كسوتهم، ويمكنه أن يُخرِجَ قيمةَ ذلك مالاً، فإن لم يستطع صام ثلاثة أيام متتابعة أو متفرقة.

وأما النذر؛ فكما لو قال: إن نظرتُ إلى الحرام، أو فعلت ذلك الذنب.. فسأصوم يومًا أو أتصدق بعشرة دراهم، فهذا من نذر الطاعة المبالغ فيه، وهو يخرجُ مخرجَ اليمين الذي يقصد به التأكيد كنذر اللجاج والغضب[1]، وهو ما يقصد به الناذر حثَّ نفسِهِ على فعل شيءٍ ما، أو منعَها من شيءٍ ما.

وحُكْمُهُ: أنه إذا وجد الشرط؛ وهو المعاودة للذنب هنا.. فإنه يُخيَّر بين ما التزم به؛ وهو هنا صيام يوم أو التصدق بعشرة دراهم، أو يُكَفِّر كفارة يمين؛ لما أخرج مسلمٌ من حديث **عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ** ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ**»[2].

يقول الإمام **الشربيني**: وذلك أنَّ هذا النوع يشبه النذر من حيث إنه التزامُ قربةٍ لله، ويشبه اليمين من حيث المنع للنفس من مقارفة شيء، ولا سبيلَ إلى الجمع بين موجبيهما، ولا إلى تعطيلهما كذلك، فوجب التخيير[3].

وخرج من حديث الوفاء بالنذر لشبهه باليمين[4].

وأما العهد؛ فقد اختلف العلماءُ في تكييفه، والذي يتوجه هو رأيُ الشافعيَّةِ من أنَّ العهدَ من كنايات اليمين، فيكون يمينًا بالنية.

فلو قال: علي عَهْدُ الله لا أفعل ذلك الذنب.. فلا يُعدُّ يمينًا إلا بالنية؛ لأنه يحتمل غير اليمين احتمالاً ظاهرًا[5]، ويُعَدُّ يمينًا بالنية، ويدل على احتساب العهد يمينًا قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]؛ فسمى العهد يمينًا.

---

(١) شرح الصدور في بيان أحكام النذور لمحمد سليمان الفرا ص (٥).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤٣٤٢).
(٣) مغني المحتاج للشربيني (٤/ ٣٥٥)، كفاية الأخيار للحصني ص (٥٤١).
(٤) حاشية عميرة (٤/ ٢٨٩).
(٥) نهاية المحتاج للرملي (٨/ ١٧٨).

وعليه؛ فإن نوى بالعهد اليمين وخالف وعصى.. استغفر وتاب وكفَّر كفارة يمين، وإلا.. فلا، وأما إن لم يقصد عين اليمين؛ وإنما قصد المبالغة في إلزام النفس بالعفة وزجرها عن الحرام.. فإنه يخرج مخرج اليمين أيضًا، ويعامل معاملته.

وبعد هذا العرض الفقهي المختصر أُنبِّه على أنَّ هذا السلوك يدل على حساسية الشاب المؤمن من الذنب، وأنه يلتمس رضوانَ الله عبرَ زجرِ النفس وحملها على الالتزام بالعفاف بمثل هذه المواثيق، لكن لا بد أن يُنتبه أنَّ هذا جزءٌ يسيرٌ من العلاج، ولا بد معه من جُرع العلاج ووسائل الوقاية والاحتراس التي اجتهدنا في تقريرها في صفحات هذا الكتاب.

وأعظ من عاهد ربه على شيءٍ أن يستفرغ وسعه وجهده في الالتزام به؛ فإنَّ شأنَ العهد شأنٌ عظيم، ومن هنا قال الإمام أحمد: العهد شديدٌ في عشرة مواضع من كتاب الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤][1]!.

فطوبى لعبدٍ صدق في عهده مع الله، وله البشرى عندئذٍ بدخوله فيمن امتدحهم الله بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣]!.

(١) المغني لابن قدامة (١١/ ١٨٠).

المطلب الثالث

داءُ العَلاقات الثُّنَائيَّة

منذ فترةٍ وأنا أرى داء العَلاقات الثُّنائية في ازدياد، وهو داءٌ خبيث ومرضٌ عضال، يصيب أهل الصلاح والالتزام كما يصيب غيرهم، واعتناءً بهذه القضية الخطيرة أعرضها في ثلاثة أفرع:

الفرع الأول: حقيقة داء العلاقات الثنائية، وأعراض المصاب به.

الفرع الثاني: أسباب الداء ومداخله.

الفرع الثالث: علاجه.

والآن إلى التفصيل بعون الجليل:

الفرع الأول: حقيقةُ داء العلاقات الثنائية، وأعراضُ المُصابِ به:

المقصود بالعَلاقات الثنائية تعلق شخص بآخر تعلقًا مبالغًا فيه؛ لدوافع نفسيةٍ عاطفية.

فتجد المُبتلى به يُحِبُّ صاحبَهُ حبًّا جمًّا، ويتعلق به تعلقًا قلبيًّا شديدًا، بحيث يسيطر على تفكيره، ولا يستطيع مفارقته، ولا مخالفة أمره.

وفي الغالب يكون المحبوب جميلاً أو أمرد، وسيأتي الكلام عليه، وقد يكون غير ذلك، وقد يكون المُحب هو الأمرد، والمحبوب ليس بأمرد، ومرد ذلك غالبًا أن يتوفر في المحبوب شيءٌ يفقده المُحب.

ويصل التعلق بالمحب أنه يريد تملكَ المَحبُوب، حتى لكأنه زوجته بل أشد، فيغضب إذا رآه يمشي مع غيره، ويريد منه أن يطلعه على أسراره، وكلما كان جلوسه معه على انفرادٍ وخلوةٍ كلما كان أمتع له، ويغار عليه.

ومن شدة التعلق يصبح المُحِبُّ كالصرَّاف الآلي للمحبوب، فبمجرد شعور المحب برغبة المحبوب في شيءٍ ما فإنه يوفره له، فهو الذي يشحن له رصيد جواله، ويشتري له ملابسه، وينفق عليه حوائجه، وتكاليف نزهاته الترفيهية.

ومع مرور الوقت تنقلب العلاقةُ من غلوٍّ في المحبة إلى علاقةٍ هي أشبه بعلاقة السيد بالعبد، فيصبح المُحب عبدًا للمحبوب، لا يقوى على مخالفة أمره، ولديه استعدادٌ أن يفعل المستحيل مقابل رضا المحبوب عنه، في حين لا يفعل هذا مع أمه أو زوجته، والإشكال أنَّ المحبوبَ في كثيرٍ من الأحيان يبدأ يمارس وظيفة السيد؛ فيعرض عن المحب لو خالف أوامره، وقد لا يرد عليه لو اتصل به، ويصبح المحب يستجدي المحبوب أن يرد عليه، ويتصل به عشرات المرات، وربما مئات المرات في اليوم الواحد، ويرسل له رسائل تتضمن أنه محبٌّ له، ومُعذب بسبب إعراضه، ومتأسفٌ فيما لو فعل شيئًا يُغضبه، وأنه غير مستغن عنه، وأنه يتوسله أن يكف عن ذلك، حتى قال لي أحد من ابتُلي بذلك ثم عوفي منه: والله لقد توسلت إليه إلى حدٍّ لو توسلت لله مثله لكنت اليوم عالمًا كبيرًا من العلماء!.

نعم! يصبح المحب عبدًا والمحبوب سيدًا، يقود عبده كما تقاد البهيمة سواء بسواء!.

ولو أظهر المحبُّ ضجرَهُ، وشعر المحبوب أن هذا بداية التمرد عليه، وأنه سيخرج من قيد العبودية له.. فإنه يتلطف به من جديد ليعيده إلى القيد مرةً أخرى، لا سيما أنَّ العلاقةَ وصلت إلى درجة الاستفادة المادية منه، وقد يكون المحب صاحب موقعٍ ما يمكنه أن ينجز بعض مصالح المحبوب.

والغالب في هذه الفترة أن تشهد العلاقة تطورًا مشينًا بالانتقال من محطةٍ لأخرى أخس منها، فتبدأ العلاقة بالإعجاب العام، ثم بالإعجاب الخاص والشعور بالتملك، ثم يصبح يشتهيه، ويلتذ بمصافحته، والنظر إلى مفاتنه، ويدخل في محطة التخيلات الخبيثة بأنه يفعل الفاحشة به، وقد تصل العلاقة في بعض الأحيان لِفعلِ الفاحشةِ التي لم يَسبِق قومَ لوطٍ بها من أحدٍ من العالمين.

إذن نحن أمام مرضٍ عضالٍ بحق، يفسد على المحب حياته الاجتماعية، ويُعكر له صفوه، ويُخرب له بيته، ولسنا أمام صحبة طبيعية أبدًا، وإن ادعى صاحبها غير ذلك.

وهذا المرض لا يختص بالعُزَّاب؛ بل قد يكون أحدهما أو كلاهما متزوجًا، ولا اعتبار للعمر في ذلك؛ فقد يكون الفارق العمري بينهما مدهشًا.

والعجيب أنَّ الأدوارَ قد تتبدَّل في وسط الطريق؛ فالذي يعجب بالآخر هو الأمرد، ثم يُعجب به الآخر، حتى يتعلق به، وتبدأ الحكاية.

الفرع الثاني: أسبابُ داء العلاقات الثنائية ومداخله:

هناك جملةٌ من الأسبابِ تُفضِي إلى هذا المرض، من أهمها ثلاثة، كلُّ واحدٍ منها يُفضي لما بعده:

الأول: أنَّ المحبوبَ يكون جميلاً أو أمرد، حسن الوجه، يجذب من رآه، فتبدأ العلاقة من الإعجاب والجمال.

ومن الأشياء التي تُهيِّج الإعجابَ عنده أن يكون المحبوبُ معتادًا على ارتداء الملابس الجميلة، وبعضها قد يكون فتَّانًا؛ كأن يكون البنطال ضيِّقًا والقميص قصيرًا، بالإضافةِ إلى طريقةِ حَلْقِهِ لِشَعْرِه، وربما كان متورطًا بالنمص، وهو أخذ شعر الحاجبين لترقيقهما والعياذ بالله.

الثاني: الصداقة العاطفية، فهي صداقةٌ من نوعٍ خاص، وبعض الشباب يدخل إليها من بوابة الحب في الله، فتجده يخبر المحبوب ويرسل له دومًا بأنه يحبه في الله، ويذكر له أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّ الرجلَ إذا أحب أخاه فليعلمه، وهذا تشخيصٌ بارد، وهو كذبٌ في نفسه؛ لأنَّ المدحَ تعلق بالحبِّ في الله، وهذا ليس حبًّا في الله، ولا تدل القرائن عليه، ولا يزيد إيمانًا وتعلقًا بالله، وحتى لو كان لله ففيه قدرٌ كبيرٌ من هوى النفس، فيبقى كما قال الله في الخمر: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، والحق أنَّ ذلك مرضٌ شيطانيٌّ محض، لكنَّ صاحبَهُ غلَّف هذه البعرة القذرة بثوب الحلل الذهبية، وأقصد بذلك أنَّ هذا الداء يستهدف الملتزمين وغيرهم، وما ينبغي أن تستدعى النصوص لتسويغ شرور النفس وآفاتها.

وفي هذه المرحلة تبدأ رحلةُ رسائلِ الحُبِّ والود والشوق، والعتاب عند التأخر أو الغياب، وربما عانقه كلما رآه، على سبيل المبالغة في المحبة الصادقة المزعومة.

الثالث: الجلسات الثنائية، وهذه نتيجةٌ متوقعةٌ للصداقة التي حصلت، وقد تكون بمبرراتٍ صحيحةٍ في أول الأمر، لكنَّ دوامَهَا ليس صِحِّيًّا، وذلك مِن مثل أنه يريد أن يُدَرِّسَه، أو يدرس معه، أو يهديه، أو يحل مشاكله، وتستمر العلاقة كذلك حتى ندخل طور التعلق القلبي، ويصبح كل طرف منجذبًا للآخر، وخلال أيامٍ معدودةٍ من ذلك يكون قد استحكم الداء، وبدأت المسيرة السوداء.

وقد تتقدم العلاقةُ في هذه المرحلة حتى تصل درجة الاشتهاء، فيصبح المحب يتلذذ بمصافحة محبوبه، وربما عبث بشعره، وأخذ يختلس النظر إلى مفاتنه، ولا يوجد أبلغ في توصيف ذلك من قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، فهل رأيت أبلغ من هذا النص في التعبير عن العين الخائنة!.

ويمكن القول: إنَّ المراحلَ ثلاث: الأولى: إعجاب، والثانية: تعلق وحب، والثالثة: علاقةٌ هي أشبه بعلاقة سيدٍ بعبد، أو ما هو أكثر من ذلك.

الفرع الثالث: علاج داء العلاقات الثنائية:

باستحضار أنَّ الحقيقةَ المؤلمةَ أحسنُ من الوهم المريح أقول: إنَّ العلاجَ الوحيدَ لمرض العلاقات الثنائية هو القطع التام، والانفصال المطلق..

وإنَّ مَثَلَ الواقعِ في هذا المرض مثل الواقع في حفرةٍ من طين، وهو يرتدي أحسن الثياب، فمهما حاولت تنظيفه وهو منغمسٌ فيها فلن يتطهر، لكن إذا أخرجته منها ولو كان في ذلك عناءٌ وشِدَّة، ثم أجلسته بعيدًا عنها.. فإنك بدلوين اثنين من الماء تنظفه.

وعليه؛ فلا يمكن أن يبرأ من دائه وهو متلطخٌ بأسبابه، كما لو وضعت الزيت على النار وطلبت ألا تزيد اشتعالاً على اشتعال!.

وأما الألم الناتج عن القطع الحاد؛ فإنه أهون على شِدَّتِهِ من دوام الآلام مع الحلول الجزئية، وبمثل هذا القطع نعظ أمثال المدخن، فليتحمل الوجع لأيام أو أسابيع أو أشهر على أبعد تقدير، ثم يتمتع بالعافية بقية العمر إن شاء الله.

ونظرًا لحساسية هذا الداء تواصلتُ مع أكثر من شخصيةٍ من كبار رجال التربية والصحة النفسية، وأذكر أني قلتُ لأحدهم: إنَّ العلاجَ الذي نطرحه في الساحةِ التربويَّةِ والإيمانية هو القطع التام، فما طبيعة العلاج الذي عندكم؟ قال: القطع، والقطع فقط!!.

فعجبت من هذا التوافق التام، فقلت له: ألا يوجد جلسات نفسية وحبوب يتلقاها المريض مثلاً؟ فقال: عامة ما عندنا يقوم على التوجيهات التربوية والنفسية، والإقناع بالقطع التام!.

إذن.. لا بديلَ عن قطع العلاقة قطعًا باتًّا، فلا صداقةَ ولا تواصلَ ولا رسائلَ أخوية ولا جلسات ثنائية؛ بل علاقةٌ تقتصرُ على ردِّ السَّلام وما يكون بين عامة الناس من حدود التعامل الرسمي.

وأنبه على أنَّ الشخصَ المُحبَّ قد لا يستطيع أخذ قرار القطع بنفسه، فينبغي أن يُوجدَ من يقف معه في هذه المرحلة الحساسة ويعينه في ذلك، من مِثْلِ شيخٍ أو محفظٍ أو صديقٍ أو مُرَبٍّ، أو شخصٍ له تأثير عليه، وعلى المُحب المبتلى أن يتحمل زجر هؤلاء بهذا الخصوص، ولا يتهرب منهم، حتى يخرج معافىً بسلامٍ إن شاء الله.

فإن لم يقطع؟!.

فالنتيجة في ذلك واضحةٌ جدًّا؛ سيستمر حبل الجحيم في صورة النعيم حتى يحصل القطع الذي فرَّ منه اضطرارًا لا اختيارًا، نعم، سيصل المُحِبُّ إلى درجةٍ من بُغضِ المحبوبِ لا يعلم أنه أبغض أحدًا في حياته مثلَه، حتى إنَّ حُضورَ صورتِهِ في ذهنه لكفيلٌ أن يُدخِلَ النَّكدَ عليه!..

ومن الأفكار التي تُسَيطِرُ على المُحِبِّ بعد القطعِ الاضطراري: فلان هو الذي كان سببًا في اختلال أحوال بيتي، وتعكير صفو نفسي، وتدميري اجتماعيًّا، وجعلي مادةً تُلاك على الألسنة، فلان الذي كان يستغلني ماديًّا لمصالحه، وكل ما أنا فيه من العذابِ إنما هو بسببه، وغير ذلك من الأفكار التي يستبعد معها أن يقبل المُحِبُّ أن يجلس في مجلسٍ يحضره المحبوب أصلاً!.

وإعانةً على تحصيلِ القطعِ الاختياريِّ أعظُ المبتلى بأربع نصائح:

الأولى: الصبر على ذلك، فعلاج الشهوات واللذائذ مبناه على الصبر، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وباب الصبر إذا انضم للعلم المفضي لليقين.. فإنَّه يأخذ بصاحبه إلى سبيل الإمامة في الدين، كما يقول ربنا سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فلا تستبدل الذي

هو أدنى بالذي هو خير.

الثانية: الحياء من الله تعالى، فهذه الجرعة التي تقررت في الكتاب تعاتب المتورط بهذا الداء: كيف تُعلق قلبك بغير الله؟! إذ لو اشتغل القلب بالعلم بالله وبنصرة دينه وبالعلم النافع والعمل الصالح ما اتسع لمثل هذه التفاهات.

الثالثة: لا بد من شغل النفس بما هو خير، وذلك أنك إذا قطعت محبوبك فلربما يبقى حاضرًا في الذهن، وعند ذلك يستوجب أن تملأ وقتك بالأعمال النافعة، ويمكن أن تجعلها من جنس الأشياء المرغوبة لديك؛ من علمٍ أو عملٍ أو مهنةٍ أو جهاد، بحيث لا تجد فراغًا للتفكير بصاحبك إلا قليلاً، وسيزول بذلك من نفسك شيئًا فشيئًا.

ومثال ذلك: أنك لو أتيت بكأسٍ فيه ماء، وأردت أن تملأه بالشاي، فلا سبيل لك إلا إذا فرَّغته من الماء أولاً، ولو رحت تصب الشاي مع وجود الماء فإنَّ الماءَ سيفيض خارجًا، ويبدأ لونُ الماء يصطبغ بلون الشاي، فإذا واصلت ذلك خرج الماء كله، وأصبح الكأس شايًا كله..

وكذلك هنا؛ فقلبك مليءٌ بعد القطع بصاحبك، والأولى أن تملأه بما هو نافع بدلاً عنه، فإن شق عليك وزاحمتك صورته راكمتَ الأعمال الفاضلة على نفسك، ومع دوامك عليها فإنه يخرج من قلبك يومًا بعد يوم، حتى لا يبقى منه شيء، فاصبر على ذلك، وتذكر دومًا أن الله يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب.

الرابعة: وهذه أهمها، وقد أخَّرتها لقوة تأثيرها، وهي أن يلقي نفسه بين يدي رجلٍ صالح، يحسن أن يتفهم حالته ومشكلته، ويتابع معه، ويستجيب له، وينزجر بكلامه، فهذا له دورٌ قويٌّ في سُرعَةِ الشفاءِ بإذن الله تعالى.

المطلب الرابع

حكمُ النَّظَرِ للأمرَد، وفقهُ التعاملِ معه

سَبقَ في المطلبِ الفائتِ أنَّ العلاقةَ مع الأمرد سببٌ مهمٌّ في الإصابةِ بداءِ العلاقات الثنائية، لكنَّ قضيةَ الأمردِ متشعبةٌ تَهُمُّ المصابَ بتلك العلاقات وغيرَه، فوجب عدمُ التهيبِ من طرحها كما هو منهج بعض الأفاضل، لا سيما وأنها قضية قُتِلَت بحثًا عند المتقدمين، وكلامهم بخصوصها واضحٌ جدًّا، والحاجةُ إليها اليوم ماسَّةٌ جدًّا.

وأعرض هذه المسألةَ في ثلاثةِ أفرع: الأول: حكم النظر إلى الأمرد، والثاني: فقه التعامل معه، والثالث: فقه تعامل الأمرد مع غيره، وإليك تبيان ذلك:

الفرع الأول: حكم النظر إلى الأمرد:

لا بد أن يُعلم أولاً أنَّ الأمردَ هو الشاب الذي لم تنبت له لحية، وضابطه: أن يكون جميلاً بحسب طبع الناظر ولو كان أسود البشرة؛ لأنَّ الحُسن يختلف باختلاف الطباع، أما إذا لم يكن جميلاً فقد نص الحنفية والشافعية على أنه يأخذ حكم غيره من الرجال[1].

إذا تقرر هذا فاعلم أنَّ النظرَ إلى المردان ثلاثة أقسام:

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ٤٠٧)، مغني المحتاج للشربيني (٣/ ١٣٠)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٥٢).

أحدها: ما تقترن به الشهوة، فهذا محرمٌ باتفاق العلماء، ولا يختصُّ هذا بالأمرد؛ بل النظر إلى الملتحي وإلى النساء المحارم بالشهوة حرامٌ قطعًا كذلك[1].

والنظر بشهوة حرامٌ سواء كانت الشهوة تمتعًا بالنظر، أو نظرًا بشهوة الوطء[2].

وضابط الشهوة: أن يتأثر بجمال صورة الأمرد؛ بحيث يرى من نفسه الفرقَ بينه وبين الملتحي، فهذا لا يحل له النظر، وإن نَظَرَ والحَالةُ هذه كان آثمًا[3].

قال **الغزالي**: فإن قلت: كل ذي حِسٍّ يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة!.. فأقول: لست أعني تفرقة العين فقط، فهذا كالتفريق بين شجرة عليها أزهارها وشجرة تساقطت أوراقها، فالإنسان يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه، ولكن ميلاً خاليًا عن الشهوة، ولأجل ذلك لا يشتهي ملامسة الأزهار ولا تقبيلها، ولكن المقصود أن توجد تفرقةٌ بين الوجه الجميل والنبات الحسن، فالنظر يكون عندئذٍ نظر شهوة، وهو حرام، وهذا مما يتهاون به الناس، ويجرهم إلى المعاطب وهم لا يشعرون، ولهذا قال بعضُ التابعين: ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب العابد من غلامٍ أمرد يجلس إليه[4].

وهذا الذي دفع **ابن القيم** أن يقول: فإنَّ إطلاقَ النظر إليهم هو السمُّ الناقع والداءُ العضال، ولهذا كان **إبراهيم النخعي وسفيان الثوري** وغيرهما من السلف ينهون عن مجالسة المردان[5].

---

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ٤٠٧)، مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب الرعيني (٥/ ٢٢-٢٣)، مغني المحتاج للشربيني (٣/ ١٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٤١٧).
(٣) مغني المحتاج للشربيني (٣/ ١٣٠-١٣١)، نهاية المحتاج للرملي (٦/ ١٩٢).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١٠٢).
(٥) روضة المحبين لابن القيم ص (١٠٤-١٠٥).

الثاني: ما يُجزم أنه لا شهوة معه، ولا خوف فتنة به، فقد اختلف العلماء فيه على قولين:

الأول: لا يحرم، وهذا قول جمهور العلماء[1]، فالناظر هنا لا يفرق بين وجه الأمرد وغيره، ولا يخطر بقلبه شيءٌ من الشهوة؛ لأنه لم يعتد ذلك، وهو سليم القلب من ذلك، أشبه بغير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء.

الثاني: يحرم، وهو مذهب الشافعية، قال النووي: النظر إلى الأمرد الحسن من غير حاجةٍ حرام، سواء كان بشهوةٍ أو لا، وسواء أمن الفتنةَ أو لا؛ لأنه في معنى المرأة، بل ربما تَسَهَّلَ من طرق الشر في حقِّهِ ما لا يتسهل في حق المرأة، فكان تحريمه أولى، وجاز النظرُ في حالِ البيعِ والشراء والأخذ والإعطاء والتطبب والتعليم ونحوها بمقدار الحاجة للضرورة[2].

وقال **الشربيني**: ويحرم النظر للأمرد وإن أمن الفتنة؛ لأنه مظنة الفتنة؛ بل هو أعظم إثمًا من النظر للمرأة الأجنبية؛ لأنه لا يحل بحال، ومتى حرم النظر حرم لمسه؛ لأنه أبلغ من النظر في اللذة وإثارة الشهوة، وعلى ذلك فتحرم مصافحته ومعانقته والخلوة به[3].

---

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ٤٠٧)، الإنصاف للمرداوي (٨/ ٢٣)، منح الجليل شرح مختصر خليل لعليش (٢/ ٣٠٢)، فقه العبادات على المذهب المالكي للحاجة دربة العيطي ص (١٤٣)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٤١٨)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص (٦٩)، المجموع للنووي (٨/ ٤٧)، نهاية المحتاج للرملي (٦/ ١٩٢).

(٣) مغني المحتاج للشربيني (٣/ ١٣٢، ١٣٥) ١٣١، المجموع للنووي (٤/ ٦٣٥، ٦٣٨).

وقد انتصر للقول الأول أكثر من شخصيةٍ شافعيَّةٍ، منهم **الغزالي**[1] **والسبكي والبلقيني**، ونكتفي هنا بإيراد قول **السبكي** إيجازًا، فإنه قال: من الصعب إيجاب غض البصر عنهم مطلقًا، وإنما ذلك عند توقع الفتنة فقط، ويرد الأمر به أحوالُ الناس ومخالطتهم من عصر الصحابة إلى الآن، إذ لم يؤمروا بغض البصر عنهم في كل حالٍ كالنساء[2]..

وهذا الذي يترجح؛ لأنَّ الأصلَ حلُّ النظرِ إلى الرجال إلا عند الشهوة أو احتمال الفتنة، وهذان الأمرانِ مُنتفيانِ هنا، ولِما في الأمر به في حق الأمرد من الحرج والتضييق، لا سيما وأن الصبيان جيلٌ عرمرم، والله أعلم.

الثالث: النظر إلى الأمرد بغير شهوة، لكن مع خوف ثورانها، وهذا فيه ثلاثة أوجه عند العلماء أيضًا:

الأول: يجوز ذلك؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ ثوران الشهوة.

والثاني: يكره ذلك؛ احتياطًا للدين، واستبراءً للعِرض.

والثالث: لا يجوز؛ لأنه مظنة وقوع الفتنة، واعتمد هذا القول **ابن تيمية**، واحتج له بأنَّ الأصلَ أنَّ كلَّ ما كان سببًا للفتنة أنه لا يجوز[3].

والذي يترجح للباحث هو التفصيل؛ فإن كان الرجل من أهل الصلاح، وممن تُؤمَنُ عليه الفتنة فيجوز له النظر، أما إن ضَعُفَ صلاحُهُ، وكان ممن تُخشى عليه الفتنة، بحيث لو نظر فقد يتفاعل مع هذا النظر، وتتردد عليه الخواطرُ الخبيثة، وربما فكَّر في نَسْجِ علاقة معه، وتوغل في هذا السبيل.. فهذا لا يجوز له النظر؛ لأنه مظنةٌ لوقوعه في الفتنة، والمظنة تُنزل منزلة المئنة واليقين في الفروع الفقهية..

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٤٧).
(٢) مغني المحتاج للشربيني (٣/ ١٣١).
(٣) الإنصاف للمرداوي (٨/ ٢٤)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٤١٧-٤١٩).

وفي هذا حسمٌ لمادة الشَّرِّ التي يمكن أن تُوصِل إلى التعلق القلبي الذي يتكون بسببه مرضُ العلاقات الثنائية، أو تُفضي للإصابة بداء العشق للمردان، والذي نفَّر منه **ابن القيم** بكلامٍ زاجرٍ حاد؛ إذ قال:

من أنواع العشق ما هو مقتٌ عند الله، ويُعدٌ من رحمته، وهو أضرُّ شيءٍ على العبد في دينه ودنياه؛ وهو عشقُ المُردان فما ابتُلِي به إلا من سقط من عين الله، وطُرِدَ عن بابه، وأُبْعِدَ قلبُه عنه، وهو من أعظم الحُجُبِ القاطعة عن الله كما قال بعض السلف: إذا سقط العبدُ من عين الله ابتلاه بمحبة المردان، وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت، وما أُتُوا إلا من هذا العشق، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]..

ودواء هذا الداء الرَّدِي هو الاستعانةُ بمقلب القلوب، وصدق اللجوء إليه، والاشتغال بذكره، والتعويض بحبه وقربه، والتفكر بالألم الذي يعقبه هذا العشق، واللذة التي تفوته به[1].

والخُلاصَة: إن النظر للأمرد بشهوة حرامٌ بإجماع العلماء، والنظر إليه بغير شهوة، وعند أمن الفتنة جائز، أما النظر عند انتفاء الشهوة لكن مع احتمال ثوران الشهوة فيجوز في حق الرجل الصالح الذي تؤمن عليه الفتنة، ولا يجوز في حق من ضَعُفَ إيمانه وصلاحُه، ممن لا تُؤمَنُ عليه الفتنة.

الفرع الثاني: فقه التعامل مع الأمرد:

يمكن ردُّ أحوالِ النَّاسِ في التَّعَاملِ مع الأمرد إلى ثلاثِ حالات: الأولى: أصل العلاقة الاجتماعية الطبيعية، والثانية: التعلق القلبي به، والثالثة: عشقه.

أما بخصوصِ الحالةِ الأولى فأقول: لا ينبغي المبالغة في تجنب الأمرد، فهذا

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (١٧٣-١٧٤).

يؤذيه في نفسيته، ومجرد أنَّ الشاب يكون جميلاً فهذا لا يمنع من صداقته، والانتفاع من التزامه وخُلُقِهِ وعلمه، ما دام لا يلتذ بالنظر إليه، ولا يشعر نحوه بميلٍ خاصٍّ غير الميل الاجتماعي الفطري الذي يكون بين سائر الناس[1].

وفي نفس الوقت لا يتبسَّطُ الإنسانُ في التعامل معه خشية الفتنة، وتكون العلاقة قائمةً على الجدية، أما حيث خُشيت الفتنة فيتجنبه إلا من معاملته بقدر الحاجة، ويجتهد في حفظ قلبه وجوارحه[2].

والحالة الثانية: من لديه تعلقٌ قلبيٌّ به، فهذا يمنع نفسَهُ من النظر، ويقطع علاقته به قطعًا باتًّا، ولا علاجَ إلا ذلك كما مرَّ في المطلب الفائت، وإذا حرم النظر حرُم ما فوقه بطريق الأولى، من نحو لَمْسِهِ وتقبيلِه ومعانقته[3].

وقد ذكر **ابن الحاج المالكي** أنَّ جريمة اللوطيةَ ثلاثُ مراتب: أولها: التمتع بالنظر المحرم، والثانية: اللمس والمعانقة، والثالثة: الفاحشة الكبرى والعياذ بالله[4].

والحالة الثَّالثةُ: من لديه عشقٌ له، وهذا لا بد فيه من القطع، وأما علاجه فقد فصَّل فيه **ابن القيم** ﷺ في كتابيه: **الداء والدواء وروضة المحبين**، فينظر فيهما من احتاجه.

الفرع الثالث: فقه تعامل الأمرد مع غيره:

لا بد أن يَعلمَ الأمردُ ابتداءً أنه يمر بمرحلةٍ طبيعية، وإن كانت قاسية، وهي مُؤَقَّتَة، وهذه التشريعات التي تتضمن بعض القيود في بعض الحالات إنما هي حماية له، وحماية لغيره من التضرر في الدين.

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية، رقم الفتوى: (٥٧٥٤٠).
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/ ٢٥٣).
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٥٤٣).
(٤) المدخل لابن الحاج (٢/ ٨-٩).

ثم ينبغي أن يحمد الله تعالى على نعمة الجمال، لا أن يتبرمَ منها، فربنا جل وعلا هو من أكرمه بهذا الشكل، وليس هذا من تصرفه، وليس له من الأمر شيء، والله تعالى ذو الحكمة البالغة في قدره وأمره، ولهذا عليه أن يطمئن، وألا يشعر بالذنب.

وأما ما يتعلق بالناس، والتقييد الوارد في حق بعضهم؛ فهذا في دائرة تكليفهم هم لا في دائرة تكليفه هو، وهذا ما يصلحهم هم، وعليه أن يصبر على لأواء هذه المرحلة.

ثم ينبغي أن يدرك أنَّ الناسَ ليسوا على درجةٍ واحدةٍ من الصلاح، حتى في الدوائر الملتزمة، فبعض الناس قد يكون مريضًا بداء التعلق القلبي أو الافتتان بالمردان فلا يعينه على ذلك، ولهذا لا يلبس ثيابًا فاتنة، ولا يتكلم بالكلام اللين، ولا يخرج للأماكن التي فيها الفتنة إلا بقدر الحاجة[1]، وليتفهم أنَّ بعضَ الناس لا يصلحه إلا أن يصرف بصره..

وعليه أن ينتبه أنَّ هذا لا يتعلق به فقط؛ فقد نص العلماءُ أنَّ النظرَ بشهوةٍ لأي إنسان كان، ذكرًا أو أنثى، له لحيةٌ أو لا، من المحارم أو لا.. لا يجوز[2]، ثم إننا نزجر كل شاب أن يلبس الثياب الفاتنة، أو يتكلم بالكلام اللين، أو يقصد أماكن الفتنة، لكننا نؤكد هنا على مثل هذه التوجيهات احتياطًا في الدين، بل نقول: لا يليق بأمةٍ شاهدةٍ على الناس أنيط بها إظهار هذا الدين على الدين كله دعوةً وجهادًا وهي ترجو جنةً عرضها السماوات والأرض أن يكون شبابها على هذه الشاكلة من التأنث أو التخنث!.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٤١٨).
(٢) مغني المحتاج للشربيني (٣/ ١٣٠).

وأما عن منهج التعامل؛ فينبغي ألا يكون لينًا بحيث يرد بردودٍ ناعمة، كما لا يكون صداميًّا يرد بردودٍ غليظة، وإنما يعتمد المنهجَ الوسطَ في ذلك، القائم على الجدية والرجولة، وبهذا لا يكون عرضة للاستغلال، ولا ينجر للتعامل مع ضعفاء الصلاح، ولا يتفاعل مع من يفاتحه في مثل هذه الموضوعات، بل يقطع الطريق عليهم؛ رحمةً به وبهم.

ولو وقع تحرش به فليس مسئولاً عنه، ولو نظر إليه بعض الضعفاء نظرات خائنة فالمشكلة في الناظر لا في المنظور.

وهناك نقطةٌ مهمةٌ جدًّا؛ وهي أنه لا يستغل انجذاب الناس إليه في إنجاز مصالحه وتلبية رغباته؛ بل ينبغي أن يزهد فيما بأيدي الناس، وهذه النصيحة تقال للعامة لكنها تتأكد في حقه خاصة.

والله الموفق، وهو المستعان، وعليه التكلان.

المطلب الخامس

إشاراتٌ حمراء بخصوصِ الفَاحشةِ الكبرَى

وأعني بها الزنا وكذلك اللواط.

والكلامُ في خُصُوصِ الفاحشةِ كلامٌ في دائرة الخطر، ولذا لا تُناسب اللغةُ الوعظيَّةُ الهادئة هنا، بل الحال كحالك فيما لو رأيت شابًّا يمشي في الطريق، ولم يلتزم الرَّصيف، ورأيت سيارةً مفرطة في السرعة تقترب منه، فإنك تنتزعه من الطريق ولو اضطرب أو تألَّم، ولا تعد ذلك إلا بردًا وسلامًا عليه.

ومن هنا نرى في النصوص الشرعية التي تُحَرِّمُ الفواحشَ زجرًا يملأ القلب رعبًا، يُصنف في منطلق الخوف المزعج الذي تقدم الكلام عليه في منطلقات العبد مع الرب .

وتماشيًا مع السياسة الشرعيَّةِ في ذلك أُثبت هنا عددًا من النصوص الزاجرة، لكن بين يدي ذلك أمهد بكلمةٍ واضحةِ المعالم في ظل أجواء الموضوع الذي نُعَالجه، فأقول:

اعلم أنَّ الشهوةَ لا حدَّ لها تنتهي إليه، وكلما زاد الناس من الفجور طلبوا مزيدًا من وسائل الإثارة، وفي العقود الماضية كان الناس لا يعرفون هذا المقدار من التعري، ولم يكن هناك تلفازٌ أو انترنت يعرض الفُحش والخنا، فكان الشاب إذا تزوج فأي تخفف من الثياب يثير شهوته، ولهذا يجد هناءه مع أهله..

ثم إنَّ انتشارَ ثقافة التعفف والمجتمعات المُحَافِظَة تجعل الشاب يتوجس من

التواصل مع الفتيات، فإذا تزوج كان في غاية الإقبال على أهله، فيكون قد قصد السبيل الصحيح لقضاء شهوته، وهذا يضاعف عليه النعمة والاستقرار النفسي والاجتماعي.

ومع التقدم التكنولوجي الذي سهَّل الاطلاع على العورات، وبأشكالٍ فاضحةٍ أصبح الإنسان يطلب شيئًا زائدًا على ذلك؛ كنتيجة طبيعية لعدم تعففه بغض البصر، وأضحت المادة الفاسدة المُقَدَّمَةُ تتعمد فتح آفاق من الحرام ما خطرت ببال الأولين، وأصبحنا نسمع بكتلةٍ من المصطلحات الجديدة من مثل المُهيجات الجنسية ومؤخرات القذف والمحاكاة الشهوانية لأولئك المجرمين، وبدأت بعض الأدواء السرطانية تظهر على الساحة ولو على قِلَّةٍ من مثل اللواط والمِثْلِيَّة وإتيان الرجل أهله في الدبر وزنا المحارم والخيانة الزوجية.

والحق أنَّ من سلك هذا المسلك من النذالة والتعاسة والذلة والانتكاسة يحتاج أن تلطمه لطمةً قويةً عنيفةً تقول له فيها: أين تتجه؟ هل فقدت عقلك؟ أم أن الشهوات تعمي وتُصِمّ؟ هل يرضيك أن تسقط في الوحل، وتلطخ نفسك بالقاذورات المُلَقَّبَةِ اليوم بالرومانسيات ثم تريد الخلاص من ذلك الوحل بكلمة؟!

أصارحك القول: إنك لا بد أن تتعب في ذات الله، وتقرر قرارًا جريئًا لا يستقر لك دونه قرار حتى تنقذ نفسك من هذا الرصيد الذي يتكون لك من النار وأنت ساهٍ غافل.

ويكفي أن تستحضر أنَّ العفَّةَ من جُملةِ المروءات، والمروءة لها تكاليف، والعفة عن الفواحش -ولو تورط الإنسان فيها يومًا- أمرٌ مقدورٌ عليه لا معجوزٌ عنه، ألا ترى أنَّ نهي الله عن الفواحش يحمل في نفسه دليلاً واضحًا أنَّ الشفاء من أدوائها ممكن؟! فإنه سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وما تشريع حد الزنا وعقوبة اللواط إلا دليلٌ على إمكان الترك لذلك الشر تمامًا.

وإن من لم ينزجر بالنصوص اليوم سينزجر في العذاب غدًا، فإنَّما خُلِقَت النار لإذابة القلوب القاسية.

وما أجملَ أن ينقاد الإنسان لأمر الله، ويوجه الشهوة في موضعها الحقيقي!.

والله لا أحسنَ ولا أمتعَ ولا أنفعَ من مُجَاراةِ الفطرة والامتثال للوحي! فتجده طيبًا طاهرًا نظيفًا عفيفًا، لا ينظر للحرام، ولا يعرف المُهَيِّجَات، ولا تضييع الأموال والأوقات، ولا التفريط بالمروءة والأخلاق، ولا يقتحم سور العفاف، ولا يقع في دنس الفواحش والشهوات، ولو خيَّرتَهُ بين لذائذ الطهارة والعفاف وبين خبائث الزيغ والفساد والفواحش ولو أتيحت له.. لاتهمك في عقلك، ونطق من فوره: معاذ الله؛ إنه ربي أحسن مثواي!.

وصدق **ابن القيم** وربي لَمَّا قال في كلمةٍ تشتم فيها عبَقَ فتحِ الله عليه:

لو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور، وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أنَّ الذي فاته من اللذة أضعافُ أضعاف ما حصل له، فضلاً عن ربح العاقبة، والفوز بثواب الله وكرامته[1]!.

أمَّا أن يقتحم الإنسان سُورَ العفاف، وينتهك الحرمات، فينظر للحرام، ويقضي لياليه متنقلاً من مقطعٍ لآخر، ثم يتوغل في دروب الإثم، فيتواصل مع الفتيات، ويحادث ويراسل، إلى أن التقى ولمس وقبَّل، وربما دنس الفراش، واقترف الفاحشة الكبرى، من مثل اللواط، أو الإتيان في الدبر، أو الزنا، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وتشوش بذلك ما بينه وبين الله.. فهذا -والله- هو التدمير الحقيقي للنفس والنفسية والأسرة والحياة الزوجية والاجتماعية، وهو التعاسة في الدنيا والخسران في الآخرة!.

(١) روضة المحبين ص (٣٦١-٣٦٢).

فانظر -بالله عليك- إلى عظمة الشريعة لَمَّا حرمت عليك الخطوة الأولى، وهي إطلاق البصر، في نصٍّ قرآنيٍّ مختوم بوعيدٍ يستقر في النفوس بأبلغ بيان وأجود تعبير: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]! فمن استجاب استراح من كامل السلسلةِ الطويلةِ الآثمة، وسعد في الدنيا والآخرة!.

والآن أعير القلم **لابن القيم** ليُنذِرَ ويُحَذِّرَ ويُوردَ من النصوص الزاجرة ما تحصل به التربية، وتُغرس به العفة، وذلك في كتابه الذي خصص أكثره لمثل هذه الأدواء، وهو «**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**»، فننتقي منه جُملاً متفرقة ننظمها بتصرفٍ في عقدٍ واحد، وقد نزيد جملاً يسيرة نعزوها لأصحابها، فإنه قال:

حقيقٌ بكلِّ عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وآفاتها، وسبيل الزنا واللواط فيهما هلاك الأولين والآخرين، ويفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات، ولهذا جعل الله سبيل الزنا شر سبيل فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فإذا كانت هذه سبيل الزنا فكيف بسبيل جريمة اللواط التي تعدل الفعلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنا[١]!.

فأما سبيل الزنا فهو أسوأ سبيل، ومستقر أرواح الزناة في البرزخ في تنور من نارٍ، يأتيهم لهبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث الطويل عند **البخاري**[٢].

وفي صحيح **ابن خزيمة** أنَّ النبيَّ ﷺ مر بقوم أَشَدِّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا، وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، كَأَنَّ رِيحَهم المَرَاحِيض، فقال: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي[٣]!.

---

(١) روضة المحبين ص (٣٥٢).
(٢) انظر صحيح البخاري، حديث رقم: (١٣٨٦).
(٣) صحيح ابن خزيمة، رقم الحديث: (١٩٨٦). صححه الألباني.

وعند مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»[1].

ويكفي في قبح الزنا أنَّ الله سبحانه -مع كمال رحمته- شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها[2]، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيبَ فاعله[3]!.

ثم إنَّ الزنا يجمع خلال الشر، من قلة الدين، وفساد المروءة، وقلة الغيرة والحياء، وخيانة العهد، فلا تجد زانيًا معه وفاء بعهد ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق[4].

وعقوبات الزاني المعنوية أكثر من أن تُعد، ومنها: ضيق صدره وحرجه؛ معاملةً بنقيض قصده؛ فإنَّ ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خيرٍ قط..

وكذلك الوحشة التي تعلو وجهه، حتى إنَّ من جالسه استوحش، وكذلك قلة الهيبة التي تُنزَعُ من صدورِ أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقرُ شيءٍ في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف..

ومن أشدها كذلك أنَّ الناسَ ينظرون إليه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحدٌ على عرضه، ولا على ولده[5]، فأي أرض خربة موحلة موحشة يلقي الزاني نفسه فيها بعد كل ذلك!!.

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٠٩). ومعنى عائل: فقير.
(٢) إشارة إلى رجم المحصَن، وهو المتزوج أو من سبق له الزواج.
(٣) روضة المحبين ص (٣٥٩).
(٤) روضة المحبين ص (٣٦٠).
(٥) روضة المحبين ص (٣٦١-٣٦٢).

وأما سبيل اللوطية فتلك سبيل الهالكين، المفضية بسالكها إلى منازل المعذبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمةٍ من الأمم، لا من تأخر عنهم ولا من تقدم، وجعل ديارهم وآثارهم عبرةً للمعتبرين وموعظةً للمتقين.

وقد ورد أنَّ **خالدَ بن الوليد** ﷺ كتب إلى **أبي بكر الصديق** ﷺ أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً يُنكح كما تنكح المرأة، فجمع **أبو بكر** ﷺ لذلك ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم، فكان **علي** ﷺ أشدهم قولاً فيه فقال: إنَّ هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة، فصنع الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فأحرقوه بالنار!..

وقال **عمر** وجماعة من الصحابة والتابعين: يُرجَمُ بالحجارةِ حتى الموت، أحصن أو لم يحصن، ووافقه على ذلك **مالك وأحمد**، وقال **ابن عباس** ﷺ: ينظر أعلى بناء في المدينة فيرمى منه مُنَكَّسًا، ثم يتبع بالحجارة، وكأنه استفاد ذلك من قصة قوم لوط كما سيأتي بعد أسطر معدودات.

وذهبت طائفة منهم **الشافعي وأحمد** في رواية أنه يرجم إن أحصن، ويجلد إن لم يحصن.

إذن فالصحابة ﷺ متفقون على قتله وإنما اختلفوا في كيفية قتله، ولا نزاع بينهم إلا في إلحاقه بالزاني أو قتله مطلقًا.

وعلى كلٍّ فالصحيح أن عقوبة اللوطي أغلظ من عقوبة الزاني؛ لإجماع الصحابة على ذلك، ولغلظ حرمته، وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمة بمثل ما عاقب اللوطية[1]، وهي جريمةٌ لا تكاد تجدها في الوحوش والبهائم.

(١) روضة المحبين ص (٣٦٣-٣٦٥).

وأما قصة لوط مع قومه؛ فإنَّ قومَهُ كانوا يأتون الرجال شهوةً من دون النساء، فدعاهم **لوط** عليه السلام إلى العِفَّة، ونهاهم عمَّا هم فيه، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]!، فحقت عليهم كلمة العذاب.

ولما جاءت الملائكة إلى **لوطٍ** في هيئة بشر انطلقت العجوز زوجة لوط إلى قومه وقالت: لقد تضيَّف لوطًا الليلةَ قومٌ ما رأيت قط أحسن وجوهًا ولا أطيب ريحًا منهم، فأقبلوا يُهرَعُون إليه حتى دفعوا الباب، ثم كادوا أن يقلبوه عليهم، فخرج عليهم **جبريل** عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة طمست أعينهم، فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتى عمي، وباتوا بشر ليلةٍ ينتظرون العذاب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [القمر:٣٧، ٣٨]..

وسار **لوط** بأهله، وجاء **جبريل** عليه السلام فاحتمل مدائنهم حتى سمع أهل سماء الدنيا نبيح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل، وجاء العذاب على أهل بواديهم وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم فلم ينفلت منهم إنسان[1]!.

وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سور من القرآن، وهي: سورة الأعراف وهود والحجر والأنبياء والفرقان والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات واقتربت الساعة، وجمع على القوم بين عمى الأبصار وخسف الديار والقذف بالأحجار ودخول النار، وقال مُحَذِّرًا لمن عمل عملهم ما حل بهم من العذاب الشديد ما جاء على لسان **شعيب**: وما قوم لوط منكم ببعيد[2].

(١) روضة المحبين ص (٣٦٦-٣٦٨).
(٢) روضة المحبين ص (٣٧٣)، والآية من سورة هود، ورقمها (٨٩).

وجاء التحذيرُ الزاجر كذلك في جملةٍ من الأحاديث النبوية، في لغةٍ شديدةٍ قلَّ نظيرها، ومن ذلك ما أخرج **أحمد** في مسنده عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[1]!!. قال **شعيب الأرنؤوط**: إسناده جيد، وصححه الألباني.

وعند أصحاب السنن إلا **النسائي** عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»[2]. قال الألباني: حسن صحيح.

وأخرج **الترمذي وابن ماجه** عَنْ **جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ»[3]. صححه الألباني. وأضاف هنا صيغة أفعل التفضيل «أخوف» إلى «ما»، وهي نكرة موصوفة؛ ليدل على أنه إذا استقصى الأشياء المخوف منها شيئًا بعد شيء.. لم يجد شيئًا أخوف من فعل قوم لوط[4]!.

ومع هذه التشديد الرعيب إلا أن باب التوبة ما زال مفتوحًا لمن تورط في هذا المرض الخطير، فإنه سبحانه قال:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٧]!.

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (٢٨١٧).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٤٦٤)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٤٥٦)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٥٦١).
(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٤٥٧)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٥٦٣).
(٤) مرقاة المفاتيح للقاري (١١/ ١٩٩).

وقبل أن أدع القلم هنا لا بد من تنويه بالرؤية الغربية اليوم للـواط:

فإنَّ الرؤيةَ المعتمدةَ اليوم هناك أنَّ اللواطَ اختيارٌ شخصيٌّ ليس من حقِّ أحدٍ التدخل فيه، ولا بد من إخراجه من كونه انحرافًا جنسيًّا ليصبح نوعًا من الاختلاف الطبيعي بين البشر، وهو يهدف إلى تقليل الضغوط النفسية على صاحبه، ولا بد أن نعين الشاذ ليقبل نفسه في مواجهة رفض المجتمع له، وطالما أنه راضٍ عن سلوكه الشاذ فلا داعي للتشديد عليه، لا سيما وأنه لا علاج عندهم للشذوذ الجنسي، وبالتالي بدلاً من مقاومته لا بد من الاعتراف به!.

وكنتيجة لهذه الرؤية قامت عدة حفلات زواج بشكل علني فيما بينهم، وأصبح لهم جمعية خاصة تدافع عنهم، ولم يعد الشواذ يستحيون من إعلان شذوذهم.

هذه خلاصة بعض التقارير التي تتكلم عن الشذوذ الجنسي، ويتخوف أصحابها أن تتسرب هذه الرؤية إلى الشرق الإسلامي بحكم أن هناك انبهارًا بالحضارة الغربية عند شرذمةٍ من بني جلدتنا يعمي أصحابه عن قواعد الشريعة نفسها في هذه الأبواب.

وقبل الرد الموجز على الرؤية الغربية لا بد أن نستحضر أن هذا الطرح أفحش من أن يُردَّ عليه، وأقبح في النفوس والفِطَر السليمة من تكلف الجواب عنه، ومع ذلك نقول: إنَّ الرؤيةَ الغربيَّةَ قامت على أساسين مهمين:

الأول: أنها لا تؤمن بحرمة الشذوذ أصلاً، وبالتالي لا رادع لهم من دينٍ يبكم الألسنة الداعية لهذا الفحش العلني.

والآخر: إنَّ هذه الرؤية قامت على فرضٍ نظريٍّ غير علمي البتة، وهو باطلٌ وغيرُ دقيقٍ في ذاته، وهو أنه لا علاج لذلك الشذوذ، فقد أثبتت التجارب التي

لا تحصى كثرةً تعافي العديد من المرضى بهذا السلوك الانحرافي[1]، ولو كان مرضًا لا فكاك منه لما أرسل الله سيدنا **لوطًا** عليه السلام ينهى قومه عن مقارفته، ولما أنزل عقوبةً فيه؛ لأنَّ عدلَ الله يأبى أن تقعَ عقوبةٌ على من لا يستطيع ردَّ ما وقع به..

ولا يختلف أحدٌ أنَّ مستحقَّ العقوبةِ إن لم يُعاقب؛ كأن تعطلت الحدود، أو فُعلت الفاحشة في الخفاء أنَّهُ مطالبٌ بالعفة عن ذلك، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فما دام أنَّه مكلفٌ بترك الفاحشة فهو من الوُسْعِ المقدور عليه، وهذا الأمر ظاهرٌ بيِّنٌ لا يحتاج لتقريرٍ إلا أنَّ التنبيهَ على الواضحات عند الحاجة لا يلزم أن يكون من المُعضلات.

وفي ظني أنَّ التخلصَ منه لَمَّا كان يحتاج إلى عزمٍ من صاحبه وتحملٍ لعناء الترك نزَّلوه منزلة العجز، وتوسعوا في رؤيتهم القائمة على الفحش أساسًا، وبدلاً من الطَّرحِ الذي يُعِينُ المصابَ به على الخلاص منه سلكوا ذلك المسلك الفاحش..

وتبقى التربيةُ الشرعيَّةُ الإسلاميةُ المؤيدةُ بنصوص الوحي، من نهي لوط لقومه عن هذا الداء، وما تقرر من أحاديث نبوية هي المعيار الدقيق الذي يبشر بالسلامة من الداء، متى توفرت العزيمة والإرادة، والله الموفق.

(١) انظر هذا وما قبله فيما كتبه د. عمرو أبو خليل في مقالة عن الشذوذ، وهي منشورة على الشبكة.

المطلب السادس

التربية الإعلامية للأطفال إزاء استعمال الانترنت

هناك اليوم شعورٌ بالقَلَقِ يَعُمُّ الآباءَ والأمهاتِ والمربين بسبب سوء استعمال الأطفال الصغار للانترنت، أو الإفراط في استعماله بما يُضَيِّعُ الأوقات، ويصيب الطموحات الشبابيةَ العلميَّةَ في مَقتَل.

ويحتار هؤلاء في الطرائق التربوية التي يعالجون بها أطفالهم، لا سيما وأنَّ الأطفالَ لا يخبرون أولياء الأمور بكل ما يجدونه داخل الشبكة، كما ويبقى مقدارٌ من الشك في نوعية المطالعات التي تستحوذ على أوقاتهم.

وقد أظهرت دراسةٌ قامت بها إحدى المؤسسات اليابانية على أطفالٍ تتراوح أعمارهم بين ٨ – ١٨ عامًا أنَّ ٧٠ ٪ من هؤلاء يمتلكون هواتف نقالة خاصة بهم، وأنه لا علاقة لدخل الأسرة ومستواها المعيشي بامتلاك الأطفال للهاتف الذكي.

وبافتراض أنَّ هذه النسبة من أطفالنا أو قريبًا منها تتابع مواقع الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي فإنَّ هذا يستدعي تفعيلَ التربية الإعلامية اللازمة لمواجهة ذلك، والمقصود بالتربية الإعلامية تلك الثقافةُ التي نحفظ بها أطفالنا من الضياعِ والتفلت في دروب الانترنت، بعد أن أصبحَ الوصولُ للحَرَامِ لا يحتاج أكثر من نقرة زر.

وهذا الباب نحتاجه في مسالك الشبهات كما نحتاجه هنا في شِعاب الشهوات؛ وذلك لأنَّ وهجَ معركة الأفكار التي تجتاح العالم الإسلامي اليوم لا يقل عن وهج

معركة الشهوات، لكننا نكتفي بتناول جانب الشهوات لئلا نتشعبَ عن الباب الذي نُعالِجُه.

والتربيةُ الإعلاميَّةُ التي نحتاج إليها اليوم منها ما هو عامٌّ في استعمال الانترنت، ومنها ما هو خاصٌّ عند الاستعمال الخاطئ له، وسنتكئ هنا في زمرةٍ من بنود التربية العامة والخاصة على ما كتب الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه: «**أولادنا ووسائل التواصل الاجتماعي**»، ثم أتبع ذلك ببعض الاقتراحات المعينة على تضييق مساحة مطالعة الانترنت، وأختم ببعض النقاط العلاجية عند اكتشاف متابعة الطفل لأمورٍ غير أخلاقية، أو الشك القوي في ذلك، فهذه أربعة محاور، ودونك بيانَ ما تحتها:

أولاً: التربية الإعلامية العامة:

تتمثل الحلول والمعالجات العامة في أمورٍ منها الثلاثة الآتية:

١) امتلاك المهارة الكافية التي تُمَكِّن أولياء الأمور من متابعة سلوك أبنائهم على الانترنت.

٢) إدراك مخاطر الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي على عقول الأطفال وشخصياتهم وحياتهم المستقبلية، ولهذا فمن الخطأ مثلاً أن تُعْطِيَ الأمُّ طفلَها الصغير جهاز الجوال أو الآيباد لتسكته به، أو لتنشغل بالحديث مع صديقاتها، أو لتنجز بعض أعمال البيت، فهذا ونحوه بمثابة الدواء الضار وربما القاتل لحامله.

٣) لا بد من وجود القدوة الصالحة داخل البيت، فيتحتم أن يرى الصغارُ في آبائهم وأمهاتهم قدوةً في التعامل مع الانترنت عمومًا، ووسائل التواصل خصوصًا..

ومن أوجه ذلك: عدم إدمان استعمال الانترنت، وإبعاد الجوال عن الجلسات العائلية، وعدم الانشغال بالجوال عن الأهل، وعن القراءة في الكتب النافعة كذلك، وما أشبه ذلك، فإذا كان برنامج الوالدين مشحونًا بالأعمال النافعة رأيت هذا في الولد، وإلا.. فكيف يريد الآباء أن يروا في أبنائهم ما يعجزون عن فعله في أنفسهم!.

إنَّ الحَقِيقةَ المُرَّةَ أنَّ حالةَ الإدمانِ قد وصلت حدًّا يصيب الناظر بالدهشة والذهول؛ فأصبح الجوالُ مُلازمًا لكثيرٍ من الناس ملازمةَ الظلِّ للشخص، فتجده يشعر بالقلق في حال البُعد عنه، ويشعر بالسعادة عند استعماله، ويتفقد هاتفه في بعض الأحيان أكثر من ٢٠٠ مرة في اليوم كما رصدت ذلك بعض التقارير!، ويميل للعزلة بسببه حتى إنه ليترك الجلسات الاجتماعية الهنيئة لصالح أصدقائه الافتراضيين، وربما احتاج أن يقضي حاجته ثم إنه يُؤَخِّرُ ذلك ويعاني من أجل متابعة النظر في صفحات الانترنت، بل إنَّ بعضَهم يأخذ جواله معه إلى بيت الخلاء!، ثم إنه إذا نام نامَ عليه، وإذا استيقظ ربما نظر في الرسائل الواردة وهو لم يكمل فتح عينيه بعدُ!.

ولعل أنجع حلٍّ في نظري هو فصلُ الانترنت، والاكتفاء بساعةٍ معينةٍ في اليوم، أو يومٍ معين في الأسبوع، ويفطم نفسه عما وراء ذلك، وهذا الأمر يحتاج إلى قرارٍ شخصيٍّ جريء، وإن كان الواقع المرير أنَّ كثيرًا من الناس قد يمضي قراره على أعداد هائلة من الناس غيره، لكنه يعجز أن يمضي قرارًا واحدًا كهذا على نفسه!.

ثانيًا: التربية الإعلامية الخاصَّة:

وأذكر خمسةَ معالمَ منها، وهي كما يلي:

١) لا ينبغي أن يكون هناك حسابٌ خاص أو بريدٌ إلكترونيٌّ خاص بالطفل، وإنما يفتح الانترنت ويتبادل الرسائل من خلال حساب الأم أو الأب.

٢) عدم منح الأطفال كلمة السر للتعامل مع الأجهزة عمومًا.

٣) متابعة جهاز الحاسوب أو الجوال الخاص بالولد بشكل دوري، عبر النظر في مضمونها، ومراجعة المواقع التي يتصفحونها، وعند الزلل تُعطى جرعةُ التربية المناسبة بالحزم المقترن بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولا ينبغي التهيب من هذه الخطوة بحُجَّةِ أنَّ ذلك يخدش الخصوصية، ولا يلزم أن يعرض الأبُ ذلك في ثوبٍ من الاتهام والتحقيق؛ بل جديرٌ به ألا يمنح ولده الخصوصية المطلقة، بحيث يتفرد بغرفة لا يدخلها أحدٌ إلا بإذنه، وبحاسوب لا يمكن لأحد أن يفتحه دونه، فهذا مما عساه يوفر بيئة خصبة للترقي في سلم المعصية يومًا بعد يوم.

٤) تفعيل الرقابة الالكترونية، من خلال تثبيت البرامج التي ترسل رسائل عبر الجوال بأسماء المواقع التي تم فتحها، أو على الأقل النظر في المواقع التي دخلها الولد من خلال سجل المحفوظات كما مر، أو من خلال تثبيت البرامج التي تقوم بحفظها، ثم إرسالها على البريد الالكتروني، لكن مثل ذلك يحتاج لخبير.

٥) الاتفاق على ميثاقٍ أسريٍّ يراعي الأخلاق ويحفظ العفة، من بنوده: أن أخبر والدي بأي رسائل سيئة، أو مواد غير أخلاقية، وكذلك بأي معلوماتٍ وثقافاتٍ يشعر بالريبة تجاهها.

ولا بُدَّ من الصَّرَامةِ في التعامل مع الأولاد حين يتجاوزون التعهدات التي قطعوها على أنفسهم، ويتم تنفيذها فورًا وبدقةٍ عالية، وإني أكاد أجزم أنَّ البيوتَ التي تستمر الخروقاتُ فيها في هذا الجانب لا يتمتع الوالدان فيها بالحزم المطلوبِ في التعامل معها[1].

(١) بنود التربية الخاصة باستثناء الرابع من كلام د. عبد الكريم بكار، وأخذتها من مختصر كتابه «أولادنا ووسائل التواصل الاجتماعي» لوضاح بن هادي، أما الرابع فمن أفكار د. حمدان الصوفي.

ثالثًا: وسائل تضييق الاستعمال للانترنت:

ومن ذلك السبع الآتية:

١) شحن أوقات الأطفال ببرامج نافعة مثل الرياضة والذهاب لحلقات تحفيظ القرآن الكريم بالمسجد، وتكليفهم بمسئولياتٍ وأعمالٍ داخل البيت تتناسب مع أعمارهم.

٢) إبعاد الأجهزة عن أماكن النوم؛ لئلا ينام الطفل على الانترنت ويستيقظ عليه، ويمكن أن ترصد جوائز حسنة لمن يطول بُعده عن الانترنت أكثر من غيره.

٣) تزويد الطفل بعددٍ من المواقع العلمية والدعوية والإخبارية، ثم متابعته بخصوصها، ومناقشته في الأفكار التي استفادها منها، فبهذا يتضيق الخناق على الاستعمال الخاطئ للانترنت.

٤) تثبيت البرامج التي تقوم بإتاحة فتح الانترنت في أوقات معينة من اليوم فقط، ويمكن من خلالها تحديد نوعية المواقع التي يتم فتحها، كأن يُبرمج الجهازُ ألا يفتح إلا المواقع العلمية أو الإخبارية، دون الرياضية أو الإباحية مثلاً.

٥) تكثيف الأنشطة الجلسات الأسرية والزيارات الاجتماعية، وما أجملَ وأمتع أن يجمع الأب أفراد عائلته ويتبادلوا الأفكار وأطراف الحديث النافع في لقاء أسبوعيٍّ مثلاً، ويمكن أن يُطلب من كل فردٍ أن يقدم حكمةً أو قصةً مثلاً، وقد جرَّبت هذا مدة طويلةً في البيت، وكانت آثاره حسنةً جدًّا.

٦) متابعة الولد في برنامج قراءة مفتوح، غير منهجه المدرسي، كأن يقرأ في كل أسبوعٍ كتابًا صغيرًا مثلاً، ويتم مناقشته في أفكاره، ويُطلب منه أن يكتب

منه أهم الفوائد التي استوقفته وينشرها في منشوراتٍ عبر الفيس بوك إن كان سِنُّهُ يحتمل ذلك، وبهذا يُقضى وقتٌ حسنٌ في ذلك، فضلاً أن هذا سيجعل استعماله للنت نافعًا له ولغيره.

٧) تحصيل صداقات صالحة للولد، تجمع بين التدين والخُلق والتفوق الدراسي؛ فهذه صحبة إن لم تنفع فلن تضر؛ لأنَّ المتفوقَ يقضي جزءًا هائلاً من وقته في الدراسة، وبهذا يشغل الولد فيما هو نافع مفيد[1].

رابعًا: طريقة التعامل مع الطفل عند اكتشاف متابعته لأمورٍ غير أخلاقية، أو الشك في ذلك:

وأسجل هنا خمسةً من المقترحات إزاء ذلك، أفاد بالثلاثة الأخيرة منها الدكتور **حمدان الصوفي** أستاذ التربية في الجامعة الإسلامية بغزة، من خلال حديثٍ معه في المسألة، وذلك كما يلي:

١) التربية الإيمانية بالخطأ، بمعنى أنه ينبغي أن نستثمر الخطأ في تقرير الأصول التربوية المهمة في العلاج، من مثل الحديث عن المراقبة الإلهية، والوعظ بالجنة والنار، وثقافة غض البصر، والنصوص الآمرة به، والنصائح الجامعة من مثل: احفظ الله يحفظك، ويذكر له أنَّ الكفارَ والفجارَ يريدون إفساد ديننا وتضييع أخلاقنا، وهذا الطريق الذي سلكتَهُ فيه مقتُ الله وغضبه، وهو من وسوسة الشيطان للإنسان، ومن العيب الذي يترفع العاقل عن مقارفته، وهكذا، لا سيما وأنَّ الطفلَ يستوعب جيدًا في هذه المرحلة ما يُلقى إليه من عظاتٍ وتوجيهات.

(١) البند الأول والثاني من كلام د. عبد الكريم بكار، والبند الثالث والخامس والسابع من أفكار د. حمدان الصوفي.

٢) مطالبة الطفل عند الخطأ بالوضوء وصلاة ركعتي توبة ثم الاستغفار والتوبة، وعمل حسنةٍ ماحيةٍ تكفيرًا عما فعل؛ من مثل التصدق بمصروفه اليومي، أو حفظ صفحةٍ من القرآن الكريم، فهذه التربية لها أثرٌ عجيبٌ فعَّال في سكب الخشية في قلبه.

٣) استعمال أسلوب القصة وضرب المثل بنماذج صالحةٍ وأخرى فاسدة، فيذكر له فلان وعلان من تلك العائلة الذين قدَّموا أنموذجًا حسنًا يفخر به المجتمع، ويحذر من طرق التفلت والفساد الخلقي بفلان الذي طرده أبوه من البيت، وعلان الذي انتهت أخباره بأحداثٍ كارثية، مع إبهام الأسماء هنا لئلا يقع في الغيبة المحرمة.

٤) بعد تعليم الطفل الحكم الشرعي يتم التركيز على الوعظ بجانب الأخلاق والمروءة، فيُذكر له أنَّ رجولة الإنسان ومروءته في التزامه وعِفَّتِهِ، وأما سلوك مسالك الشياطين الإنسية فإنه يدمر السمعة الشخصية والبيتية، ويُعَرِّض للحرج أمام الناس -لا سيما الجيران والأرحام- في الدنيا، فضلاً عن الجزاء في الآخرة، وتستمر هذه اللغة بين ترغيبٍ وترهيب، مع أهمية فتح أبواب التوبة له وتصحيح المسار من جديد.

٥) أما عند الشك في ذلك فيمكن أن يكاشف الأب ولده أنه يشك في نوعية المواد التي يتابعها، ويسأله صراحةً: ما المواقع التي تطالعها؟ وكيف تقضي وقتك على النت؟ وبناء على الجواب ينتقي له المادة التربوية المناسبة، وحتى لو كان هناك مقدارٌ من الغموض عند الولد فإنَّ مجرد المتابعة التربوية أمرٌ نافعٌ مفيد.

ويمكن أن يستعين الأب ببعض الكرماء في تربية ولده، وفي إعطائهم الجرعة الإيمانية التربوية المناسبة.

وحيث فاتح الأبُ أو الأمُّ ولدَهُ أو ابنته فهنا تنبيهٌ مهمٌّ نبَّهَ عليه الشيخ أحمد سالم؛ وهو أن يكون الحوار صريحًا هادئًا في الوصول مع الولد إلى حدودِ الموضوع، فلا تهديد ولا تعنيف ولا شدة؛ بل حوارٌ يهدف لجمع عامة المعلومات التي تنقصك عن الموضوع، ومهمٌّ ألا يخاف الولد ولا يكذب، بل اجعله يرى في أبيه شاطئ أمان لا شرطي بوليس، ومن ثم يبدأ الأب في حصار العوامل التي تفسد الولد، سواء كانت بسبب أصدقاء السوء، أو كثرة الفراغ، أو الفرار من التهميش الاجتماعي، وكلما زادت مساحة التواصل العاطفي مع الولد فإنها تعني الكثير، وتغني عن الجهد الكثير[1].

وفي الختام أقول: لن تستطيع منع ولدك من مواكبة التطور التكنولوجي، لكن يمكن أن تؤخره عنه، وقناعتي أنَّ كلَّ يومٍ يمكنني فيه أن أؤخر ولدي عن متابعة الانترنت فهذا إنجازٌ وخير؛ وذلك حتى يُستفاد من الصفاء الذهني والنقاء القلبي عنده في تقرير عامَّةِ القيم، وفي حفظ القرآن الكريم، وإنجاز المواد المدرسية بتفوقٍ واقتدار؛ لأنَّ الوسائلَ الحديثةَ وإن خلت في الاستعمال من متابعة الحرام إلا أنها مُضَيِّعَةٌ للوقت، مشتتةٌ للذهن.

والله الموفق وحده، وهو المستعان، وعليه التكلان.

(١) انظر قناة التليغرام للشيخ أحمد سالم، في رد على استشارة بمن اكتشف أن ابنته تراسل شابًا، وتم عرض الجواب بتاريخ ١٠/ ٧/ ٢٠١٨م.

المطلب السابع

عرفت جرع العلاج ووسائل الوقاية ثم أقع مرة بعد مرة، فماذا أفعل؟

أعرضُ مادَّةَ هذا المطلب في نقاطٍ تيسيرًا لضبطه، فأقول: إذا أذنب الإنسان وشعر أنه يتعثر مرةً بعد مرة، فإنه إذا عصى استرشد بفعل أو مراعاة الأمور التسعة الآتية:

١) **لا تنطلق في المعاصي**، بل اقطع الحبلَ فورًا؛ لأنَّ نفسيَّةَ العاصي ضعيفةٌ منكسرة، يستغلها الشيطان لجرِّه للخطوة التي بعدها، حتى يصل به إلى الفواحش، وحسمًا لذلك قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ومن هنا قال الشيخ **عبد العزيز الطريفي**: الشيطان لا يقود الإنسان إلى الشر هرولة، وإنما بخطواتٍ متدرجة، حتى يسكنه ولا ينفر؛ لأنَّ طريقه مظلم فيحتاج إلى الإيناس!.

٢) **إياك واختلال أوراد الطاعات**، فابق على المحافظة على خطِّ الحسنات كما هو، من صلاةٍ وسننٍ وتهجدٍ وتلاوةٍ وحفظٍ وطلب علمٍ وغير ذلك، غير ملتفتٍ لمن قال بعدم جدوى الحسنات مع استمرار السيئات.

٣) الاعتصام السريع بالاستغفار، فتستغفر مثلاً مائة مرة، واحرص أن تقول ما تلقاه آدم من ربه فتاب عليه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وتدعو: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّهُ وجِلَّه، أوله وآخره، وعلانيته وسره»، وكذلك ما جاء عند **أبي داود** أنَّ «مَنْ قَالَ: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».. غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ»[(١)]، فإذا غُفر لصاحب الكبيرة بقول هذا الدُّعاء.. فلصاحب الصغيرة أولى وأجدر[(٢)].

ويُستحبُّ أن تُقدِّم الاستغفار بصلاة ركعتين، لما أخرج **أبو داود** من حديث **أبي بكر** ﷺ أنَّ النبيَّ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ.. إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ»[(٣)]. صححه الألباني.

٤) التوبة العاجلة، فيندم على فعله، ويقلع عما هو فيه، ويعزم على ألا يعودَ تارةً أخرى، فمن تاب سريعًا عن قريب رُجي له متابُ الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧].

فلو عاد للذنب ثانيةً فالتوبة الماضية صحيحة؛ لأنَّ عدمَ العودةِ ليس شرطًا من شروط التوبة، وإنما العزم على ذلك.

ويلزم هنا أن يسترَ على نفسِهِ، وألا يجهرَ بذنبِهِ، ولا يصر عليه، ولا يستعظمه على رحمة الله، ولا يحتقره ويستهين به، ولا يبرره.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥١٩)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٧٧). صححه الألباني.
(٢) شرح أبي داود (٥/ ٤٢٩).
(٣) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥٢٣).

٥) محو هذا الذنب بحسنةٍ بعده؛ لقول النبي: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[١]، فيمكن أن يُجالس أمه يخفف عنها بعض همومها، وينجز لها بعض رغباتها، أو يتصدق بصدقةٍ في السر ولو بدرهم، أو يمكث في المسجد بعد العصر أو بين المغرب والعشاء يذكر الله أو يدعو أو يتلو القرآن، أو يرابط ليلةً، أو يعود مريضًا إدخالاً للسرور عليه من جهة، وقصدًا للرحمة التي تحف به؛ ففي الحديث: «مَن عَادَ مَرِيضًا خَاضَ فِي الرَّحْمةِ، فَإِذَا جَلَسَ عِندَهُ استَنقَع فيها»![٢]. صححه الألباني.

وكلما زادت الحسنات الماحية كلما كان أرجى لمحو السيئة الحاصلة.

٦) أحسن الظن بالله أنه يغفر لك، ويتقبل توبتك، فهو القائل يبشرك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥]، والقائل: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧]، والقائل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠].

فإياك أن تيأس أو تظن أنَّ الله لن يغفر، ولو تكرر ذنبك وتنوع؛ فليس يصمد أمام رحمة الله ذنب، وفي المسند عند الإمام أحمد من حديث أبي سعيدٍ ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[٣]!!.

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٩٨٧). وقد حسنه الألباني.
(٢) الترغيب والترهيب للمنذري، رقم الحديث: (٥٢٧٦). من رواية كعب بن مالك ﷺ.
(٣) مسند أحمد، رقم الحديث: (١١٢٣٧)، (١٧/ ٣٣٧)، وقال الألباني: حسن لغيره.

وهذه النصوصُ تدل دلالةً واضحةً أنَّ اللهَ تعالى علم أنَّهُ ستكون لنا سيئات، وتشعر بهذا أيضًا من كونه يكثر في القرآن أنه غفورٌ وغفَّار وغافر الذنب، وأنه واسعُ المغفرة ويحب التوابين، فدلائل هذا كله أنَّ الذنبَ ملاصقٌ للعبد، فما ينبغي لهذا الذنب من السقوط إذن أن يعرقلَ مسيرة الصعود، وكما أنَّ عندك نقاطَ ضعفٍ توهنك فعندك نقاط قوةٍ ترفعك وتدفعك.

لهذا أهتف في سمعك بلسان الشيخ **عائض القرني**:

يا من بِقَلبِهِ من الذنوب جُرُوح، تعال فَالبَابُ مَفتُوح، إذا أذنبت فَتُبْ وَتَنَدَّم، فقد سبقك بِالذَّنب أَبُوك آدَم، ومَنْ يُشَابهْ أَبَهُ فَما ظَلَم، لكن لا تُقَلِّد أَبَاك في الذَّنْبِ وتترك المَتَاب؛ فَإنَّ أباك لَمَّا أَذْنَبَ تَاب بِنَصِّ الكِتَاب!..

أجملُ الكلمات لَدَى ربِّ البَرِيَّات، قولك: يا رب أذنبتُ، يا ربِّ أسأتُ، فَيَكُونُ جَوابُهُ: عبدي قَد غَفَرتُ وَعَفَوتُ، وَسَتَرت وَصَفَحت[1]!.

٧) **ثم لتبدأ بعمليةِ استردادٍ لإيمانياتك**، فتتهجد حظَّكَ من الليل؛ إذ إنَّ قيام الليل هو أصل العملية التربوية، وتسمع كذلك بعض المحاضرات الإيمانية والمقاطع المُرَكَّزَة التي ترد لك روحَك، وتقرأ طرفًا من الكتب الإيمانية التربوية؛ **كتهذيب مدارج السالكين، والداء والدواء** لابن القيم، **وصيد الخاطر** لابن الجوزي، **وسلسلة شرح أسماء الله الحسنى** للشيخ محمد راتب النابلسي، وهي متوفرةٌ على موقعه صوتًا وصورةً وتفريغًا تقرؤه، وما أشبه ذلك.

(١) مقامات القرني، مقامة التوبة لعائض القرني ص (١٢٣).

٨) ولتقف بباب الله مستغيثًا به:

سبحان الله! أنت عندما تتصلُ بإنسانٍ مرةً بعد مرةٍ ولا يرد عليك فإنك تبدأ تزهدُ فيه، لكنَّ هذا المعني ينتسف تمامًا عند الوقوف بباب الله، هذا هو الباب الوحيد الذي لا يمله الإنسان، وأعجب ما فيه أنك لا تخرج منه بجوابٍ، تقف تدعو لكنَّكَ لا تدري هل غُفر لك أو لا؟ هل قُبل عملُكَ أو لا؟ ورغم ذلك تبقى تعود إليه بحبٍّ وتشعر عنده بالقرب، وتحس ببرد اليقين يملأ صدرك عند تلك النسائم الإيمانية العجيبة التي تهب على قلبك مرةً بعد أخرى.

فإذا وقع الذنبُ فلا بد أن توقف برنامجك اليومي، وتمكث بعض الوقت عند هذا الباب، وما أجملَ أن يراك الله تنتقي لذلك أجلَّ الأوقاتِ عنده؛ كالساعةِ التي تسبق الفجر، وهي التي ينزل فيها إلى السماء الدنيا ليتوبَ على التائب ويغفرَ للمستغفر، أو بين الأذان والإقامة، وتأخذ تدعو الله أن يُسَلِّمَكَ في دينك، ويعافيك في زمن الفتنة من الضياع، ويخفف عنك وطأة الشهوات، ويزيد لك من رصيد الثبات والصبر، ويحبب إليك الطاعة، ويبغض إليك المعصية، فما يزال العبد يقف بالباب مرةً بعد أخرى حتى يعطيه الله ذلك كله أو بعضه!.

يقول الشيخ **حسين عبد الرازق** وفقه الله:

كم من ذنبٍ كان يأسر صاحبه فافتقر إلى الله، ودعا وبكى ورجا وجاهد وصبر وقطع أسبابه وشغل وقت فراغه بأعمالٍ نافعةٍ كالقراءة وممارسة الرياضة حتى صار شيئًا فشيئًا لا يخطر بباله!..

وفي المقابل: كم من ذنبٍ كان بعيدًا عنه، فتهاون فيه وحام حوله وقارف مقدماته حتى صار جزءًا أساسيًّا من يومه أو أسبوعه أو شهره!،

فأنت قويٌّ في البعد عن المعصية، والشيطان ضعيفٌ أن يوقعك، ما لم تخطُ الخطوة الأولى، فإذا خطوتها صرت أضعفَ وصار أقوى.

٩) وَلْتَسُدَّ الثغرةَ التي هُزِمتَ منها:

إذن لا بد من جلسة عصفٍ ذهنيٍّ تكتشف فيها ثغرات الضعف التي سقطت نفسُكَ الأمارة بالسوء عندها، واستغلها الشيطان في الضغط عليك، واتخاذ مواقف علاجية إزاءها..

فإن كان الذنب بسبب تأثيرِ صاحب فاسد.. تخفف من العلاقة معه، وبدأ ينشئ علاقات أخوية جديدة، على أساسٍ صحيح، حتى لو اهتزت بسبب ذلك بعض العلاقات المهمة.

وإن كان بسبب بيئةٍ تضعف فيها سيطرتُهُ على نفسه.. قرَّرَ هَجْرَهَا بالتدريج أو جملةً واحدة بحسب العزم والإمكان.

وإن كان بسبب الفراغ أمسك ورقةً وقلمًا، وكتب خطة عملٍ مركزة، نتج عنها رزمةٌ من القرارات التي تملأ عليه وقته؛ فقرَّر الانضمام لحلقتين أو ثلاث من الحلقات التي تُدرِّس الفقه أو التفسير أو أحكام التجويد، وكذا الالتحاق بمركز التحفيظ بالمسجد حتى لو كان متقدمًا في السن، أو الانتماء لإحدى اللجان التطوعية أو المجموعات المسجدية، وغير ذلك.

وأعجبني بعض الإخوة أنه كان يلتزم الدراسة الجامعية، وكلما أنجز محطةً تحول للتي فوقها، وإن لم يستطع لضغط التكاليف المالية ذهب لتخصصات أخرى هينة السعر، أو التحق بمعاهد مجانية، ولو شق عليه ذلك ألزم نفسه بسماع سلاسل علميةٍ مُسَجَّلةٍ في الفقه أو المصطلح أو الفكر، بحيث لا تجد المعصية لها متسعًا في جدول أعماله، ولو أذنب فدقائق ويعود سيرته الأولى من العمل والإنجاز.

وإن كان بسبب ضعفِ نفسه، وسيطرةِ الشهوةِ عليه.. استغفر وتاب وستر على نفسه ولم يصر، وفعل ما تقدم من خطواتٍ، ورجا رحمة ربه.

وقد عثرت على كلمةٍ **لمحمد بن الدوري** تسرد بعض الخطوات اللازم اتباعها بعد الذنب من خلال قصة أبينا **آدم** ، ونصها: سعد آدم بخمسة أشياء: أقر بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وأسرع في التوبة، ولم يقنط من رحمة الله، وشقي إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، ولم يعزم على التوبة، وقنط من رحمة الله.

وسبحان الله! وصلتني رسالةٌ عبر الواتس حسنة المعنى هنا هذا متنها: أتظن الصَّالحين بدون ذنوب؟! إنهم فقط قلَّلوا ما استطاعوا، واستتروا ولم يجاهروا، واستغفروا ولم يصروا، واعترفوا ولم يبرروا، وأحسنوا بعدما أساؤوا!.

وبعد الذي تسطَّر؛ فإنِّي أرجو بهذا التعامل ألا تَلُفَّ بك دوامةُ الذنوب دورَتها، بل أن تتمكن من التفلت منها، ثم تعود إلى شاطئ الطاعاتِ والعِفَّةِ بأمان، والله الموفق.

عبـــقُ الخِتَــام

وهنا في آخر سيلان مداد القلم أود أن أختم بجملةٍ من الوقفاتِ المتناثرة التي تنتسب للموضوع، وهي ثماني وقفاتٍ، هاك تسطيرَهَا بين يديك:

الوقفة الأولى:

ينبغي للعاقل أن يحترس اليوم جدًّا من الخلوات؛ فإنَّ من ضَبَطَها فهو للجَلَوات أضبط، بل لِتَكُنِ الخلوةُ السُّلَّمَ الذي تصعد به إلى معالي الطموحات، **فكما أنَّ أكثر الانتكاسات تبدأ من سيئات الخلوات فإنَّ أكثر الفتوحات تبدأ من حسنات الخلوات.**

بل إنَّ مُجَرَّدَ اعتزالِ الإنسان للأشرار يجلب البركات عليه، ولهذا لما هاجر **إبراهيم** عليه السلام إلى فلسطين وترك قومه عَبَدَةَ الأصنام قال الله:

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:٤٩]

وفي العنكبوت:

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٦، ٢٧].

الوقفة الثانية:

يبتلي الله كلَّ أمةٍ بمعاصٍ يسهل الوصول إليها؛ امتحانًا لها واختبارًا، فقد ابتلى بني إسرائيل بإتيان السمك على وجه الماء في يوم السبت المحرم عليهم صيده، وإخفائه في الأيام الحلال لهم صيده[1]، وذلك قول الله:

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]

وابتلى الصحابة بالصيد الذي يتعنون خارج منطقة الحرم في صيده أنه يغشاهم في رحالهم، حتى إنهم ليتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح[2]، كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٤].

وقدر الله تعالى أن يشتد البلاء على أهل هذا الزمن بسهولة الوصول إلى الشهوات، فهنيئًا لمن أمسك بصره عن النظر، وجوارحه عن الشر.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ص (٩١٠).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ص (٦٩٨).

ومما يستظرف ذِكْرُهُ أنه في أحد احتفالات التكريم للطلبة والطالبات بالجامعة الإسلامية بغزة سقط الحاجز الفاصل بين الطلاب والطالبات، وأمكن نظر بعضهم إلى بعض، فقام رئيس الجامعة الشيخ **محمد صيام** حفظه الله يومها وتلا آية المائدة الفائتة، فكانت موعظةً كافية!.

الوقفة الثالثة:

يقول الشيخ **الطريفي**:

أول عقوبة للإنسان التعري، قال الله:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾

[طه: ١٢١]

والعجيب أن الله جعلها عقوبةً لنبي، وتتخذها حضارة العصر تقدمًا، فإذا انتكست الفطرة تحولت العقوبات إلى حضارات، ولا يقع تعري النساء والرجال في أمة إلا سبق ذلك أكل الحرام، ولهذا قال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ (١)!.

(١) انظر قناة الشيخ الطريفي على التليغرام بعنوان: عبد العزيز الطريفي، بإثبات بعض الكلمات من صورة تضمنت عدة تغريدات عن التبرج والسفور.

الوقفة الرابعة:

إنَّ الآخرةَ لا تستجدي أحدًا، فإذا وقفت ببابها وأظهرت الحاجة إليها أعطتك وأكرمَتْك، وإن أعرضت عنها لم تركض خلفك، أما الدنيا فذليلة، فإذا وجدتك مقبلاً على طاعةِ ربك أخذت تزاحم قلبك حتى تجد لها موضعًا فيه.

ولهذا يوم أن تعصي لا تجد الطاعات تضغط عليك لتعود؛ فالآخرة أعز من أن تذل نفسها لأحد، لكن يوم أن تطيع فإنك تجد السيئات تضغط عليك، والشهوات تتراءى بين يديك.

وعليه؛ فلا بد للعبد الذي يبتغي ثباتَ قدمِهِ في الإيمان أن يطيل الوقوف بباب الله يتوسلُ أن يعطيَه ويزيدَه ويغدقَ عليه، ويكثر من الاستغفار والتوبة بين يدي ذلك، فإن فعل ذلك فيبشر بفيضٍ من الكرامةِ عليه؛ ففي الحديث القدسي إنَّ الله ﷻ يقول:

«وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ»[1]!.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٧٤٠٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧١٢٨).

الوقفة الخامسة:

إنَّ من اعتاد فعل الخير، ودفع الشر انكسر له هواه، وأعين على الاستقامة، وفي المسند عن **عقبة بن عامر** ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**»[1]؛ أي: ميل إلى الهوى؛ وذلك لأنَّه عوَّد نفسَه ذلك فصلح حاله واستقام أمره[2]، وهذا لو زلَّ فما أسرعَ عودَته! ولو أخطأ فما أقرب توبَته! حتى لكأنَّ التوبةَ قرينةُ الذنب لا بعده!.

الوقفة السادسة:

من رحمة الله بعباده أنَّهُ أقام لهم نظامَ الشهوات في حياتهم، فهو وإن كان اختبارًا شديدًا لإيمانهم.. إلا أنه مشوقٌ لهم لما عند الله في الآخرة، ومُعِينٌ لهم على استقرار حياتهم وبيوتهم في الدنيا.

فإنَّ الشابَّ متى تزوَّجَ رأى أثر هذا النظام كيف أنَّهُ يُسَكِّن البيت، ويُلطِّف الجو، ويحفظ الأسرة من التفرق، ويجلب الولد، ويسكب الود والحبَّ والهناء في أرجاء البيت، فسبحان من جعله معراجًا للأعزب إلى الله صبرًا، وسُلَّمًا للمتزوج إلى الله شكرًا.

---

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٧٣٧١). قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى (١/ ٥٢٩، ٩٣١).

الوقفة السابعة:

تجد الشاب يطيل السهر في أمرٍ مباح، وربما في غفلة، أو في معصية، يتنقل من موقعٍ إلكتروني لآخر، ومن مقطع فاحشٍ لآخر، ثم ينام عن غلبة آخر الليل، وتضيع عليه لذاذة التهجد وتفوته صلاة الفجر في المسجد، وربما صلاها منفردًا، وربما في آخر الوقت، وربما بعد طلوع الشمس!..

فيختتم يومه غافلاً أو عاصيًا، ويستفتح يومه غافلاً أو عاصيًا، ثم يرجو أن يكون ما بينهما مباركًا له فيه، وأنى له ذلك!.

بل الواقع الغالب أن البركة قد غابت عنه، وعن ماله وبيته، وعلمه وعمله وعبادته، وإن أرضى نفسه بزعم غير ذلك..

إنَّ السلف كانوا لا يضيعون ثلاث ساعاتٍ ذاتَ بركة إلا عن غلبة: الساعة التي تسبق الفجر، والساعة التي بعده إلى شروق الشمس، والدقائق التي تسبق دخول وقت المغرب، وهذا من جملة موجبات البركة لهم في حياتهم وختامهم، ولسنا في قانونٍ جديد، فإذا أردت البركة والخير والتوفيق والسعادة والإنجاز والرشاد فالزم ما لزم السلف، ودعك من العادات السيئة التي توافق عليها كثيرٌ من أهل هذا الزمان، ولا يكن شيءٌ أهمَّ إليك من نفسك ودينك وقلبك، والله يتولاك ويرعاك.

الوقفة الثامنة:

من قرأ هذا الكتاب وعرف جادةَ الطريق فإني أصدح فيه: ألم يأن لك أن تُبرم عهدَ عفافٍ وتقىً بينك وبين ربك على ألا يكون للشيطان فيه نصيب! علك أن تكون من عباد الله المخلصين الذين ليس للشيطان عليهم سلطان؟!.

وذلك أنَّ المحرومَ من عرف مسلك الوصول، وحصل عليه أتم حصول، ثم أدبر وتولى وجمع فأوعى.

فإن تكاسلت أو تشاغلت فكيف بك إذا فاز الأبرار وخبت، وحضر المتقون وغبت!.

ولذلك؛ فالنصح لك قبل أن تبلغ الروح التراقي، ولم تعرف الراقي من الساقي، ولم تدر عند الرحيل ما تلاقي، وصرت في القبر جُذاذاً، ونادى المنادي وحاذى، ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق:٢٢] أن قم أدرك نفسك، واستدرك، وكوِّن لنفسك رصيدًا في جنة الله جل وعلا، وإن الله يعطي من يسأل، وإنه سبحانه إذا أعطى أدهش، والله ذو الفضل العظيم.

تم الكتاب بحمد الله تعالى ومنِّه وكرمه

يوم الجمعة ٢٩ من شوال لعام ١٤٣٩ هـ،

الموافق ١٣/ ٧/ ٢٠١٨م.

سائلاً الله ﷻ أن يكرمني بسرٍّ يفوق العلانية عبودية

وإخلاصًا وجودًا

وأن يجعل ثمرة كتابي هذا عملاً مقبولاً وأثرًا محمودًا

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا المصطفى محمد،

وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ

إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الراجي عفو ربه ورحمته وفضله

محمد بن محمد الأسطل

فهرس المراجع[1]

اسم الكتاب	المؤلف
القرآن الكريم	
أولاً: كتب تفسير القرآن الكريم	
البحر المحيط	أبو حيان الأندلسي
التحرير والتنوير	ابن عاشور
التفسير المنير	الشيخ وهبة الزحيلي
الجامع لأحكام القرآن	القرطبي
الجواهر الحسان في تفسير القرآن	الثعالبي
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	ابن عطية
المختصر في التفسير	مركز تفسير للدراسات القرآنية
الوسيط	الشيخ الطنطاوي
تفسير الشعراوي	الشيخ الشعراوي
تفسير الكشاف	الإمام الزمخشري
جامع البيان في تأويل القرآن	الإمام الطبري
روح البيان	الخلوتي
روح المعاني	الألوسي
صفوة التفاسير	الشيخ الصابوني
في ظلال القرآن	سيد قطب
مختصر تفسير ابن كثير	الشيخ الصابوني
ثانيًا: كتب السنة وشروحها	
صحيح البخاري	الإمام البخاري

(١) اعتمدت على نسخة المكتبة الشاملة في أكثر الكتب، وما استثني أذكره بطبعته تمييزًا له.

اسم الكتاب	المؤلف
صحيح مسلم	الإمام مسلم
سنن أبي داود	أبو داود
سنن الترمذي	الترمذي
سنن النسائي	النسائي
سنن ابن ماجه	ابن ماجه
مسند أحمد	الإمام أحمد
المعجم الكبير	الطبراني
مسند الشاميين	الطبراني
المستدرك على الصحيحين	الإمام الحاكم
الأدب المفرد	البخاري
صحيح ابن خزيمة	ابن خزيمة
الترغيب والترهيب	المنذري
صحيح الجامع	الشيخ الألباني
شعب الإيمان	الإمام البيهقي
كتاب الآثار	أبو يوسف
التيسير بشرح الجامع للصغير	المناوي
فتح الباري شرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني
شرح صحيح البخاري	ابن بطال
شرح صحيح مسلم	الإمام النووي
مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح	المباركفوري
مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح	الملا علي القاري
ثالثًا: كتب الفقه	
حاشية ابن عابدين	ابن عابدين الحنفي
مواهب الجليل شرح مختصر خليل	الحطاب الرعيني

اسم الكتاب	المؤلف
منح الجليل شرح مختصر خليل	محمد عليش
فقه العبادات على المذهب المالكي	الحاجة درية العيطي
المجموع شرح المهذب	الإمام النووي
مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ معاني المنهاج	الشربيني
كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار	الحصني
حاشية عميرة على كنز الراغبين	عميرة
نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج	شمس الدين الرملي
غاية المنى شرح سفينة النجا	الدوعني
الفروع ومعه تصحيح الفروع	ابن مفلح
الإنصاف	المرداوي
المغني	ابن قدامة
الشرح الممتع شرح زاد المستقنع	ابن عثيمين
مجموع الفتاوى	ابن تيمية
تمام المنة في التعليق على فقه السنة	الشيخ الألباني
الحجاب في الشرع والفطرة	الشيخ عبد العزيز الطريفي
قواعد الأحكام في مصالح الأنام	العز بن عبد السلام
الموسوعة الفقهية الكويتية	وزارة الأوقاف الكويتية
فتاوى الشبكة الإسلامية	موقع إسلام ويب
المدخل	ابن الحاج
شرح الصدور في بيان أحكام النذور	محمد سليمان الفرا
رابعًا: كتب اللغة والأدب	
فقه اللغة	الثعالبي
مقاييس اللغة	ابن فارس
ملحة الإعراب	الحريري

اسم الكتاب	المؤلف
الهوامل والشوامل	التوحيدي
نثر الدر	الآبي
وحي القلم	الرافعي
مقامات الحريري	الحريري
مقامات القرني	الشيخ عائض القرني
ديوان الإمام الشافعي	الإمام الشافعي
خامسًا: كتب السير والتراجم	
السيرة النبوية	ابن كثير
الروض الأنف	السهيلي
سير أعلام النبلاء	الذهبي
قصص القرآن	سعد يوسف أبو عزيز
مناقب القرآن	البيهقي
تهذيب الكمال	المزي
حلية الأولياء	أبو نعيم
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
عمر بن عبد العزيز	علي الصلابي
سادسًا: كتب التربية والرقائق	
الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي "الداء والدواء"	ابن القيم
مدارج السالكين	ابن القيم
زاد المعاد	ابن القيم
روضة المحبين ونزهة المشتاقين	ابن القيم
الفوائد	ابن القيم
مفتاح دار السعادة	ابن القيم

اسم الكتاب	المؤلف
الصلاة وحكم تاركها	ابن القيم
إحياء علوم الدين	الإمام الغزالي
منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين. ط. دار المنهاج	الإمام الغزالي
صيد الخاطر	ابن الجوزي
المدهش	ابن الجوزي
قوت القلوب	أبو طالب المكي
التبيان في آداب حملة القرآن. ط. مكتبة سمير منصور	الإمام النووي
سابعًا: كتب متفرقة	
أسطر من النقل والعقل والفكر	الشيخ عبد العزيز الطريفي
الذكريات للطنطاوي. ط. دار المنارة	الشيخ علي الطنطاوي
كلمات من النار	الشيخ عبد الله عزام
ارتياض العلوم. ط. دار البيان للبحوث والدراسات، ط.٣	مشاري الشثري
نبضات قلم	ربيع السملالي
مختصر كتاب "أولادنا ووسائل التواصل الاجتماعي" لعبد الكريم بكار لوضاح بن هادي	د. عبد الكريم بكار
ثامنًا: دراسات ومحاضرات	
دراسة بعنوان: المشاهد الجنسية تتلف الدماغ	
مقالة عن الشذوذ	د. عمرو أبو خليل
محاضرة "الإنسان والشهوة"	الشيخ محمد راتب النابلسي
تاسعًا: مواقع إلكترونية وقنوات على التليغرام	
قناة الشيخ عبد العزيز الطريفي	
قناة الشيخ أحمد سالم	
موقع ثقافة أون لاين	
موقع youtube للصحافة	

صدر للمؤلف

① «سراج الغرباء إلى منـازل السعـداء»

سياحة ماتعة في فقه السنن، والكتاب منشورٌ على الانترنت.

② «من عـاش على شيء مات عليـه»

والكتاب منشورٌ على الانترنت.

③ «دلـيـل المعتكـف»

ميثاق ثباتٍ وإيمان من رمضان إلى رمضان، بالاشتراك مع الشيخ بلال بن جميل مطاوع، والكتاب منشورٌ على الانترنت.

④ «المنهاج في سعادة الزوجـات والأزواج»

بالاشتراك مع الشيخ محمد بن سليمان الفرا.

⑤ «الرباط وأحكامه في الفقـه الإسلامي»

⑥ «المقدمة السنية في القواعـد الفقهية»

وقريبـًا: يصدر كتاب

«فقه الاستدراك»

كيف تصحح المسير، وتستدرك ما فات في العمر الطويل في زمن قصير؟.

فهـرس الموضوعـات

الموضـــوع	الصفحة
الافتتاحيَّة	٣
المبحث التمهيدي: مقدمات تأصيلية	٧
المطلب الأول: البطاقة الشخصية للداء	٨
المطلب الثاني: سُلطة الشهوة	١٣
المطلب الثالث: سياسة الشيطان في غواية الإنسان	٢٠
المطلب الرابع: بين الشهوات والشبهات	٢٩
المطلب الخامس: فقه التعامل مع الذنب	٣٤
المطلب السادس: الإيمان النامي	٤٥
المبحث الثاني: جرعات الدواء	٤٩
المطلب الأول: تجفيف المنابع	٥٠
المطلب الثاني: تيسير الزَّوَاج	٥١
المطلب الثالث: تطييبُ النفس مما علق بها من خبائث النظر	٥٧
أولاً: التوبة العاجلة	٥٨
ثانيًا: الاستغفار الخاشع	٥٩
ثالثًا: عمل الحسنات الماحية	٦١
رابعًا: المصائب المُكَفِّرَة	٦٤
المطلب الرابع: صبر واصطبار	٧٠
المطلب الخامس: تضييقُ دائرةِ المحرمات عند تحتمها	٧٦
المطلب السادس: تبهيت شهوات الدنيا بشهوات الدين	٨٤
المطلب السابع: شراء الراحة بقرارٍ واحد	٨٩
المطلب الثامن: الخطة الإدارية المكثفة	٩٤

الموضـــوع	الصفحة
المبحث الثالث: حراسة الذات من ذنوب الشهوات	٩٧
المطلب الأول: سياج الحماية	١٠١
المطلب الثاني: السيئة المهلكة	١٠٤
المطلب الثالث: ترك السيئات لئلا تُحبط الحسنات	١١٠
المطلب الرابع: من عاش على شيءٍ مات عليه	١١٤
المطلب الخامس: إذ تستغيثون ربكم	١١٨
المطلب السادس: تفتيت فتنة الشهوات	١٢٢
المطلب السابع: الآثار الشرعية والصحية لذنوب الشهوات	١٢٥
المطلب الثامن: بغض المعصية	١٣٠
المطلب التاسع: هجر مظان المعصية	١٣١
المطلب العاشر: استشعار منطلقات التعامل مع الله	١٣٣
أولاً: الرجاء	١٣٤
ثانيًا: الخوف	١٣٨
ثالثًا: الحياء	١٤٠
رابعًا: الحب والشوق	١٤٢
خامسًا: التعظيم	١٤٤
سادسًا: التذلل لله	١٤٧
المبحث الرابع: مسائل منثورة	١٤٩
المطلب الأول: التَّوسُّع في الذنوب اتكالاً على مغفرة الله ورحمته	١٥٠
المطلب الثاني: يقول: عاهدت الله ألا أعصيه تلك المعصية لكني فعلت، فماذا عليَّ؟	١٥٦
المطلب الثالث: داء العَلاقات الثُّنَائيَّة	١٥٩

الموضـــوع	الصفحة
المطلب الرابع: حكمُ النَّظَرِ للأمرَد وفقهُ التعاملِ معه	١٦٦
الفرع الأول: حكم النظر إلى الأمرد	١٦٦
الفرع الثاني: فقه التعامل مع الأمرد	١٧٠
الفرع الثالث: فقه تعامل الأمرد مع غيره	١٧١
المطلب الخامس: إشاراتٌ حمراء بخصوصِ الفَاحشةِ الكبرى	١٧٤
المطلب السادس: التربية الإعلامية للأطفال إزاء استعمال الانترنت	١٨٤
أولاً: التربية الإعلامية العامة	١٨٥
ثانيًا: التربية الإعلامية الخاصَّة	١٨٦
ثالثًا: وسائل تضييق الاستعمال للانترنت	١٨٨
رابعًا: طريقة التعامل مع الطفل عند اكتشاف متابعته لأمورٍ غير أخلاقية، أو الشك في ذلك	١٨٩
المطلب السابع: عرفت جرع العلاج ووسائل الوقاية ثم أقع مرة بعد مرة، فماذا أفعل؟	١٩٢
عبق الختام	٢٠٠
فهرس المراجع	٢٠٨
فهرس الموضوعات	٢١٤